

الاسم

الأدب الإسلامي

بين النظرية والتطبيق



د. صابر عبد الدايم

دار الشروق

الأدبُ الإسلاميُّ
بين النظرية والتطبيق

الطبعة الأولى
طبعة الشروق الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دارالشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي بويه المصري -
رابعة العبدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

الأدب الإسلامي

بين النظرية والتطبيق

د. صابر عبد الدايم

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر

ووكيل كلية اللغة العربية بالزقازيق

• عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر

• عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

دار الشروق

الإهداء

- إلى أصحاب الرؤى الإبداعية الدائرة في فلك التصور الإسلامي
- وإلى الوطن الإسلامي الكبير وهو على أبواب مدائن الفجر الجديد

د. صابر عبد الدايم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين الذي لا ينطق عن الهوى . . . وعليه أنزل القرآن بلسان عربي مبين .

وبعد :

فإن الرغبة في التنقيب عن القيم الإسلامية في أدبنا العربي قديماً وحديثاً ومحاولة البحث عن نبض الإسلام في النص الأدبي . . شعراً كان أم نثراً . . تعد علامة مضيئة على طريق طويل . . يصلنا بمنابع مقومات الشخصية الإسلامية ، ويرد إلينا ما ضاع من هذه المقومات التي قامت عليها حضارة الإسلام الراقية المؤثرة في كل الحضارات .

ويأتي هذا الكتاب إشارة خضراء على هذا الطريق العسير . . وآمل أن يؤتي ثمرته المرجوة في حقل الدراسات التي تُعنى بتأصيل الأدب الإسلامي وإبراز قيمته الموضوعية والفنية في فنون الأدب كلها .

والكتاب يتكون من قسمين :

القسم الأول: (من معالم التأصيل)،

ويتضمن دراسات تنظيرية . تطمح إلى تأصيل معالم الأدب الإسلامي اتكاءً على القيم الإسلامية وموقف الإسلام من الكون والإنسان والحياة ، واتجه جهد الباحث إلى استكشاف الأبعاد الفنية والجمالية في النص الأدبي ، فالمضمون الجيد لا بد من أن يقدم في إطار فني مؤثر يوقظ في الإنسان ما خمد

في كيانه من وهج المشاعر النبيلة ، والقيم الإنسانية التي تنبع من فطرة الله التي فطر الناس عليها .

وهذا القسم التنظيري ... يتضمن خمس دراسات:

تتجه الدراسة الأولى إلى تأصيل معالم التجربة الأدبية وفلسفتها في ظل خصائص التصور الإسلامي ، وهذا التأصيل منبثق عن كتاب «سيد قطب» (خصائص التصور الإسلامي) .

فالأديب المسلم في ظل هذا التصور ؛ كما قلت في مقدمة هذه الدراسة . تنطلق تجاربه من نبع إيمانه الفياض بالتسليم المطلق لخالق الكون جل وعلا . وهو يمزج هذه الانطلاقة الإيمانية بالتأمل في مشاهد الكون ، والنظر في ملكوت السماوات والأرض ، واستجلاء معالم القدرة الإلهية في صنعة هذا الكون البديع المتناسق . وهو في غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لا يكون بمعزل عن واقع الحياة ، ومشاغل الإنسان وآماله وأحلامه ، فهو في إيمانه يتأمل ماخفى من أسرار الكون ، وهو في تأملاته يستجلى أسرار الحياة ، ويبحث عن منافذ الخلاص للإنسان عبر رؤية إسلامية متميزة متفردة تصاغ معالمها في قالب فني مؤثر .

وفي معرض إرساء هذه الخصائص في حقل التجارب الأدبية ناقش الباحث كثيراً من المواقف والآراء التي شاعت في حقل النقد القديم والحديث ، وكشف كذلك عن زيف بعض القيم الفنية والموضوعية التي خلفتها المذاهب الأدبية والنقدية .

والخصائص التي تؤسس لمعالم التجربة الأدبية في ظل التصور الإسلامي هي : (الربانية - الثبات - الشمولية - التوازن - الإيجابية - الواقعية - التوحيد) .

وترصد الدراسة الثانية : أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر . وهي تستخلص المعالم التأصيلية والفنية للرؤية الإسلامية من النصوص الأدبية . . .

فهي مزج بين التنظير والتطبيق ، والنص الأدبي هو المنجم الفياض بالقيم والمعايير التي يؤصل لها النقاد في كل العصور .

وقد رصدت هذه الدراسة أربعة أبعاد للرؤية الإسلامية في الشعر الحديث ، فأما البعد الأول فيكشف عن تأثير الشعراء المعاصرين بالبيان القرآني ، وجاء هذا التأثير كما ورد بالبحث - متعدد الاتجاهات . . .

فبعض الشعراء جاء تأثيره بالبيان القرآني تأثيراً كلياً شمولياً . . صياغة وفكراً وشعوراً والتزاماً بمنهج التصور الإسلامي وخصائصه .

وفريق من الشعراء جاء تأثيره شكلياً أدائياً . . بعيداً عن نسيج الرؤية الإسلامية الطامحة إلى فعالية الوجود الحضاري المسلم ، فالتأثير حدث بالمعجم القرآني . . وبالأساليب الموجودة في النصوص القرآنية . . وكذلك في القصص القرآني . .

وفريق ثالث : جاء تأثيره سلبياً مضاداً ، وذلك لأن شعراء هذا الاتجاه أساءوا استخدام الألفاظ والتراكيب والمعاني القرآنية ، وكثير من الشعراء المحدثين تورطوا في هذا المزلق الفني ، وبعضهم لا يدرك أبعاد خطورته ، ولا يدري كيف انساق إليه .

والبعد الثاني من أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر يرصد تأثير التراث الإسلامي في تشكيل التجربة الشعرية ومحاو ذلك التأثير ، وأثر الباحث أن يقتصر البحث في هذا البعد على محورين تاركاً الباب مفتوحاً للباحثين . . .

والمحور الأول : يدور حول استدعاء الشخصيات التراثية الإسلامية ، وقد رصد الباحث منهج الشعراء وأسلوبهم في استدعاء الشخصيات وبعثها في الأعمال الشعرية الجديدة ، فالشخصية التراثية في النسيج الشعري - كما ورد في ثنايا البحث - ليست تاريخاً يروي ، وليست سيرة يحكيها الشاعر ، وإنما

استدعاؤها يكون في إطار شعري غير محدد بأسوار التاريخ، وغير خاضع لمنطق الحكم، وهذا الاستدعاء يسلط الشعور الناقد أو الراض أو المتعاطف مع حركة الحياة المعاصرة، وقد يقتصر هذا الاستدعاء على رصد بعد واحد من أبعاد الشخصية مثل البعد السياسي أو الاجتماعي، وقد يتجاوز هذا البعد إلى الرؤية الشمولية للشخصية كلها، وقد يخاطب الشاعر الشخصية من الخارج ولا يتوغل في أعماقها، وقد يحصر استدعاءه للشخصية في قالب مذهبي، ويصوغ رؤيته للملاح هذه الشخصية انطلاقاً من هذا التصور المذهبي.

والمحور الثاني: من محاور تأثير التراث هو «الأمكنة الإسلامية وأثرها في تشكيل النسيج الشعري، والمكان في مدار الرؤية الإسلامية يصبح نقطة انطلاق للالتفاف حول مبادئ محددة مؤثرة يلتف حولها الشباب المعاصر الذي لم يعثر على هويته بعد.

أما المحور الثالث: من أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر فهو بعد زمني يتمثل في السفر إلى الماضي لبعث الحاضر وإحيائه وفق التصور الإسلامي، والسفر إلى الماضي لبعث الحاضر لا ينحصر داخل حدود الأحداث التاريخية ذات الإيقاع الحماسي مثل المعارك وغيرها، بل يتجاوز هذه الأحداث إلى التغلغل في صميم الحياة الإسلامية الناطقة بالوجه الحضاري للإسلام.

وأما البعد الرابع للرؤية الإسلامية: فيتمثل في دور الطبيعة وتوظيفها في تشكيل التجارب الشعرية، فالطبيعة حين توظف في تشكيل الرؤية الشعرية في ظلال الإسلام لا تمثل مصدراً خارجياً، ولا تمثل حالة نفسية كابية، ولا رمزاً واقعياً منفرداً، وإنما تعد الطبيعة رافداً أساسياً في حقل التجربة الشعرية، وتعد نسيجاً يدفع بالتجربة خارج دائرة الرصد المباشر، والتقريرية الثرية، والنبيرة الوعظية، وتعطي للتجربة مذاقاً تأملياً إيمانياً وتدفع بها إلى رحاب الشمولية بعيداً عن التوقع داخل أسوار الذات.

وقد رصد الباحث في دراسة هذا البعد تجربة ثلاثة شعراء لهم نتائجهم الممثل لهذه الظاهرة، وهذه التجربة هي :

(أ) تجربة عبد العليم القباني في ديوان «لله وللرسول» .

(ب) تجربة محمد بن عمارة «وموقف الشاعر المسلم من الطبيعة رؤية وفناً» .

(ج) التجربة التأملية وإضاءات الطبيعة في ديوان «مسافر إلى الله» لأحمد شبلول .

والاهتمام بأدب الطفولة في مجتمعنا العربي والإسلامي يجب ألا يفصل عن الاهتمام بتكوين الطفل وتنشئته تكويناً صحيحاً في ظل الأصول والمفاهيم الأخلاقية التي حددها الإسلام، حتى ينشأ الطفل ووجدانه مشبعاً بأنفاس الحضارة الإسلامية وعبقها، وكيانه مهياً لمعيشة واقع الحياة الإسلامية سلوكاً وتعليماً وتربية ومشاركة مسئولة في ميادين الحياة العملية، وكل كتابة للأطفال لا تنطلق من هذا المنظور فهي كتابة تفتقد الرؤية الصحيحة، وتكتفى بالتسلية الوقتية التي تبهر الطفل بالخيالات العابثة والأوهام الخادعة، ولا تُعنى بصنع مستقبله ومستقبل أمته .

ومن هذا المنظور تنطلق الرؤية في دراسة أدب الطفولة في ضوء التصور الإسلامي .

وهذا النوع الأدبي يتطلب إخلاص ودأب خبراء التربية، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، ومشاركة كبار المبدعين . في تقديم المنهج الملائم، والنص الإبداعي المشوق، ولا نفل أسرى ترجمة النظريات والطرق والمناهج التي صيغت في بيئات لا تتفق مع مكوناتنا الروحية والنفسية والاجتماعية .

ويظل الطفل جوهره الواقع وكنز المستقبل، وهو هبة من الله العليّ القدير، وأمانة في أعناقنا، حملناها طواعية وحباً، والمحافظة عليها واجب شرعي، وخلق إنساني وتمسك بديمومة الوجود المثمر المعطاء .

وأما الدراسة الرابعة في هذا القسم فهي دراسة موجزة تحتاج إلى تفصيل وتحليل ، وإنها دعوة حارة دفعت إليها الغيرة على قيمنا وتقاليدنا . . إن هذه الدعوة توقظ السادرين في غيهم المقلدين لكل قيم الغرب الواردة إلينا ، ولا تتفق مع منهجنا في الحياة ، ويرفضها التصور الإسلامي ، فواقعية الإسلام تقوم على أساس من العدالة والتقوى والتسامح والعمل الصالح .

وليست قائمة على الصراع والتنافس والسعي إلى التفوق مهما كانت الوسائل حتى لو دُمّر الآخرون .

ولا تقوم الواقعية الإسلامية على أسس العقد النفسية ، ومحاولة التكفير عن الخطيئة كما يشيع في الأسس الفكرية والفنية للمذاهب الوافدة .

ولا تقوم واقعية الإسلام على محاربة القيم الروحية ورفض الغيبيات كما تنادى بذلك الواقعية المحزنة بكل اتجاهاتها (الأوروبية - والاشتراكية - والطبيعية) .

فواقعية الإسلام غير هذا كله إنها تقوم على أسس وخصائص التصور الإسلامي وقد جلت الدراسة الأولى قيمة هذه الخصائص وأوضحت أثرها في التجربة الأدبية .

وتطمح هذه الدراسة إلى البحث عن معالم بصمات الشخصية الإسلامية والعربية في أعمالنا الأدبية ، تدعو إلى إعادة صياغة فكرنا وأدبنا بما يتفق مع ملامح هذه الشخصية حتى لا تفترسنا الواقعية المريضة المحزنة .

وترصد دراسة : الأدب الإسلامي : آفاقه . . وحدوده . . الرؤى النقدية ؛ والمجالات والميادين التي ارتادها الباحثون والنقاد في مؤتمر الأدب الإسلامي بجامعة عين شمس .

وهي رؤى متكامل وتشلاقي في دائرة كبرى تشع جوانبها بأفاق الرؤية

الإسلامية الباحثة عن منابع الهوية الحقيقية لأمة الإسلام في جميع أقطار المعمورة.

وأما القسم الثاني من هذا الكتاب . فهو دراسات نصية تطبيقية، تحلل بعض النماذج الأدبية .

والبيان النبوي يعد قمة البيان العربي بعد القرآن الكريم، ومن هنا كانت الدراسة الأولى - من أسرار البيان النبوي في خطبة حجة الوداع - وهي كنز من الأساليب المضيئة بالإيمان الناطقة بأدق أسرار لغتنا العربية الفصحى «لغة القرآن الكريم» .

ورصدت الدراسة الثانية «غزوة الخندق بين شاعرين» رؤية شاعر مسلم حظى بلقب «شاعر الرسول» فشعره نموذج للشعر الإسلامي رؤية وأداء .

وقصيدة «حسان بن ثابت» جاءت رداً على موقف مناهض لشاعر من شعراء المشركين وقتها .

وأعظم ما يقدمه الشعر الإسلامي هو الوقوف في وجه المد الطاغوي لموجات الرؤى المعادية للإسلام شريطة أن يقدم هذا الشعر في ثوب فني يحمل كل خصائص الشعر وأبعاده الجمالية .

أما دراسة أبعاد التجربة الإسلامية في شعر السنهوتى فترصد تجربة شاعر معاصر لم يقدر لشعره الذبوع والانتشار ولكنه ينطوى على شاعرية سامقة، وصوت الإسلام في شعره قوى مؤثر، والدفاع عن الإسلام قضيته . . وهي منبع روافده الشعرية ومصبها، فهو إما أن يبدأ منها، وإما أن يعود إليها، إنه يتحرك في قلب هذه الدائرة مهما تعددت اتجاهات شعره من ذاتية واجتماعية ووطنية ودينية وتأملية .

والشاعر «محمود غنيم» يعد في الطليعة من أولئك الشعراء الكلاسيكيين الكبار الذين أخلصوا لفن الشعر، وتمثل الرؤية الإسلامية في شعر هذا الشاعر

تياراً رئيساً في رحلته الشعرية الخصبة الممتدة، وهو المنهج الذي ارتضاه سلوكاً وتعبيراً فنياً وأفاقاً معرفية، والدراسة الثالثة تعني بهذا المعلم من معالم تجربة الشاعر محمود غنيم، وهي دعوة لقراءته قراءة إبداعية في ظلال هذه الرؤية الحضارية.

وفي دراسة معالم التجربة الشعرية في ديوان «نسمات إيمانية» للشاعر الدكتور أحمد عمر هاشم. تتضح وظيفة الشعر في ميدان الدعوة الإسلامية، وتؤكد الدراسة أن في شعر د/ أحمد عمر هاشم تمتزج معالم شخصيتين شخصية الداعية الملتزم، وشخصية الشاعر المحلق الصادق مع توجهه رؤية وفنا وقد غدا الشعر لديه وسيلة فنية من وسائل الدعوة، وسلاحاً من أسلحتها.

والوهج الديني لا يخبو في آفاق التجارب الشعرية التي ارتادها «هاشم الرفاعي»، ولا ينقطع الخيط الإسلامي، فهو شاعر مسلم، نشأ في بيئة دينية تعبق بشذا الإسلام وروحانيته، ولكن الشاعر لم يعمق هذه التجارب الدائرة في فلك التصور الإسلامي ولم يتكئ على الوسائل الفنية التي توضح أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر، وفي ضوء هذا التصور تتحرك ظلال الرؤية الإسلامية في شعر هاشم الرفاعي.

والشاعر د/ حسين على محمد من الشعراء المتميزين بالعطاء الإبداعي والنقدي الثر الدائر في فلك التصور الإسلامي.

وهو يمتلك أدوات فنية عالية تمكنه من السيطرة على التجربة الشعرية وينأى فيها عن السطحية والتقريبية والمباشرة، وقد سخر «حسين على محمد» هذه الأدوات الجمالية الفنية المعاصرة لإثراء تجاربه في حقل الأدب الإسلامي الخصب.

وديوانه: حدائق الصوت نموذج للمزج الفني بين جماليات الأداء، وبراعة التصوير، وبين تقديم الرؤية الحضارية الإسلامية المعاصرة.

والنهج القصصى يغلف التجربة . . في «قصة إبراهيم الخليل» للشاعر/
أحمد نور الدين . .

حيث أثر أن يتخذ من التاريخ وسيلة فنية لصياغة تجربته الشعرية، وعمد إلى قالب القصصى ليصب فيه مفردات تجربته، واختار من التاريخ الإنساني شخصية جلييلة لها مكانتها في التاريخ البشري كله، وفي تاريخ الأديان، فسيدنا إبراهيم أبو الأنبياء يمثل عطاء متجدداً يثرى الوجدان الإنساني، ويوحد المشاعر المؤمنة التي تنضوى تحت لواء التوحيد .

وأرجو من الحق سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه . . ففكرته وبعض دراساته أشرقت في ظلال البلد الأمين «مكة المكرمة» .

وآمل أن يجد متذوقو الأدب ودارسوه، ومبدعوه في هذا الكتاب ما يحبون، وأن يعثروا فيه على ما يرغبون انطلاقاً من المنهج الرباني في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] . صدق الله العظيم .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د. صابر عبد الدايم

الزقازيق

غرة المحرم سنة ١٤١٠ هـ ط ١

٢ من أغسطس سنة ١٩٨٩ م

غرة المحرم سنة ١٤٢٢ هـ ط ٢

٢ من أغسطس سنة ٢٠٠١ م

القسم الأول من معالم التأصيل

ويتضمن خمس دراسات:

- أولاً: معالم التجربة الأدبية في ظل خصائص التصور الإسلامي.
- ثانياً: أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر.
- ثالثاً: أدب الطفولة في ضوء التصور الإسلامي.
- رابعاً: يا أدباء الإسلام انتبهوا؛ هذه هي ملامح الواقعية المحزنة.
- خامساً: الأدب الإسلامي؛ آفاقه وحدوده.

أولاً: معالم التجربة الأدبية في ظل خصائص التصور الإسلامي (*)

إن الشخصية الإسلامية لها مقوماتها التي لا تتجزأ، ولها تصوراتها التي لا تقبل التشتمت، وهذه المعالم تنطلق من منظور كلي شامل، في العقيدة والكون والأدب والحياة، فموقف المسلم من هذه المعالم . موقف متماسك غير مجزأ، وحين ندرس خصائص التصور الإسلامي التي جلاها «سيد قطب» في كتابه الذي حدده ل طرح هذا التصور لا نكون بمنأى عن حقل التجربة الأدبية في ظل التصور الإسلامي، فكل ما حدده في هذا الكتاب من خصائص لا يختص بالتصور الديني فقط . بل يعالج ويدرس فكرة الإسلام عن الله والكون والحياة والإنسان، وقد أشار إلى ذلك في هامش الصفحة الخامسة من الكتاب .

والأديب المسلم في ظل هذا التصور تنطلق تجاربه من منبع إيمانه الفياض بالتسليم المطلق لخالق الكون جل وعلا، وهو يمزج هذه الانطلاقة الإيمانية بالتأمل في مشاهد الكون، والنظر في ملكوت السماوات والأرض، واستجلاء معالم القدرة الإلهية في صنعة هذا الكون البديع المتناسق .

(*) إضاءة: هذه الدراسة قراءة أدبية لكتاب «سيد قطب» [خصائص التصور الإسلامي] ويقع في ٣٤٢ صفحة من الحجم المتوسط : إصدار الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية في عام ١٣٩٨ هـ . ١٩٧٨ م .

نشرت هذه الدراسة بجريدة «المسلمون بالسعودية» عام ١٩٨٧ م .

وهو في غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لا يكون بمعزل عن واقع الحياة ومشاكل الإنسان وآماله وأحلامه، فهو في إيمانه يتأمل ما خفى من أسرار الكون، وهو في تأملاته يستجلى أسرار الحياة، ويبحث عن منافذ الخلاص للإنسان عبر رؤية إسلامية متميزة متفردة تصاغ معالمها في قالب فني مؤثر.

والإمام الشهيد «سيد قطب» لم يكتف بالتنظير للتصور الإسلامي في مجال التجارب الأدبية، بل وجدناه يترجم هذه التصورات إلى واقع عملي أسلوبى في مؤلفاته المتعددة، فهو في «ظلال القرآن» يستجلى معالم هذا التصور، ويستنبط هذه الخصائص من خلال تحليله لأسلوب القرآن الكريم ومعانيه السامقة، وكذلك تحليله للقصاص القرآنى، وكأنه يلقن الجيل الإسلامى الفريد فى هذا العصر وفى العصور المقبلة أسرار العربية والخصائص الفنية والشعورية والتعبيرية والصوتية لأرقى أسلوب وأسمى بيان، وهو بهذا يقدم نموذجاً تحليلياً فى دراسة النص واستكشاف أبعاده الفكرية والجمالية، وقد أشرق هذا التوجه فى كتابه «مشاهد القيامة».

وفى كتابه «النقد الأدبى: أصوله واتجاهاته» يصوغ رؤيته للأدب الإسلامى قائلاً: «... والأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى للحياة قد لا يحفل كثيراً بتصوير لحظات الضعف البشرى، ولا يتوسع فى عرضها، وبطبيعة الحال لا يحاول أن يبررها فضلاً على أن يزيناها بحجة أن هذا الضعف واقع فلا ضرورة لإنكاره أو إخفائه، وقد يلم - هذا الأدب أحياناً - بلحظات الضعف البشرى، ولكنه لا يلبث عندها إلا ريثما يحاول رفع البشرية من وهدة هذه اللحظات وإطلاقها من عقال الضرورة وضغطها، وهو لا يصنع هذا متأثراً بالمعنى الضيق لمفهوم «الأخلاق» إنما يصنعه متأثراً بطبيعة التصور الإسلامى للحياة، وبطبيعة الإسلام ذاته فى تطوير الحياة وترقيتها وعدم الاكتفاء بواقعها فى لحظة أو فترة،.. ثم يقول «وأخيراً فإن الإسلام لا يحارب الفنون ذاتها ولكنه يعارض بعض التصورات والقيم التى تعبر عنها هذه الفنون. ويقيم

مكانها - في عالم النفس - تصورات وقيماً أخرى قادرة على الإيحاء بتصورات إبداعية، وعلى إبداع صور فنية أكثر جمالاً وطلاقة، تنبثق انبثاقاً ذاتياً من طبيعة التصور الإسلامي، وتتكيف بخصائصه المميزة»^(١).

وقد بنى «سيد قطب» كتابه (خصائص التصور الإسلامي) على الأسس التالية:

أولاً: كلمة في المنهج.

ثانياً: تيه وركام.

ثالثاً: خصائص التصور الإسلامي وهي:

[الربانية - الثبات - الشمول - التوازن - الإيجابية - الواقعية - التوحيد] وهو في تحديده لطبيعة المنهج الإسلامي يؤكد أنه لا بد للمسلم من تفسير شامل للوجود يتعامل على أساسه مع هذا الوجود، لا بد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية. وهذه تشتمل على حقيقة الكون وحقيقة الحياة وحقيقة الإنسان وما بينها جميعاً من تعامل وارتباط» ص ٥.

والأديب المسلم حين يمتزج وجدانه بأضواء الحقائق السابقة وتتشرب مشاعره معالمها، تأتي تجاربه شاملة متنوعة مؤثرة، تتجاوز الخاص إلى العام، تسمو فوق الرغبات الدنيا، تشتاق إلى معانقة الوجود - المثال - الوجود المسلم بكل ما يحمله من خير للإنسان، وخصوبة للمشاعر، ونقاء للأحاسيس، وبذلك ندرك أهمية تعرف الشباب المسلم على هذه الخصائص، والسير في ظلها، وفي أضوائها حين يسافر في مدائن التجارب الإبداعية محملاً بشحنات العواطف وثمار الأفكار.

وفي تحديد معالم المنهج يأخذ «سيد قطب» بيدنا إلى تأمل أسمى ظاهرة في

(١) انظر نص المقال بكتاب «النقد الأدبي» لسيد قطب من [ص ٩٩ - ١٠٢].

التاريخ الإنساني وهي «ظاهرة انبثاق أمة من خلال نصوص كتاب» وهي ظاهرة فريدة تؤكد أن «القرآن الكريم» به عاشت هذه الأمة، وعليه اعتمدت في الدرجة الأولى، والسنة ليست شيئاً آخر سوى الثمرة الكاملة النموذجية للتوجيه القرآني» ص ٨.

وتحديداً للمنهج يدعو الكاتب إلى ما نسميه في تقويم التجارب الأدبية بـ«المعاناة» ومعايشة التجربة فيقول «القرآن لا يدركه من يعيش خالي البال من مكابدة الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقية، ومن معاناة هذا الأمر العسير الشاق، وجرائره وتضحياته وآلامه، ومعاناة المشاعر المختلفة التي تصاحب تلك المكابدة في عالم الواقع في مواجهة الجاهلية في أي زمان».

وبعد الدعوة إلى معايشة البيئة الإسلامية الأولى زماناً ومكاناً، يدعو «سيد قطب» إلى تجاوز دائرة الثقافة والمعرفة إلى آفاق الحركة المؤثرة، فالوقوف عند حد «المعرفة الباردة» هدف «تافه ورخيص» «إنما نبتغي الحركة من وراء المعرفة. نبتغي أن نستحيل هذه المعرفة قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع، نبتغي استجاشة ضمير الإنسان لتحقيق غاية وجوده الإنساني، كما يرسمها هذا التصور الرباني» ص ١٣.

ويحذر «سيد قطب» من الوقوع في شرك المؤثرات الثقافية الأجنبية فالتعامل معها يكون تعاملًا فاحصًا، مقومًا، بحيث لا يستحيل الإنسان المسلم -مفكرًا أو فقيهًا- إلى جهاز استقبال فقط يحكى ما يسمعه أو يراه، فإذا به بعد حين من الدهر يتلاشى ولا يعود شيئًا مذكورًا!!

وما مأساة الجيل الحاضر عنا ببعيد، حيث تاه في دروب الفلسفات المتباينة، وتاهت عنا معالمه الحقيقية، المعالم التي حددها القرآن العظيم^(١).

والكاتب يقرأ حركة التاريخ الإسلامي، ويضع يديه على حقيقة الداء حيث

(١) تفاصيل هذه المأساة تحدها مجلة في كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للشيخ أبو الحسن الندوي.

اصطدم التطور الإسلامي بالفلسفات والثقافات الأخرى . واشتغل الناس بالفلسفة الإغريقية وبالمباحث اللاهوتية ، التي تجمعت حول المسيحية ، والتي ترجمت إلى اللغة العربية ، ونشأ عن هذا الاشتغال الذي لا يخلو من طابع الترف العقلي في عهد العباسيين وفي الأندلس أيضاً انحرافات واتجاهات غريبة على التصور الإسلامي «الأصيل» ص ١٤ .

ويدين الكاتب الفلسفة الإسلامية لأن رجالها فتنوا بالفلسفة الإغريقية وبالمباحث اللاهوتية وظنوا أن الفكر الإسلامي لا يستكمل مظاهر نضوجه واكتماله أو مظاهر أبعثه وعظمته إلا إذا ارتدى هذا الزي . زي التفلسف والفلسفة وكانت له فيه مؤلفات ، وأكد موقفه هذا الراض لتغريب الفكر الإسلامي كما نقول في هذا العصر بذكر ثلاث حقائق وهي :

أولاً: إن الفلسفة الإسلامية كما نقول لم تكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية منقولة نقلاً مشوهاً مضطرباً ، في لغة سقيمة مما ينشأ عنه اضطراب كثير في نقل هذه الشروح .

ثانياً: عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي كانت تنم عن سذاجة كبيرة وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية وعناصرها الوثنية العميقة .

ثالثاً: إن انقسام المسلمين إلى فرق واعتناقهم لهذه الفلسفات جعلهم يتعدون بالنصوص عن مرادها .

وينتهى الكاتب باقتناعه قناعة تامة بأنه يجب «عزل ذلك التراث جملة عن مفهومنا الأصيل للإسلام ودراسته دراسة تاريخية بحثة لبيان زوايا الانحراف فيه ، وأسباب هذا الانحراف ، وتجنب نظائرها فيما نصوصه اليوم من مفهوم التصور الإسلامي» ص ١٩ .

واعتقد أن حماس «سيد قطب» وإخلاصه لقضية تصفية التصور الإسلامي

من كل شائبة، قد دفعا به إلى هذا الموقف الرافض لثمار الفكر الإسلامي في أزهى عصور الحضارة الإسلامية، وفي الحقيقة أننا لا نستطيع أن نلغي كل هذه الجهود الفكرية لعلماء الإسلام، فهم لم يكونوا نسخاً مشوهة من فلاسفة الإغريق، وإنما وجدناهم يصفون ما يترجمونه ويحاولون الانتفاع بما يجدونه نافعاً في مجالات التفكير، فقد وقف علماء الإسلام في وجه الملاحدة والزنادقة، وأتباع «مزدك» و«مان» و«زرادشت» وناظروهم وأفحموهم، ففكرهم برغم ما شابهه من تأثر بالفلسفات الأخرى كان صورة لمقومات الشخصية الإسلامية، ومكونات التصور الإسلامي، ومن منا يستطيع أن ينكر جهود ابن رشد والكندي والفارابي وابن سينا والغزالي، وكذلك جهود المحدثين والمفسرين والفقهاء وعلماء اللغة والأدب والبلاغة، وكتب التراث حافلة بالمناظرات والحوارات والمناهج التي دافع من خلالها علماء الإسلام وفلاسفته عن عقيدة الإسلام الصافية.

وفي المجال الأدبي لم يقلد النقاد والشعراء الأدب الإغريقي «الوثني» لأنه لم يترجم لهم كاملاً، وكذلك لا يتوافق هذا الأدب بما يحوي من تصور أسطوري، ورؤية وثنية مع وجدان الشاعر المسلم، وبرغم هذا الحذر لم ينج الشعراء والكتاب من إصابتهم بسهام هذه الثقافات الملحدة، فظاهرة المجون في الشعر العباسي وسريان الخيط الفلسفي في النسيج الشعري عند أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء يعد أثراً من آثار هذه الثقافات «اليونانية والفارسية والهندية».

وبرغم هذه السمات السلبية للتأثر بالثقافات الأجنبية في الفكر الإسلامي، لا نستطيع أن نتوافق مع الكاتب في عزل التراث جملة عن التصور الإسلامي، لأن التأثير سمة كل حضارة زاهية مشرقة. والحضارة الإسلامية لها سماتها المميزة في الفكر والأدب والعمارة والفنون، وقد أثرت في ازدهار الحضارات الأوروبية في العصر الحديث.

وموقف «سيد قطب» من الفكر الفلسفي ومن التراث الإسلامي في هذا المجال هو موقفه نفسه من مناهج التفكير الأوروبية حيث يرفضها ويؤكد على أنها لا تصلح أساساً للفكر الإسلامي وتصوره .

وفي أكثر من موضع في كتابه يذكر بهذه الحقيقة ، فهو يردف رأيه في الفلسفة الإسلامية ودعوته إلى عزل التراث الفكري برأيه في مناهج الفكر الغربي ويصفها بأنها «سارت في طريقها الوثني مستمدة ابتداء من الفكر الإغريقي وما فيه من لوثة الوثنية ثم مستمدة أخيراً من عدائها للكنيسة وللتفكير الكنسي في الغالب» ثم يبين أن الفكر الأوروبي رفض منهج التفكير الديني بجملته ، واتجه إلى ابتداء مناهج ومذاهب للتفكير .

ولنتأمل هذه الحقيقة الواقعية التي ذكرنا بها الأديب المسلم «سيد قطب» لنكتشف أن هذه المناهج والمذاهب الفلسفية وجهت أدباء الغرب ، فإذا بالتاج الأدبي بفنونه المختلفة تجسيد فني لمبادئ هذه المذاهب على اختلافها وتباين مراحل تطورها من مثالية عقلية ، ووضعية حسية ، وجدلية مادية ولا تنتهي موجات هذه المذاهب ، وأحدث مولود تمخضت عنه «الجدلية المادية» هو «البنوية» حيث أعلن أصحابها عن موت الإنسان وأصبحت الآلة هي مركز الكون الجديد في منظور «البنويين» !!

فالأديب المسلم مطالب بالوعى التام ، والحذر الشديد وهو يقرأ التراث الإنساني ، مطالب بهضم ذلك التراث وتصفيته من الشوائب حتى لا تتحول تجاربه إلى مسخ شائه ، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة ، فتجربة الأديب المسلم موشاة بإطار العقيدة الصافية ، فالعقيدة - إطلاقاً - والعقيدة الإسلامية - بوجه خاص - تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص ، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع ، واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبرى التي لا تتمثل كلها في العبادة ، ولكن توحى بها العبادة ، كما يمتاز - هذا الأسلوب - بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقتها و منافذ المعرفة فيها ، ولا يخاطب الفكر وحده في الكائن البشري ص ٢٣ .

وثقافة كل أمة وكل «لغة» هي حصيلة أبنائها المثقفين بقدر مشترك من أصول وفروع، كلها مغموس في الدين المتلقي عن النشأة كما يقول العلامة «محمود شاكر» ويتابع قوله عن ضرورة ارتباط اللغة بالدين وهما غير قابلين للفصل «فهو لذلك صاحب السلطان المطلق الخفي على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً، سلطان لا ينكره إلا من لا يبالي بالتفكر في المنابع الأولى التي تجعل الإنسان ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه، ومستبيناً عن غيره»^(١).

والأديب المسلم ثمرة هذا التكوين الإسلامي المميز، فأسلوبه شعاع من ذلك الأسلوب الذي كونه وامتاز بالحيوية والإيقاع واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبيرة التي لا تتمثل كلها في العبارة، ولكن توحى بها العبارة.

وهذه السمات من أدق الخصائص التي يجب أن توشى التجربة الأدبية في ظلال التصور الإسلامي.

وفي صدد إيضاح «سيد قطب» لخاصية «الثبات» في التصور الإسلامي يعطينا المقابل في الفكر الغربي القائم على النقيض لكي يكبر فينا الحذر، ويتعمق الوعي ونحن نتعامل مع هذا الفكر فيقول:

«وحين نطالع مذاهب الفكر الغربي فنرى الطابع الغالب عليها هو اعتبار «التطور المطلق» دون الرجوع إلى أي أصل ثابت، فيجب أن نكون واعين للعوامل التاريخية التي جعلت هذا الفكر يجنح أو يجمع هكذا، ويجب أن نفطن لما اندس في هذا الفكر من عداً عميق كامن للتفكير الديني على الإطلاق، والأسباب القابعة وراء هذا العداً، ويجب أن ندرك أن مناهج هذا الفكر - بما اندس في صلبها من هذا العداً - لا تصلح للتطبيق على مناهجنا الإسلامية، ولا تصلح للاستعانة بها في تجربتنا الإسلامية كذلك» ص ١٤٧.

(١) انظر رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. للأستاذ محمود شاكر ص [١١١] «كتاب الهلال» العدد ٤٤٢ أكتوبر سنة ١٩٨٧ م.

ويتكرر الموقف نفسه من محاولات إقحام التصورات الأخرى في دائرة التصور الإسلامي، وهو يحلل خاصية «الشمول» إحدى خصائص هذا التصور فيؤكد أن «هذا التصور من الشمول والسعة، ومن الدقة والعمق، ومن الأصالة والتناسق، بحيث يرفض كل عنصر غريب عليه، ولو كان هذا العنصر «اصطلاحاً» تعبيرياً من الاصطلاحات التي تقتضيها أزياء التفكير الأجنبية، وللتصور الإسلامي اصطلاحاته الخاصة المتفوقة في طبيعة اشتقاقها اللغوي، وفي ملابساتها التاريخية والموضوعية مع طبيعته وإيحاءاته، وهذه ظاهرة دقيقة تحتاج إلى حس لطيف يدرك مقتضيات هذا التصور في الشعور ومقتضياته كذلك في التعبير» ص ١٦٥ .

وفي مجال توضيح خاصية «التوازن» في التصور الإسلامي يوضح «سيد قطب» العلاقة بين الله والإنسان فهما ليسا كفوئين ولا ندين، ولا متصارعين ولا يرجح أحدهما ليشيل الآخر، ولا يغلب أحدهما ليهزم الآخر، ثم يوازن «الكاتب» بين التصور الإسلامي . حيث الإله متصف بكل كمال منزه عن كل نقص «ليس كمثل شئ» وبين التصورات التافهة التي استقرت في أذهان الأوروبيين تأثراً منهم بالأساطير الإغريقية والأساطير العبرية، وتعاليم «نيتشة» الذي أعلن موت «الإله» ومولد الإنسان الأعلى «السوبرمان» !!!

ومن العجيب أن هذه الأساطير المرفوضة في التصور الإسلامي تسلت في غيبة الوعي الديني عند كثير من المبدعين إلى حقول الإبداع، فإذا بصورة الإله تشوه في أعمالهم الإبداعية، ولفظ «الجلالة» لا تصان قداسته في النسيج الإبداعي، وأصبحت التجربة الأسطورية القائمة على تشويه صورة «الإله» من أرقى التجارب الأدبية في معيار النقد الحديث !!!

وهذا المنحي الفني والمعياري النقدي، أثر بارز مؤثر من آثار بريق الفكر الأوروبي الخادع الذي غمر بزيفه وخيالاته المريضة عقول المفكرين وقرائح الأدباء، وأسطورة «سارق النار» برومئوس كم كانت . . ولا تزال وحيًا لكثير

من الشعراء ، وكم أشاد بها النقاد مثل غيرها من الأساطير القائمة على تشويه التصور الديني فهي «تصور كبير الآلهة» «زيوس» غاضباً على الإله «برومثيوس» لأنه سرق النار المقدسة «سر المعرفة» وأعطاه للإنسان من وراء ظهر كبير الآلهة الذي لم يكن يريد للإنسان أن يعرف ، لئلا يرتفع مقامه فيهبط مقام كبير الآلهة ، ويهبط معه مقام «الإله» ومن ثم أسلمه إلى أفضع انتقام وحشي رعيب! ص ٢٢٦ .

وهذا التصور الأسطوري لحقيقة «الإله» عند الأوروبيين يعد صدى لما حفلت به ديانة بني إسرائيل اليهودية من تصورات وثنية ، حيث «أثبتوا في كتبهم المقدسة»! وفي صلب العهد القديم أساطير وتصورات عن الله - سبحانه - لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين ، الذين لم يتلقوا رسالة سماوية ، ولا كان لهم من عند الله كتاب . ص ٣٩ - ٤٠ .

وأسطورة «سارق النار» «برومثيوس» لا تبتعد كثيراً في رؤيتها وهدفها عما جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين (بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأكل من الشجرة وهي كما يقول كاتب الإصحاح : «شجرة معرفة الخير والشر» وقد جاء النص التالي مصوراً الإله في صورة الخائف على نفسه من تفوق الإنسان عليه ، ولا يخفى ما في هذا الصراع من سخرية بالإله ، ومن وصفه بالحققد والشرور والانتقام!!! .

يقول صاحب الإصحاح «وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختمباً آدم وامراته من وجه الرب الإله ، في وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإله آدم . وقال له أين أنت؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة ، فخشيت لأنى عريان . فاختمبأت . فقال من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها؟

وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفاً الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً! ويأكل ويحيا إلى الأبد . .

فأخرجه الرب الإله من جنة عدن، ليعمل في الأرض التي أخذ منها، فطرد الإنسان . وأقام شرقي جنة عدن «الكروبيم» ولهيب سيف متقلب «لحراسة شجرة الحياة» ص ٤٤ .

فهذه التصورات «الوثنية» التي كمنت فيها التصورات الأسطورية المختلفة «تحمّل في صميمها عداً طبيعياً للتصور الإسلامي وللفكر الإسلامي ولا تصلح بتاتاً للاقتباس منها أو الاستعانة بها، هي كالمس الذي يتلف الأنسجة، ويؤذي الأعضاء، ويقتل في النهاية إذا أكثر المقدار» ص ٢٢٧ .

وفي مجال المقارنة بين منهج الإسلام المعتدل المتوازن في تلبية مطالب الروح ومطالب الجسد، وبين ما ذهبت إليه النصرانية كما صنعتها الكنيسة من أن الشر كله ممثل في عالم الجسد، أي عالم المادة، والخير كله في عالم «الروح»، ومن ثم اقتضى الأمر احتقار كل ما هو مادي، والهروب منه: يقول بعد ذلك كاشفاً عن الخلط والفساد في التصور الفلسفي في القرن التاسع عشر «حيث قام من يجعل من الطبيعة إلهاً، ويجعل من العقل البشري مخلوقاً من مخلوقات هذا الإله كما فعل «كونت» و «نيتشة» من زعماء المذهب الوضعي، ومن يجعل جانباً من عالم المادة وهو «الاقتصاد» إلهاً يخلق العقول والأدباء والفلسفات و «الأدب» والأخلاق كما فعل «كارل ماركس»! ويحط من قيمة الإنسان تجاه هذا الإله، فيجعله عاملاً سلبياً لا يقدم ولا يؤخر، إنما يتلقى فقط ويتأثر» ص ٢٤٣ .

و حين يعرض «سيد قطب» «لإيجابية التصور الإسلامي» معتقداً وفكراً وأدباً وحياة وسلوكيات في هذه الحياة يحرض على المقارنة بين إيجابية هذا التصور في علاقته بخالق الكون، وبين سلبية التصورات الأخرى، وهذه الإيجابية في التصور نراها سارية في تجارب الأدباء الإسلاميين رؤية وأداء أو من شأنها أنها تسري وتصيغ إبداعهم بصبغة السمو الروحي، والتفاؤل المشرق حيث لا تغرق الرؤى في ضباب الأحزان ولا تحرق بنار الألم المبدعة،

ولا تستعذب الألم لذاته، وإذا لم تجده تخيلته وصورته شبها لا يفارق كما يقول «شاتو بريان» «فالصفات الإلهية في التصور الإسلامي ليست صفات سلبية، والكمال الإلهي ليس في الصورة السلبية التي جالت في تصور أرسطو، وليست مقصورة على بعض جوانب الخلق والتدبير كما تصور الفرس في صفات «هرمز» إله النور والخير، واختصاصاته، وليست محدودة بدرجة من درجات الخلق كتصور أفلاطون، وليست محدودة بحدود شعب كتصورات بني إسرائيل وليست مختلطة أو متلبسة بإرادة كينونة أخرى كبعض تصورات الفرق المسيحية، وليست معدومة على الإطلاق كما تقول المذاهب المادية التي تنفى وجود الإله الحي المرید- إلى آخر هذا الركام» ص ٢٤٦.

وانطلاقاً من هذا التصور يخالف «سيد قطب» رائدين من رواد الفكر الإسلامي في العصر الحديث وهما «محمد إقبال» والشيخ «محمد عبده».

فأما اختلافه مع إقبال فيرجع إلى أن إقبال «حاول أن يصوغ التصور الإسلامي في قالب فلسفي متأثراً منه بالمناهج الفكرية في أوروبا، ورغبة منه في «تجديد الفكر الديني في الإسلام» وقد أراد أن ينفذ عن «الفكر الإسلامي» وعن الحياة الإسلامية ذلك الضياع والفناء والسلبية كما أراد أن يثبت للفكر الإسلامي واقعية «التجربة» التي يعتمد عليها المذهب التجريبي ثم المذهب «الوضعي»، ولكن النتيجة كما استخلصها «سيد قطب» تمثلت في عدة ظواهر:

(أ) الجموح في إبراز الذاتية الإنسانية حيث اضطر إقبال إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلاً تأباه طبيعتها كما تأباه طبيعة التصور الإسلامي.

(ب) ذهب إقبال إلى أن الموت ليس نهاية التجربة - ولا حتى القيامة، فالتجربة والنمو في الذات الإنسانية مستمران أيضاً عنده بعد الجنة والنار، وهذا التصور لا يفرق بين دور الإنسان في الحياتين - الدنيا والآخرة - فحياة

الإنسان لا تسمى تجربة لأنها من صنع مدبر حكيم . فهو يتحرك في دائرة المشيئة الإلهية ، وكذلك الدنيا دار ابتلاء وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء ، وهذا الغلو في التصور إنما من الرغبة الجارفة في إثبات وجود «الذاتية» واستمرارها أو الـ «أنا» كما استعار إقبال من اصطلاحات «هيجل» «الفلسفية» .

(ج) اصطلاح «التجربة» الذي استعاره «إقبال» من الفكر الغربي ، حاول أن يمد مجاله إلى «التجربة الروحية» التي يزاولها المسلم ويتذوق بها الحقيقة الكبرى ، وذلك مخالف للحقيقة لأن «التجربة بمعناها الاصطلاحى الفلسفى الغربى ، لا يمكن أن تشمل الجانب الروحى أصلاً لأنها نشأت ابتداءً لنبذ كل وسائل المعرفة التى لا تعتمد على التجربة الحسية ص ٣٢ .

وأما اختلاف «سيد قطب» مع الشيخ محمد عبده . فيرجع إلى أن الشيخ الإمام حين أراد أن يواجه الجمود العقلى فى الشرق والفتنة بالعقل فى الغرب جعل العقل البشرى نداءً للوحي فى هداية الإنسان ، ولم يقف به عندما أن يكون جهازاً من أجهزة الكائن البشرى يتلقى الوحي» .

والحقيقة كما يقول «سيد قطب» إن الوحي والعقل ليسا نديين . فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذى يرجع إليه الآخر ، والميزان الذى يختبر الآخر عنده مقرراته ومفاهيمه وتصوراته . ويصحح به اختلافاته . وانحرافات ، فبينهما - ولا شك - توافق وانسجام ولكن على هذا الأساس لا على أساس أنهما ندان متعادلان ص ٢٩ .

ومما يؤكد ما ذهب إليه فى بداية هذه الدراسة من ضرورة تواجد التجربة الإبداعية الإسلامية فى إطار التصور الإسلامى بخصائصه ومقوماته أن الكاتب الشهيد يحدد الغاية من كتابه فى نهاية المبحث الأول قائلاً :

«هذا الكتاب محاولة لتجديد خصائص التصور الإسلامى ومقوماته التى ينبثق منها منهج الحياة الواقعي - كما أراد الله - ودستور النشاط الفكرى

والعملي والفني الذي لا بد أن يستمد من التفسير الشامل الذي يقدمه ذلك التصور الأصيل» ص ٣٣ .

فإن التجربة الإبداعية الإسلامية تنبثق من خصائص التصور الإسلامي ، وتموج بكل ما تحمله التجارب الأدبية من عاطفة جياشة ، وخيال متوقد وبصيرة نافذة ، ورؤى متفتحة على الآفاق الكونية ، والطموحات الإنسانية ، وهي في تفتحها المستنير لا تنفصل عن دائرتها الكبرى دائرة «الإسلام» ومع ذلك فهي ليست بمنأى عن البيان العربي المشرق ، ولا تنطفئ في أدواتها إشراقة الفن ، ولا يخبو وهج الأداء في تعاملها مع الله والكون والحياة!

وقبل أن يحلل «سيد قطب» خصائص التصور الإسلامي ، نراه يقدم لهذه الخصائص بمبحث عنوانه «تبه وركام» وهو يقصد بالتبه تخبط الإنسانية على مدارها الطويل ، وفي مسيرتها المتعاقبة جيلاً بعد جيل ، واصطدامها بترجمات من الفكر المشوه المتطور النائي عن الرؤية الواضحة والتصوير اليقيني الحاسم يقول :

«وكان التبه الذي لا دليل فيه ، ولا هدى ولا نور ولا قرار ولا يقين ، هو ذلك التبه الذي يحيط بتصورات البشرية لإلهها وصفاته ، وعلاقته بالكون وعلاقة الكون به ، وحقيقة الإنسان ومركزه في هذا الكون وغاية وجوده الإنساني ، ومنهج تحقيقه لهذه الغاية ، ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص .

ومن هذا التبه ، ومن ذلك الركام ، كان ينبعث الشر كله في الحياة الإنسانية وفي الأنظمة التي تقوم عليها^(١) .

ومنهج «سيد قطب» في رصد الظواهر يقوم على الاستقراء التاريخي ، وتتبع مواطن الظاهرة في القرآن الكريم ، فنصوص القرآن هي منبع المنهج

(١) ارجع إلى كتاب «خصائص التصور الإسلامي» من ص [٣٩-٦١] .

ومصدره الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ويذهب الكاتب إلى أن المسلم عليه أن يتعرف على هذا الركام، ويتبين أبعاد هذا التيه حتى يشعر بحلاوة الإيمان، ويدرك عظمة التصور الإسلامي، وبضدها تتميز الأشياء كما قال القدماء، يقول عمر- رضي الله عنه - «ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية» فالذي يعرف الجاهلية . هو الذي يدرك قيمة الإسلام، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه ونعمة الله المتحققة به» ص ٦٢ .

وهذه الدعوة إلى معرفة النقيض أو اكتشاف معالم الوجه المضاد تفتح أمام المفكر المسلم، والأديب المسلم أبواباً متعددة للدخول منها إلى عوالم الثقافة القديمة والحديثة، فالأديب المسلم ليس بمعزل عن التيارات السائدة، بل عداً أن يتحصن ضد المعرفة بالمعرفة، فيصفي، وينتقى، ويحلل، ويفحص ما يقدم إليه، ويقبل ما يتوافق مع فطرته الإنسانية، ورؤاه الفنية، ويكشف زيف الفكر الدخيل، والرؤى الهدامة، وهذه هي «الحركة الإيجابية» التي يتجاوز بها المسلم دائرة المعرفة الجامدة الباردة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الملك : ٢٢) .

وإلى خصائص التصور الإسلامي نبهر مع الإمام الشهيد «سيد قطب» لعنا عشر على ما في القاع من كنوز مسترشدين بقول الحق سبحانه: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد : ١٧) .

أولاً: الريانية [٦٥-١٢٠]؛

يحدد الكاتب هذه الخاصية ويؤكد أنها هي التي تنبعث منها وترجع إليها الخصائص من الثبات والشمول والتوازن والإيجابية والواقعية والتوحيد،

فهذه الخصائص تعدد وتنوع وتوزع ولكنها تتضام وتتجمع عند خاصية واحدة (خاصية الربانية) .

«إنه تصور رباني، تصور غير منظور في ذاته، إنما تتطور البشرية في إطاره، وترتقى في إدراكه وفي الاستجابة له. وتظل تتطور وترقى وتنمو وتتقدم. وهذا الإطار يسعها دائماً، وهذا التصور يقودها دائماً، لأن المصدر الذي أنشأ هذا التصور، هو نفسه المصدر الذي خلق الإنسان» ص ٦٦ .

وعلى الرغم من تعدد الأديان السماوية ومن دعاوى الكثيرين بإيمانهم بالربوبية نجد أن هذه التصورات انحرفت عن المنهج السوي، والتصور الإسلامي هو التصور الاعتقادي الوحيد الباقي بأصله الرباني «وحقيقة الربانية» .

ويتواصل تفكيرنا، وتتجاوز مشاعرنا مع «سيد قطب» وهو يوضح القول الفصل بين التصور الفلسفي والتصور الاعتقادي حيث يذهب إلى أن التصور الفلسفي ينشأ في الفكر البشري من صنع هذا الفكر لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به ولكنه يبقى في حدود المعرفة الفكرية الباردة، فأما التصور الاعتقادي - في عمومه - فهو تصور ينبثق في الضمير، ويتفاعل مع الشاعر، ويتلبس بالحياة، فهو وشيجة حية بين الإنسان وخالق الوجود» ص ٦٢ .

ولتأمل موحيات التعبير في العبارة السابقة «ينبثق في الضمير - يتفاعل مع الشاعر - يتلبس بالحياة» إن هذه المعالم التي حددها الكاتب للتصور الاعتقادي تؤكد على الصدق الداخلي وعلى التصديق القلبي، وترجمة هذا التفاعل الصادق إلى حركة مؤثرة تبني الحياة، وهذه الحركة الإيمانية قد تكون عملاً حسياً يدوياً أو آلياً، وقد تكون فكراً هادياً مستنيراً، وقد تكون عملاً إبداعياً متوجاً، يتعمق أسرار الوجود، ويضيء زوايا النفس البشرية، ويقرأ كتاب الكون المفتوح، ويستجلي مرائي الطبيعة ومشاهدها، وينطقها بآيات القدرة الربانية الخلاقة المبدعة .

ويركز الكاتب في هذا المبحث على مفهوم الإنسان في التصور الإسلامي وعلاقته بالكون وخالقه «والإنسان ينطوي على أسرار عميقة مهما جد العلماء في الوصول فلن يستطيعوا الوصول إلى منابعها، والعلم قد يتقدم في معرفة جوانب من حقيقة الإنسان أكثر مما عرف، ولكن أسرار التكوين الإنساني ستظل خافية عليه أبداً، سيظل سر الحياة وسر الموت خافيين تماماً، وسيظل سر الروح الإنساني بعيداً عن مجال إدراكه . لأن شيئاً من هذا كله لا يلزمه في وظيفته الأساسية» ص ٩٤ .

والإنسان في التصور الإسلامي لا يصنع لنفسه التصور الاعتقادي، وعلى أساس من الحقيقة السابقة يضع «سيد قطب» نماذج من البشر ضلت طريقها، وانحرفت عن جادة التصور، وهم الذين حاولوا إنشاء تصورات اعتقادية من عند أنفسهم، والذين أنشأوا تصورات فلسفية لتفسير الوجود وارتباطاته، والذين حرفوا العقائد السماوية وبخاصة «النصرانية» وكان هذا الانحراف طريقاً إلى البلاء الذي يعم البشرية كلها اليوم، وقد عم طوفان هذا البلاء نتيجة لتدخل الفكر البشري في أصل التصور الرباني . وهو بلاء لا يعد له آخر في تاريخ البشرية الطويل .

«وقد حفظت أصول التصور الإسلامي من تحريف البشر، وإنما وقع التحريف في أصول الديانة المسيحية، وقد مر الصراع بين الدين والعقل والحس في تاريخ الفكر الغربي بعدة مراحل تمثلت في المثالية العقلية ثم الوضعية الحسية ثم الجدلية المادية، حيث تمثلت المرحلة الأولى في سيادة النص أو الدين طوال القرون الوسطى، وتمثلت المرحلة الثانية في سيادة «العقل» حيث كان عصر (التنوير) أو العصر الإنساني، وتمثلت المرحلة الثالثة في «سيادة الحس» وسمي ذلك العصر عصر الوضعية وسيادة الطبيعة على الدين والعقل، وسيادة الطبيعة على الدين والعقل تفتق عنها نشوء (الماركسية) فالعقل انعكاس للمادة عند ماركس، وليس كما يصرح (هيجل) بأن المادة

انعكاس للعقل ، وفي منظور هذا الفكر المادي يصبح كل الإنتاج الثقافي والذهني فرعاً عن الحياة الاقتصادية ، وكل التاريخ لهذا يجب أن يكون تاريخ اقتصاد» ص ١٠٨ .

وهذا الركام من التصورات الوضعية التائهة في خضم الفلسفات المتناقضة والتي يقوم التالي منها على أنقاض السابق أثر في تجارب الأدباء الغربيين من قصاصين وشعراء وكتاب ملاحم ، وكتاب مسرحيات مثل بلزاك ، وبودلير ، ورامبو ، وتولستوى ، وغيرهم من الذين صاغوا الفلسفات السابقة صياغة فنية ، وأصبحت أعمالهم الإبداعية ترجمة لها .

فالنزعة الكلاسيكية نشأت في أحضان «سيادة النص أو الدين» كما صورته الكنيسة وقد حدد «يرونثير» خصائص الكلاسيكية فقال (إنما يكون الكاتب كلاسيكياً لأن كل القدرات تؤدي في أعماله الأدبية وظائفها المشروعة دون طغيان من جانب الخيال على العقل ، ولا كبح من جانب المنطق لجماح الخيال ، ولا عدوان من جانب العواطف على حقوق العقل ، ولا إطفاء من جانب العقل لحرارة العواطف ، ولا حرمان للمادة من سلطان الجاذبية الذي ينبغي أن تستمد من سحر الشكل ، ولا اغتصاب من جانب الشكل لما هو من خصائص المادة» .

وقد مرت الكلاسيكية بعصور متعددة وهي : عصر النهضة وعصر الباروك ، وعصر انتصار القواعد ، وعصر التنوير ، ومن أهم أدباء عصر النهضة (چوفان بوكاتشو) وقد أثر في شكسبير ، ولوبي دي فيجا ، وليسنج وجوته . ومن أهم أدباء عصر (الباروك) فرنسيس بيكون في إنجلترا وديكارت في فرنسا ، ولوب دي فيجا في إسبانيا .

وعصر (انتصار القواعد) من أهم أدبائه (راسين ، لا فونتين ، موليير بوالو) .

وعصر التنوير من أهم أدبائه (دانييل ديفو، مونتسكيو، فولتير، روسو، جوته).

وبرغم نشأة الأدب الكلاسيكي في «عصر سيادة النص أو الدين نجدته ثائراً على تقاليد الكنيسة ومصبوغاً بالصبغة العلمانية حيث قام على بعث ومحاكاة التراث الوثني الإغريقي، وانصبت التجارب الكلاسيكية على الاهتمام بالوجود المادي بالحياة الدنيا والوجود الإنساني فيها، وكذلك كانت هناك عودة إلى الإباحية الرومانية، يقول (رابليه) وهو من ألمع أدباء النهضة. متحدثاً عن رجال الدين ومحارباً التصور الديني «أولئك الرعاع ذوى العقول الزائفة. الماكرين والقديسين المزورين، الوقورى الهيئة، المرائين، مدعى الإيمان، الإخوان الخشنيين. . . الرهبان الذين يلبسون النعال. اهرب من هؤلاء الرجال. . . عليك بكراهيتهم واحتقارهم قدر ما أكرههم أنا. وإنني لأقسم لك أنك إن فعلت فستجد نفسك أفضل حالاً».

والنزعة الرومانتيكية نشأت في ظل «المثالية» وقد ولدت النزعة المثالية لديهم إحساساً عبثياً تجاه الوجود، وكذلك الشعور بالاغتراب الزماني والمكاني، والحنين إلى عالم مثالي لا يوجد إلا في أحلامهم يقول (چيراردى نرفال) لكل فنان وطن مثالي غالباً ما يكون بعيداً عن وطنه الأصلي، تراح إليه موهبته الفنية والرومانسية، إن غاية النشوة وقمة السعادة تكمن في أن يطلق الإنسان عنان نفسه لتذوب في حب الطبيعة وتفني فيها كما يفنى الصوفي في معبوده، ولذا أحلت الطبيعة محل «الله» والشعور محل «العقل» بهذا الاعتقاد. وهي من هذا المنطلق وتلك الرؤية تكشف عن صورة وثنية جديدة.

ويقول الأستاذ/ محمد قطب في كتابه «جاهلية القرن العشرين».

«وكل الكلام الجميل المعسول الذي قيل لتبرير هذه الوثنية أن الطبيعة محراب الله، وأن الجمال صورة الله، وأنا نعبد الله في خلقه، إلى آخر هذه الجمل الرومانتيكية البراقة، كل هذا الكلام لا يستطيع أن يخفي تلك الروح

الوثنية الغارقة في الوثنية التي تعبد المحسوس في حقيقة الأمر لأنها تعجز عن إدراك الله بالروح . . . والروح غنية عن المحسوسات^(١) .

والواقعية الطبيعية والواقعية الاشتراكية، ومدرسة الفن للفن، والسريالية والرمزية . وما جدَّ بعد ذلك من مذاهب نشأت كلها في ظل سيادة الحس . وسيادة الجدلية المادية التي انبثقت عن الوضعية الحسية، وكلها تنأى عن التصور الديني . . . بل وتحاربه . فنشأة مذهب «الفن للفن» وكذلك المذهب البرناسي كانت على أساس فلسفي مزدوج، حيث يعتمد هذا المذهب من ناحية على الفلسفة المثالية الجمالية، وأعظم دعامة لهم من هذه الناحية فلسفة، كانت، ومن ناحية ثانية على الفلسفة الواقعية والتجريبية التي سادت أوروبا منذ حوالي منتصف القرن الرابع عشر^(٢) .

ويقول فكتور كوزان «في إحدى المحاضرات التي ألقاها في السربون عام ١٨١٨م الشريعة لأُمور الدين، والخلق للخلق، والفن للفن، ولا يمكن أن يكون الفن طريقاً للنافع، ولا للخير، لأن الفن لا يقود إلا لذات نفسه» .

ويقول «تيوفيل چوتيه» مترجماً مبادئ أنصار «الفن للفن»، ونحن نعتقد في استقلال الفن، فالفن ليس لدينا وسيلة، ولكنه الغاية، وكل فنان يهدف إلى ما سوى الجمال فليس بفنان فيما ندر، ولم نستطع قط التفرقة بين الفكرة والشكل، فكل جميل هو فكرة جميلة^(٣) .

والنزعة الواقعية في مجال التثري كان لها تأثيرها الفعال، فالفن القصصي والمسرحي والروائي كان معبراً لأصحاب هذه النزعة التي شوهدت واقع الإنسان، وابتعدت به عن الفطرة السليمة ونادت بأن «الإنسان للإنسان ذئب

(١) انظر جاهلية القرن العشرين للأستاذ/ محمد قطب (٢٢٦-٢٢٧) .

وانظر العلمانية ص [٤٦٦] د/ سفر بن عبد الرحمن الحوالي .

(٢) انظر الأدب المقارن للأستاذ محمد غنيمي هلال .

(٣) المرجع السابق ص [٣٨٧] .

ضار» ولا يدري أصحاب هذه النزعة في الواقع طعمًا للخير ، بل يعتقدون أن الواقع شر في ذاته» .

فهل يحق لنا نحن - الأدباء المسلمين - أن نقلد هذه التيارات تقليدًا أعمى ، ونسترشد بها في غير حذر ، ونضعها في قمة النضج الإبداعي أمام حسنا الفني ، وهي صدى للفلسفات الشوهاء التي أفرزتها مراحل تطور الفكر الأوروبي من مثالية عقلية إلى وضعية حسية إلى جدلية مادية ، وقد تنطوي بعض هذه الاتجاهات الإبداعية على قيم عالية يمكن أن نفيد منها ، ولكن الانتصار للفن لا يكون طريقًا لحجب الرؤية الحقيقية عن الإنسان ، ولا يجعله يضحى بخصائصه وسمات شخصيته النابعة من خصائص وسمات التصور الإسلامي ، حيث تغلف «الربانية» كل نتاج إبداعي ، وتناهى بذلك النتاج عن التصورات الوثنية التي أطاحت بفطرة الإنسان وألقت به في متاهات الحيرة والقلق والضياع!!!

ثانياً، الثبات:

وخاصية الثبات في التصور الإسلامي تنشأ عن خاصية «الربانية» وقد صاغها «سيد قطب» في صورة دالة موحية . . صورة حركية فقال إنها . . . أي خاصية الثبات «الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت» وهذه الخاصية بهذا المفهوم طابع الصنعة الإلهية في الكون كله لا في التصور الإسلامي وحده .

ويبرهن «سيد قطب» على هذا المفهوم ببرهان واقعي ملموس . فمادة هذا الكون سواء كانت هي الذرة أو الإشعاع البسيط أو أي صورة ثابتة الماهية ، ولكنها تتحرك فتأخذ أشكالاً دائمة التغير والتحول والتطور ، وقياساً على هذا الاستدلال يمكن أن نقول . إن رؤية الأديب المسلم ثابتة منطلقة من منظور مؤمن بخصائص التصور الإسلامي ، ولكن هذا الثبات يتحرك في طريقة صياغة هذه الرؤية في صورة تجربة شعرية بكل أشكالها أو تجربة قصصية بكل

ما تحمل من اتجاهات وأنواع، أو تجربة مسرحية، مع ضرورة وعي الأديب المسلم بأصول هذه الفنون وقيمها الفنية ومجالاتها فكل فن تتعدد أشكاله وقوالبه، فالصياغة حركة فنية جمالية داخل إطار الرؤية الإسلامية الثابتة، والأديب المسلم تأتي رؤيته الفنية ربانية ثابتة متوازنة شمولية، إيجابية، واقعية، رافضة لكل أشكال ومضامين الوثنية القديمة والحديثة.

ويضع أمامنا «سيد قطب» عشر حقائق ليؤكد مظاهر الثبات في التصور الإسلامي وهي:

- ١ - حقيقة وجود الله .
- ٢ - الكون كله من خلق الله وإبداعه .
- ٣ - حقيقة العبودية لله، عبودية الأشياء والأحياء .
- ٤ - حقيقة الإيمان بالله شرط لصحة الأعمال وقبولها .
- ٥ - حقيقة أن الدين عند الله الإسلام .
- ٦ - حقيقة أفضلية الإنسان على سائر الخلائق في الأرض .
- ٧ - المساواة بين الناس والتفاضل لا يكون إلا بالتقوى .
- ٨ - غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله .
- ٩ - العقيدة هي رابطة التجمع الإنساني لا الجنس ولا القوم ولا الأرض ولا اللون ولا الطبقة .
- ١٠ - الدنيا دار ابتلاء وعمل والآخرة دار رحاب وجزاء

وكما قلت : إن منهج «سيد قطب» يقوم على استنباط الحقائق ثم الموازنة بينها وبين الظواهر التي انحرفت عن جادة الصواب، فبعد أن عرض لمظاهر الثبات . وضع آثار البعد عن محور الثبات، ودل على أن فكرة التطور المطلق تناقض الأصل الواضح في بناء الكون، ثم أقام الحججة على رواد الفكر الغربي

ونقض مسببات فكرة الثبات عندهم، ورد على داروين، وسفه فكرة التطور التي نادى بها، وتحدث عن الماركسية ومبدأ النقيض الذي استخدمه «فيشته» في مجال التصور، واستخدمه «هيجل» في مجال الفكرة وخالفهما ماركس واستخدمه في مجال الاقتصاد، فكل شيء في نظره يتضمن نقيضه بحيث إن كل شيء يهدم نفسه.

ثم يقول مقوما طريقة التأثر بهذه الأفكار «إننا نقتبس من هذا الفكر تارة منهاجه، وتارة النتائج التي وصل إليها وتارة رقعا ممزقة منه، ثم تخلط هذا كله بحديثنا عن الإسلام أو عن مناهج الفكر والنظر، وهذه كلها جهالة تتباهى وهي تتبدى في ثياب المعرفة، وأحياناً يضاف إلى الجهالة التفاهة وسوء النية كذلك».

ثالثاً: الشمول؛

وأبرز ما في هذه الخاصية أن التصور الإسلامي لا يحده زمان ولا مكان، بل هو خطاب للعالمين، وفي المقابل: التصور البشري مسور بحدود الزمان والمكان - «ولا يمكن أن تجيء فكرة بشرية ولا أن يجيء منهج من صنع البشرية يتمثل فيه الشمول أبداً إنما هو تفكير جزئي أو تفكير وقتي ومن جزئيته يقع النقص، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذي يحتم التغيير، ويتمثل في الأفكار التي استقل البشر بصنعها، وفي المناهج التي استقل البشر بوضعها دوام التناقض أو دوام الجدل المتمثل في التاريخ الأوروبي»^(١).

وهذا التصور الشامل له آثار حميدة في توجيهات النشاط العقلي والمشاعر الوجدانية، وتساؤلات الإنسان المحيرة عن المسافة بين الوجود والعدم، والمسافة بين المادة الجامدة والخلية الحية والتعرف على سر انبثاق الحياة في المادة الميتة، وسر سيرتها هذه السيرة العجيبة.

(١) انظر كتاب «خصائص التصور الإسلامي» للأستاذ سيد قطب [١٥٦-١٥٥].

وكل هذه الآثار يمكن أن تحوم أطيافها حول رؤى الشعراء، ومشاعر الأدباء ويمكن أن تصبح من مكونات تجاربهم الأدبية المتنوعة، ولكن هذه الأطياف العائدة من مدن الحلم والشوق إلى معانقة الحقيقة لا تقود المسافر في مدائن التأمّلات الكونية إلى فضاء التساؤلات ولا إلى عبثية الرؤية، بل تقوده إلى مرفأ اليقين، واستقرار الرؤى، فالتصور الإسلامي عن طريق هذه الخاصية في صورتها هذه «يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة واتصالاً بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود. كما هي في عالم الحقيقة والواقع، ويعفى الفكر البشري من الضرب في التيه بلا دليل، ومن الإحالة على أسرار غير مضبوطة، وأحياناً غير موجودة كالإحالة على «الطبيعة» أو الإحالة على «العقل» أو الإحالة على كائنات أسطورية كالتي صورتها الوثنيات وتلبست بها الفلسفات على مدار التاريخ»^(١).

وخاصية الشمول في التصور الإسلامي يمكن أن تصبح طابعاً لصياغة التجارب الأدبية، حيث تتسم بالشمول والخطاب الإنساني الدائر في فلك هذا التصور، والسمو بالتجارب الذاتية الخاصة إلى الآفاق الفسيحة الشاملة حيث تتعامل مع الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها.

ومن خلال هذا التصور الشامل «تتجمع هذه الكينونة . . تتجمع شعوراً وسلوكاً، وتصوراً واستجابة في شأن العقيدة والمنهج، وشأن الاستمداد والتلقى، وشأن الحياة والموت، وشأن السعي والحركة، وشأن الصحة والرزق، وشأن الدنيا والآخرة، فلا تتفرق فرقاً ولا تتجه شتى السبل والآفاق، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق»^(٢).

واتكاء على هذا التصور الشامل يكون تفاعل الأديب المسلم مع فطرة

(١) انظر كتاب «خصائص التصور الإسلامي» «سيد قطب» ص [١٦٣].

(٢) انظر المرجع السابق ص [١٨٣].

الإنسان في كل زمان ومكان . لا يعوقه جنس ولا يمنعه لون ، ولا تحصره بيئة ، ولا تأسره عصبية ، ولا تحركه رغبات فردية ، ولا تسيطر عليه نوازع مرضية تصبغ إبداعه بصبغة ذاتية انفعالية ، وإنما تتفتح مداركه على الجمال الكوني والشعور الإنساني المستضيء بنور التوحيد ، والسابح في آفاق الإيمان .

رابعاً: التوازن؛

ليس هناك تعارض بين هذه الخصائص فهي تتجمع في دائرة واحدة، مثلها مثل أشعة متعددة تنبثق من مصدر واحد، وقد تناول «سيد قطب» في تحليله لهذه الخاصية عدة مظاهر تمثل صور التوازن في التصور الإسلامي ومنها:

أ - التوازن بين التسليم المطلق وبين شوق الكينونة الإنسانية إلى التأمل والبحث والتفكير، وقد أكد على أن الإيمان بالغيب من مميزات الشخصية الإسلامية، ومن سمات عقيدته وهذا الإيمان يقود المشاعر المؤمنة إلى التأمل والتدبر والنظر فيما يخفى من أسرار هذا الوجود .

وهذه التأملات كما قلت سابقاً منبع فياض للتجارب العميقة والرؤى المحلقة في آفاق الأدب الإسلامي يقول الأديب المسلم «سيد قطب»: إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود، ليست عقيدة ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها، وأشواقها الخفية إلى المجهول، المستتر وراء الحجب المسدلة»^(١).

ب - التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية:

وهذا التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة يحدث التوازن في الضمير البشري في خطاه الواقعية، وفي رؤاه المستقبلية، وفي تصوراته الكونية، وفي رصد لحقائق الوجود وموقفه منها حيث يقف على أرض مستقرة، يعمل فيها

(١) انظر المرجع السابق ص [١٩٤].

وهو يعلم طبيعة الأرض، وطبيعة الطريق، وغاية السعي، وجزاء الحركة، وفي الوقت ذاته يعيش موصول الروح بالله، معلق القلب بمشيئته، ولا يستكثر عليها شيئاً، ولا يستبعد عليها شيئاً، ولا ييأس أمام ضغط الواقع أبداً، يعيش طليق التصور، غير محصور في قوالب جديدة يضع فيها نفسه ويتصور أن مشيئة الله سبحانه محصورة فيها وهكذا حتى لا يتبدل حسه ولا يضمّر رجاؤه، ولا يعيش في إلف مكرور»^(١).

جـ- التوازن بين المشيئة الإلهية الطليقة ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة وهي قضية القضاء والقدر و«الجبر والاختيار».

وقد أفاض الكاتب في تحليل هذه المشكلة، وكذلك «مشكلة الشر والألم» «واتخذ من النصوص القرآنية براهين قاطعة تخرج الإنسان من حيرته وقلقه»^(٢).

وهذه المشكلة الاعتقادية كانت معبراً لكثير من الشعراء القدامى الذين تأثروا بعلماء الكلام ومجادلات الفرق الإسلامية تأثراً منهم بالثقافات الوافدة والعقائد القديمة، وقد برر كثير من الشعراء سلوكهم الفاسد في الحياة بأنهم مجبورون على ذلك ولا اختيار لهم في سلوكهم، وقد انغمسوا في الممذات، واعتنق بعضهم المبادئ الهدامة الفاسدة وصارت حياته مزيجاً من خبث القول والفعل وفساد المعتقد، وإذا بهم يبررون هذا السلوك بأنهم مجبورون ولا اختيار لهم فيما يفعلون.

ومن هؤلاء بشار بن برد. فقد كان يؤمن بفلسفة الجبر وأن الإنسان مسلوب الإرادة والمشيئة. وهو بهذا المعتقد يبرر سلوكه الفاسد في الحياة.

يقول بشار مصوراً ما يذهب إليه من إيمان بالجبر:

(١) انظر المرجع السابق ص [٢٠٣].

(٢) انظر المرجع السابق ص [٢٠٢-٢١٥].

طبعت على في غير مخير
هو اى . ولو خيـرت كنت المهذبـا
أريد فلا أعطى . وأعطى ولم أـرد
ويقصر على أن أنال المغيبـا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر
وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وهذا المسلك يبتعد عن منطق «التوازن» وهو من أدق خصائص التصور الإسلامي ، فالشعر نشاط إبداعي إنساني ، وهو في إطار التصور الإسلامي لا يجمد في قالب بارد فاتر كما يدعى كثير من النقاد قديماً وحديثاً ، لأنهم لم يقفوا على حقيقة المشاعر المؤمنة ، ولم يدركوا أبعاد التجربة الإيمانية في تعاملها مع الكون والحياة والإنسان .

وأبو نواس : نراه يميل إلى مذهب المرجئة «في فكرة» العفو ويعارض المعتزلة في فكرة «صدق الوعد والوعيد على الله» برغم تأثره بكثير من الأفكار الفلسفية مثل فكرة «الكمون» وفكرة «الجوهر الفرد» وفكرة «الجزء الذي لا يتجزأ» وقد استفاد من هذه الأفكار في تجاربه الشعرية المتعددة ، ومعتقده في فكرة «العفو» كان بدافع من شعوره بالإثم ، وانغماسه في حياة الملذات والشهوات : قولاً ، وفعلاً ، ووجد في هذه الفكرة حصناً يحتتمى به من نذر العقاب ، ومصير المارقين ، وما أشدها من نذر ، وما أقساه من مصير !!!

يقول أبو نواس :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة
عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً

فإن حظر كنه بالدين إزراءً

والحقيقة كما يقول «سيد قطب» في التصور الإسلامي . . ليست هناك مشكلة حين يواجه الأمر بمفهوم هذا التصور وإيحائه ، إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ كل ما ينشأ وما يخلق من الأحداث والأشياء والأحياء ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم وما يحدثونه فيها من تغيرات ، وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة لا يبطل هذا ولا يعطله ، فالأمران يجيئان مجتمعين أحياناً في النص القرآني الواحد كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا . وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (الإنسان : ٢٩ - ٣٠) .

أما مشكلة «الشر والألم» فليس هناك مشكلة من وجهة النظر الإسلامية للأمر . لأن الدنيا دار ابتلاء وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء فما يصيب الإنسان في هذه الحياة يقابله نعيم في الحياة الأخرى ، إذا قابل الإنسان هذه الآلام القاسية والظواهر التي تبدت له في صورة الشرور اللافتة بالثبات والصبر والثقة في كرم الله وعدله امتثالاً لقوله : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

وبهذا كما يقول «سيد قطب» : «يحل الإسلام الجانب الشعوري من هذه المشكلة في الضمير البشري ، ويسكب فيه الطمأنينة والاستقرار»^(١) .

وهذا الجانب الشعوري في مكونات الضمير البشري تتشكل في إطاره الرؤى الإبداعية ، لدى الأدباء المسلمين ، فتأتي تجاربهم سوية مخالفة للتجارب الرومانسية التي تستعذب الألم ، وتطلبه لذاته ، وذلك لأن

(١) انظر كتاب «خصائص التصور الإسلامي» للشهيد سيد قطب ص [٢١٠] .

الرومانسيين فقدوا «التوازن النفسي»، حيث نجد الأديب الرومانسي «يضيّق ذرعاً بعالم الحقيقة، ويطلق لنفسه العنان في أحلام يعوض بها ما فقدته في عالم الناس من حوله، حتى إن عالم خياله صار أرحب من عالم الحقيقة المحدود؛ وقد ترسم «الرومانسيون» في هذا الاتجاه خط «روسو» الذي يقول: «لو تحولت أحلامي إلى حقيقة لما اكتفيت بها، بل لظلمت أتخيل وأحلم، لاتقف رغبتني عند حد». . . وقادهم هذا الإحساس إلى فقد التوازن، والإحساس العبثي تجاه الوجود.

يقول «شاتوبريان» كانت عزلتي التامة بين مشاهد الطبيعة سبب استغراقي في حالة تستعصي على الوصف، فكنت أحس كأثما يسيل في قلبي ما يشبه جداول من سيول بركانية متأججة يعوزني شيء أملاً به هوة الفراغ في وجودي^(١). وكذلك تحالف الرؤى الإبداعية المتشكلة في إطار التصور الإسلامي حيث «التوازن النفسي والرؤى الشمولية» تخالف هذه الرؤى الإسلامية منهج الواقعيين الطبيعيين، والواقعيين الاشتراكيين في تعاملها مع الواقع، حيث لا تقبل عليه وهو في تصورهما شر جاسم على حرية الإنسان، وأن الخير قشرة نحيلة لا تكاد تخفي الوحش الكامن في أعماق الإنسان، وأن الإنسان للإنسان ذئب ضار، وأن من يبتغي النجاح في الحياة عليه في منهج الواقعيين أن يسقط بين الناس كقنبلة أو أن يتسلل بينهم كواب^(*).

هذه القيم المتصادمة مع الواقع لا تقترب منها الرؤية الإبداعية في ظل التصور الإسلامي، بل تقبل على الواقع لتجميله، والتكيف معه وإصلاحه

(١) انظر الرومانتيكية د/ محمد غنيمي هلال.

(*) لكتاب هذه الدراسة مقال بعنوان «الواقعية المحزنة» نشر بالمجلة العربية، وكذلك حوار حول الرؤية الإلهامية وظاهرة الشعر الحضاري. وملاحظ الواقعية الإسلامية موازنة بالواقعية الأوروبية نشر بجريدة «المسلمون».

بوسائل فنية . . تطرح ولا تفرض، تقترح ولا تحدد، توحى ولا تجزم، ومع ذلك التوازن في الاعتقاد والشعور في النشاط والحركة الذى يقطع التعطيل والإرجاء السلبية والإحالة على مشيئة الله في المعصية أو الشلل والجمود والسلب، نجد الأديب المسلم لا تخلو تجربته الإبداعية من صراع، فالصراع هو سر توهج التجربة، وهو وقود انفعالها، وهو التيار الإيجابي الناقل لمؤثراتها . . . ولكن هذا الصراع يظل بين الخير والشر، الخير الكامن في التصور الإسلامي والمضيء زوايا النفس المؤمنة، والشر المتمثل في وساوس الشيطان، وكل ما يزينه للإنسان من رغبة جامحة في التهام الشهوات من النساء، والعاطفة المحتدمة النابعة من التعصب العرقى، والتفاخر بالأبناء، وكذلك اللهات وراء القناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحراث، والغلبة في النهاية للمشاعر المؤمنة، والرؤى الدائرة في فلك التصور الإسلامي .

وصور التوازن التي عرض للمامحها الإمام الشهيد . تجعل من توازن الرؤى الإبداعية في ظل العقيدة الصافية، والتكوين الرباني . ألقاً متوهجاً بالصدق والفن على اختلاف نوعية الفنون القولية والتعبيرية .

فكم يشعر الأديب المسلم بقيمته حين يدرك أبعاد التوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله، ومقام الإنسان الكريم في هذا الكون، وحين يدرك أن التصور الإسلامي في هذا الصدد سلم من كل الهزات والأرجحات التي تعاورت المذاهب والمعتقدات والتصورات ما بين تأليه الإنسان في صورته الكثيرة، وتحقير الإنسان إلى حد الزراية والمهانة ص ٢٢ .

وكم يقاوم الأديب المسلم في نفسه هواتف الغرور، ودواعى التعاضم وأوهام الخلود، حين يدرك أبعاد التوازن في علاقة العبد بربه، حيث يقف

الضوء حروف تنسجها هالات قدسيه
والأفق منارات يذكيها عطر الصلوات الكونية
والليل تناجي آيته نبض السنوات الضوئية
والفجر على أبواب مدائننا يدفع رايات إسلاميه^(١)

خامساً: الإيجابية:

ومصدر هذه الإيجابية يتمثل في منبعين أساسيين هما: الإيجابية الفاعلة في علاقة الله سبحانه وتعالى بالكون والحياة والإنسان، والإيجابية الفاعلة كذلك من ناحية الإنسان ذاته في حدود المجال الإنساني .

ثم يحلل «سيد قطب» عدة ظواهر تشع بها هذه الإيجابية ومن هذه الظواهر:

أ - إيجابية الإله في مقابلة سلبية الصفات الإلهية في التصورات الأخرى كتصور أرسطو، وتصور الفرس، وتصور أفلاطون، وتصور بني إسرائيل، وتصورات الفرق المسيحية، وتصورات المذاهب المادية .

وهذه الإيجابية في علاقة الله سبحانه بخلائقه كلها، هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدّية المؤثرة والعقيدة الصورية السلبية، وشمول هذه الإيجابية وتوحيدها هو مفرق الطريق، وكذلك بين التجمع في الكينونة الإنسانية والنشاط الإنساني، والتمزق في هذه الكينونة ونشاطها الحيوي^(٢).

ب - إيجابية الإنسان في الكون، وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة في واقع الحياة على وجه خاص، وإيجابية المسلم تتمثل في سعيه الدءوب إلى العمل، «فالعمل هو الترجمة الواقعية للإيمان، فليس الأمر مجرد مشاعر، إنما هو

(١) انظر النص الكامل للقصيد «بديوان مدائن الفجر» للمؤلف .

(٢) انظر: خصائص التصور الإسلامي ص ٢٥٣ .

مشاعر تفرغ في حركة لإنشاء واقع وفق التصميم الإسلامي للحياة، أو وفق التصور الإسلامي للحياة»^(١).

وهذه الحركة الفاعلة تشمل كل أنواع النشاط الإنساني من عمل بدني وفكر عملي، ونشاط إبداعي، وتواصل بالحق، وتواصل بالصبر، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَأَعْصِرْ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١-٣).

وهذه الحركة الفاعلة المؤثرة تقودنا في مجال «الفنون الأدبية» إلى ضرورة الدعوة إلى الأدب الفياض بالتصور الإسلامي، والبعد بأفاق الأدب الإسلامي عن دروب السلبية وكهوف التشاؤم، وموجات العيب والانتحار التي سادت العالم، وأول ضحاياها هم الأدباء الذين لم يفيئوا إلى ظلال هذه الإيجابية المثمرة، وذهبوا ضحايا الفلسفات الشوهاء. والتصورات الآسنة.

سادساً: الواقعية:

ودفعاً لتوهم الخلط وضح المؤلف في هامش الصفحة ص ٢٧٤. المقصود بالواقعية في الإسلام وهو: «التحقق في عالم الواقع»، وهذا المفهوم مجرد من كل ما علق بالواقعية من معنى اصطلاحى تاريخى في البيئات الأخرى، وليست الواقعية إقراراً بما يدور في عالم الواقع من إيجابيات وسلبيات، وانضباط وانحرافات، ولكنها مثالية واقعية لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج تملك البشرية أن تصعد إليه.

وللواقعية في التصور الإسلامى ثلاثة مظاهر:

أ - التعامل مع الحقيقة الإلهية متمثلة في آثارها الإيجابية وفاعلتيها الواقعية.

(٢) السابق ص [٢٦٤].

العبد في منطقة الحذر بين موحيات الخوف والرهبة والاستهوال وموحيات الأمن والطمأنينة والأنس، فالصفات الفاعلة في هذا الكون هي حياة الناس والأحياء، تجمع بين هذا الإيحاء وذلك في توازن تام، وآيات كثيرة من القرآن الكريم تصور ذلك، وفي آية واحدة يجتمع الإيحاءان... إِيحَاءُ الرَغْبَةِ وَإِيحَاءُ الرَهْبَةِ... يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٦٧).

وصدى هذا التوازن يتشكل في الأعمال الإبداعية في القصص والمسرح والشعر، فالكاتب المسلم يشكل شخصيات قصصه من مكونات هذا التوازن، والنماذج المضادة تكون خارج هذا التكوين، وبالتالي تقودها تصرفاتها إلى الوهم البراق، أو إلى ظلمات الندم، أو إلى غيابات السجون، وكذلك الكاتب المسرحي الإسلامي يتعامل مع المواقف والشخوص والأحداث انطلاقاً من خاصية «التوازن» ويتنصر لكل ظاهرة متوازنة منبثقة من التصور الإسلامي والفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها.

ولله درُّ الأديب المسلم «سيد قطب» حين يصوغ ثمرة هذا التوازن في أسلوب شفاف جذاب، مشرق بالمعاني الوضيئة، مندى بعاطفة إسلامية صادقة، أكسبته حلاوة إيمانية، وموسيقى روحية داخلية يقول مصوراً ثمرة التوازن بين موحيات الخوف والرهبة، وموحيات الأمن والطمأنينة، «ويقع التوازن في الضمير بين الخوف والطمع، والرهبة والأنس، والفرع والطمأنينة، ويسير الإنسان في حياته يقطع الطريق إلى الله، ثابت الخطو، مفتوح العين، حي القلب، موصول الأمل حذراً من المزالق، صاعداً أبداً إلى الأفق الوضيء»^(١).

يقول كاتب الدراسة من قصيدة بعنوان «وإسلاماه».

(١) انظر كتاب «خصائص التصور الإسلامي» «سيد قطب» ص [٢٣١].

ب- التعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة في مشاهدتها المحسوسة المؤثرة أو المتأثرة .

ج- التعامل مع الحقيقة الإنسانية متمثلة في الأناس كما هم في عالم الواقع .

وهذه الآفاق الواقعية في التصور الإسلامي يمكن أن تمثل مرتكزات للرؤية الإسلامية في مجالات الإبداع الأدبي ، حيث تفتح مدارك الأديب المسلم على معالم قدرة الله وآثاره في هذا الكون ، قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (الروم : ١٩) .

ومن شاء فليأمل كتاب الله ويتدبر هذه الآيات ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُحَّةٍ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ (الروم : ١٧- ٢٧) .

وكذلك الآيات ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ (الأنعام : ٩٥ - ١٠٣).

وكذلك الآيات ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَدْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ (النمل : ٥٩ - ٦٢).

والآيات ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ (الشورى : ١١ - ١٢)، وغيرها كثير وكلها تفيض بدلائل القدرة الإلهية، وفيها غذاء روحى،

شعورى وإيمانى، تستمد منه التجارب الإيمانية قوتها، ووهج تأثيرها، ونبض صدقها وإيقاع تفرداها.

والتعامل مع الحقيقة الكونية متمثلة في مشاهدتها المحسوسة المؤثرة . . يقود الأديب المسلم إلى منافذ الإبداع الحقيقى . فالكون مسرح التأملات، وإشراق الرؤى، وإبداع الصور المبتكرة المؤثرة، والعودة من رحلة التأملات بزداد روحى عميق، وزاد أدبى مؤثر، ناضج بخصائص التجربة الإسلامية، وهذه التأملات لا تقود الأديب المسلم إلى الهروب والارتقاء في أحضان الطبيعة، ولا تجعل من الطبيعة إلهاً يعبده الأدباء ولا تجعل من الغاب فردوس الشاعر المفقود، ومهاجره الآمن، ومستقر أحلامه هرباً من عالم الناس ودنيا الواقع، بل تصبح هذه الطبيعة مرآة مجلوة يرى فيها الأديب نفسه وأمانيه وأحلامه؛ من جبالها يستمد مفردات الشموخ والإباء، ومن بحارها يستلهم مشاعر الحب والنقاء والصفاء، ويتلقى دروس السمو والعطاء، ومن تقلبات فصولها يرسم للنفس طريق رؤاها، فهى صورة من وهج الصيف، ودفع الربيع، وجذب الخريف، ودكنة الشتاء وأعاصيره، وصقيعه وغيوثة، ففي الصيف عطاء الثمار، وفي الربيع عبق الأزهار، وفي الخريف عطش الحرمان، وفي الشتاء رى الظمان، وتهاليل الإنسان للغيث الآتى من السحاب المضيء بالبروق، الصاهل بالرعود، . . . هذه هى واقعية الإنسان في تعامله مع الكون . . . ومع الناس أيضاً. فهو يحمل لهم في حنايا نفسه بذور الخير، ويجاهد ما استطاع في اقتلاع سهام الشر من خطاهم ومن رؤاهم حبا لهم، وشوقاً إلى الإنسان الواقعي «المثالي» أو المثالي «الواقعي».

وهذه الواقعية الإيجابية لا تلتقى مع الواقعية التى اصطلح عليها النقاد في العصر الحديث لأنها تمثل وجهة نظر تخالف قيم الإنسان حيث ترى الحياة من خلال منظار أسود- كما أوضحت سابقاً- وترى أن الشر هو أساس الحياة، وأن التشاؤم والحذر هما الأجدر بينى البشر لا المثالية والتفاؤل؛ وفولتير في قصائده المسماة «أحاديث عن الإنسان» وفي قصصه أمثال «كانديد» وكذلك

«بلزك» في «الكوميدي البشرية» يمثلان الواقعية باصطلاحها الأوروبي الحديث تمثيلاً فنياً قوياً؛ وقد أثرت هذه الواقعية المشوهة في أدبنا العربي تأثيراً جذرياً لم يعد قادراً على النجاة بنفسه منه؛ ونتاج نجيب محفوظ الروائي، ونتاج توفيق الحكيم المسرحي. وكذلك نتاج يوسف إدريس القصصي يعد محاكاة وصدى لقيم الواقعية المحزنة الفنية والموضوعية، وقد سار على دربهم وحاكاهم المبدعون في العالم العربي بل توغلوا في واقعيتهم المشوهة مثل محمد شكري بالمغرب والطيب صالح بالسودان.

سابعاً، التوحيد:

. . الأديب المسلم في ظلال هذا التصور ينزع من نفسه اليأس، وأوهام الشرك، وينفض عن مشاعره ذلك الركام الهائل من التصورات الوثنية، وكذلك يسمو بمشاعره فوق الرغبات الدنيا، ولا يتدنى للدرك الأسفل من النفاق والخداع ابتغاء مكسب مادي، أو خوفاً من عقوبة جائرة، أو طلباً لجاه دنيوى. لأن إيمانه بالتوحيد الخالص يرفعه إلى مقام كريم. حيث لا يطلب إلا من الله، ولا يتقرب إلا إلى الله، ولا يمدح الإنسان إلا بما هو فيه كما قال عمر ابن الخطاب، ولا يبالغ في المدح مبالغة ممقوتة، وذلك أن حقيقة التوحيد تمتد إلى «تصور المسلم للكون كله، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة في حياته هو بحذافيرها كما تمتد إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها، خافيتها وظاهرها، صغيرها وكبيرها، حقيرها وجليلها، شعائرها وشرائعها، اعتقاديها وعملها، فريدها وجماعيتها، دنيويها وأخرويها، بحيث لا تفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة.

وهذا التوحيد بهذه الصورة الشاملة تمتد آثاره الإيجابية إلى النشاط العقلي والقلبي أى إلى مجالى «الفكر والفن» فهو يخلق في وجدان الأديب وفي عقل العالم حالة من «الانضباط» لا تتأرجح معها الصور، ولا تهتز معها «القيم» ولا يتميع فيها التصور ولا «السلوك»^(١).

(١) السابق ص [٣٢٦].

والتوحيد يخلق في ذات الإنسان المسلم . وبالتالي في وجدان الأديب وعقل المفكر نزعة الإقبال على مناصرة الحق مهما كانت المخاطر ، وكذلك يعلن تحرير الإنسان بل يعلن «ميلاد الإنسان» .

والتوحيد حين يغرس الشجاعة في التكوين الإنساني ويقوده إلى «الحرية» ، إنه يكون شخصيته من جديد ويعلن ميلاد الإنسان الحر في التصور الإسلامي ، بل يعلن ميلاد الإنسان الكامل ، فالإنسان بمعناه الكامل لا يوجد في الأرض إلا يوم تتحرر رقبته ، وتتحرر حياته من سلطان العباد في أية صورة من الصور ، كما يتحرر ضميره واعتقاده من هذا السلطان ؛ وهذا هو تحرر الإنسان في حقيقته الكبيرة ، وهذا من ثم هو «ميلاد الإنسان» فقبل ذلك لا يكون للإنسان وجوده الإنساني الكامل بمعناه الكبير الوحيد^(١) .

وهل هناك هدف أسمى وأنبى في مجال التجربة الأدبية من تحرير الإنسان وميلاده في صورة أرقى وأكمل . . ؟ .

والأديب في ظل التصور الإسلامي قادر على تحقيق هذا المقصد النبيل ، قادر على تحطيم أغلال الإنسان ، والانطلاق به في آفاق الرؤى الربانية- المتوازنة- الثابتة- الشاملة- الإيجابية- الواقعية الناطقة بالتوحيد . . الموشاة بحرية الإنسان المبتهجة بميلاده الجديد ؛ . . كما يقول «سيد قطب» : «الذي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم ، كما تقدم أسلافهم بالأمس . فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد ، ولم تستطع أن تقاوم جاذبيته لأنه يمنحها ما لا تملك بالفعل ، فلا يقف لجاذبيته إباؤها العنيد ، وهو اليوم يمنحها ما لا تملك . فهو شيء آخر غير ما لديها من تصورات وعقائد ، وأفكار وفلسفات وأنظمة وأوضاع بكل تأكيد ؛ . . فهل يقدم أدباء الإسلام الجديد المفيد . . ؟ هل تأتي تجاربهم في أسمى نموذج فني مثمرة بحرية الإنسان . مبشرة بميلاده في ظل خصائص التصور الإسلامي الفريد . . ؟ والباب مفتوح فطوبى للداخلين» .

(١) السابق ص [٣٢٥] .

الهوامش والإحالات:

- ١ - إضاءة: هذه الدراسة قراءة أدبية لكتاب سيد قطب «خصائص التصور الإسلامي» ويقع في ٣٤٢ صفحة من القطع المتوسط إصدار الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية في عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ٢ - انظر نص المقال بكتاب «النقد الأدبي لسيد قطب» من ص ٩٩ - ١٠٢ مطبعة الشروق - بيروت.
- ٣ - تفاصيل هذه المأساة تجدها مجلوة في كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للشيخ أبي الحسن الندوى.
- ٤ - انظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا «للأستاذ محمود شاكر» ص ١١١ - كتاب الهلال: العدد ٤٤٢ أكتوبر ١٩٨٧ م.
- ٥ - مذاهب الأدب في أوروبا. د. عبد الحكيم حسان - دار المعارف بالقاهرة ط ١٩٧٩ م.
- ٦ - جاهلية القرن العشرين. محمد قطب من ص ٢٢٦ - ٢٢٧ دار الشروق القاهرة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٧ - العلمانية ص ٤١٦ د/ سفر بن عبد الرحمن الحوالى طبعة دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع.
- ٨ - الأدب المقارن ص ٣٨٥ د/ محمد غنيمي هلال - دار العودة ودار الثقافة - بيروت ط ٥.
- ٩ - بمراجعة ديوان بشار بن برد مراجعة فاحصة متأملة نعثر على كثير من هذه النماذج البعيدة عن التصور الإسلامي.
- ١٠ - بمراجعة ديوان أبي نواس مراجعة فاحصة نعثر على كثير من النماذج التي تنأى عن التوازن النفسى.

١١ - انظر الرومانتيكية . د محمد غنيمي هلال . الطبعة السادسة دار العودة بيروت .

١٢ - لكاتب هذه الدراسة مقال بعنوان الواقعية المحزنة نشر بالمجلة العربية بالسعودية وكذلك حوار حول الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر . وملامح الواقعية الإسلامية مقارنة بالواقعية الأوروبية نشر بجريدة المسلمون^(١) .

١٣ - من ديوان مدائن الفجر «للمؤلف» من إصدارات رابطة العالم الإسلامي العالمية ١٩٩٤م طبع ونشر دار البشير بعمان - الأردن .

(١) هذه المباحث يتضمنها القسم الأول من هذا الكتاب، وقد نُشرت دراسات كثيرة عن القضايا التي دُرست هنا، في المجلات الأدبية المتعددة كما أُذيعت موضوعات عديدة من الكتاب في إذاعة القرآن الكريم في برنامج رباعيات الذي قدّمه يومياً الشاعر الإذاعي / صلاح جمال الدين .

ثانياً: أبعاد الرؤية الإسلامية في الأدب

في الشعر العربي المعاصر

مدخل حول طبيعة الرؤية الإسلامية في الأدب (آفاق وشهادات) (*)

إن الأدب في ظل الإسلام كان وسيظل دعامة قوية من دعائم الكيان الإسلامي الكبير وإن تفرقت بأمر المسلمين السبل ، وتنكرت لهم الدروب . والأدب في ظل التصور الإسلامي يستطيع أن يعبر عن أدق الانفعالات ، وأدق العواطف وأنبل المشاعر وأسمائها في ظل النفس السوية التي نجت من أمراض النفسيين والاقتصاديين والوجوديين .

والفن الإسلامي في مقدمته فن التعبير بالقول وهو - الأدب - شعراً ونثراً فن متفتح على شتى المذاهب الفنية ، مادامت منسجمة في اتجاهها وتفصيلها مع حركة الكون والإنسان والإيجابية في سبيل الحق والعدل الأزليين ، وفي إطار الجمال المبدع بعيداً عن التزييف والكذب والتناقض .

وانطلاقاً من هذه الرؤية فإن الأدب الإسلامي وفي مقدمته - فن الشعر - يأبي الانحراف الذي تتبناه بعض المذاهب الأدبية والفكرية في كثير من توجهاتها وتصوراتها . إنه يأبي مثلاً - تأليه الإنسان «كلاسيكياً» وإغراقه الذاتي الأناني رومانسياً . وتمجيد لحظات الضعف البشري «واقعيًا» ويأبى تصوير الانحراف الفكري أو النفسي أو الأخلاقي «وجودياً» فليس ثمت عبث ولا جدوى كما يرى (كامي) وليس ثمت معقولية للحياة والوجود كما يرى (كافكا)، وليس ثمت حرية أخلاقية مطلقة من كل قيد كما يرى (سارتر)، وليس ثمت

(*) نشرت هذه الدراسة بالمجلة العلمية لجامعة أم القرى عام ١٤٠٢ هـ - مكة المكرمة .

تناقضات نفسية لا نهاية لها تنتهي بالضيق كما يرى (دستوفيسكي)، ذلك أن الفن الإسلامي يستمد تجاربه الصادقة من خلال الحقيقة لا الزيف، ومن الاستقامة لا الانحراف. فلوجود غاية انطلاقاً من قول الله سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ولكدح الإنسان جدوى^(١) . . . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الإنشاق: ٦).

والرؤية الإسلامية في الشعر وفي الأدب بصفة عامة. تعد من مكونات الشخصية المسلمة، والنقاد المتخصصون أقرؤا بهذا. ونادوا بضرورة تمييز الأمة الإسلامية، بخصائص أدبية تجسد هويتها وحضارتها. يقول الدكتور/ الطاهر أحمد مكي- الإسلام دين شامل. له موقف من كل قضايا الحياة، ومع الزمن نمت ثقافته وتضخمت، إلى جانب العلوم الدينية الخالصة، تنصح الراعي وتوجهه، وتوقظ الرعية وتهديها، فنشأ من ذلك أدب إسلامي المحتوى يأخذ في كل بيئة لونا، ويكتسب مع كل حضارة زياً، ويتشكل في كل عصر بما يلائمه، ودعامته الأولى الصدق بجانيه الواقعي والفني. ومن هنا فإن الأدب الإسلامي الحق يجيء قمة في بابه. والأدب الإسلامي غني ثري، ونقاط اللقاء بين ألوانه كثيرة، والمشابهات وفيرة، والعناية بها لا تقف عند المتعة بها، وإنما سوف تقدم لنا ملامح صادقة عن الشعوب المختلفة التي اتخذت الإسلام ديناً، وليس أصدق من الأدب حين يكتبه مسلم في تصوير الشعوب الإسلامية.

ويعيب الدكتور الطاهر أحمد مكي على النقاد الأجانب والغربيين ومن شايعهم من نقادنا العرب المقلدين للغرب حذو النعل بالنعل. . . يعيب عليهم عدم الإنصاف، والغض من مكانة الأدباء المسلمين فيقول، ولفت نظري أن الآداب الإسلامية التي لا أحسن لغتها، وليس لها مصادر في العربية ولم أتوصل إليها في القاهرة، ورجعت فيها إلى المصادر الأجنبية على اختلافها،

(١) انظر النقد الإسلامي ص ٤١-٤٢ / عماد الدين خليل.

عانيت من هذه المصادر تحيزاً ظاهراً، وتحيفاً على أدباء المسلمين بإهمالهم، كلية أو المرور بهم سريعاً على حين إذا وقفوا على أديب من ديانة أخرى في هذا البلد المسلم أعطي من الاهتمام والإبراز، والمزيد من المعلومات فوق ما يستحق. ثم يقول معترفاً بأنه كان يجهل القيمة الفنية العالمية للأدب الإسلامي الذي أبدعته قرائح الشعوب الإسلامية غير الناطقة بالعربية: يقول وأعترف أنني والأدب وتاريخه، ودراسة الأدب المقارن هوايتي وحرفتي لم أكن أدرك أن الآداب الإسلامية تنطوي على كل هذا القدر من الرونق والبهاء، ومن التشابه في الظواهر، وتقارب المحركات، والأخذ والعطاء فيما بينها، ظاهراً أحياناً، وخفياً في كثير من الأحيان^(١).

والدكتور عبد الحميد إبراهيم في الحوار الذي أجرته معه مجلة الأدب الإسلامي في عددها الأخير قال: «إن الرؤية الإسلامية، مطلوبة وضرورية ويجب أن نجد في الكشف عنها إذا كنا صادقين في التعبير عن شخصية الأمة الإسلامية، لأنه بدون رؤية عربية إسلامية لن تكون لنا شخصية. وغير معقول أن حضارة عريضة ومترامية جغرافياً وتاريخياً لا يمكن أن تكون لها رؤية. فالرؤية لا بد أن نحتفي بها، ولا بد أن تكون لنا رؤية إسلامية للأدب عامة والشعر خاصة، كما أن لنا رؤية إسلامية (في مجال الفنون) تدرس في الجامعات وفي المراكز وفي المؤتمرات وفي المعارض فيما يسمونه الآن باسم (Islamic Art)، أو ما يسمونه بالأرابيسك في مجال النحت والرسم، وفي مجال العمارة الإسلامية التي عرفها العالم عن طريق إسبانيا. وحتى الآن في أوروبا طراز من العمارات يعرفونها بأنها طراز إسلامي في مجال الأرابيسك، وفي مجال الخط والفن التجريدي، وذلك موجود على مستوى العالم فلا بد أن يكون لنا أدب إسلامي ورؤية إسلامية في القصة وفي المسرح وفي الشعر وفي سائر الفنون^(٢) وفي حوار مع الداعية الشيخ/ محمد متولي الشعراوي

(١) انظر: مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن. د/ الطاهر أحمد مكي من (٧-٣).

(٢) انظر مجلة الأدب الإسلامي: المجلد الثاني، العدد الثامن ربيع الثاني سنة ١٤١٦ هـ (ص ١٩-٢٢).

سألته^(١) ما رؤية فضيلتكم لدور الفنون الأدبية في التعبير عن مقومات الشخصية المسلمة . . ؟

وما رأيكم في الدعوة إلى أدب إسلامي يقاوم الموجات الأدبية الوافدة إلينا من الثقافات المضادة للتصور الإسلامي . . ؟ فأجاب فضيلته قائلاً . . مقومات الشخصية الإسلامية في الفنون الأدبية تتجلى بوضوح حين نبرز فيها الفضائل ولا نغذي الرذائل لننظر إلى قول أحمد شوقي «أساطين الفنون أربعة : شاعر سار بيته، ومصور نطق زبته، ومثال ضحك حجره، وموسيقي بكى وتره» .

فقول شوقي : شاعر سار بيته معقول ومقبول/ وأما مثال «ضحك حجره» هذا لا نريده، وموسيقي بكى وتره . لا نريده لأنه يدغدغ العواطف ويشعرنا بالضعف والانهازم وأقول أريد أن يحتفظ الفن بجماله، فلا تجعلوه يورثنا قبحاً .

وسألته ماذا يقول فضيلتكم لأدباء الإسلام . . ؟ فأجاب :-

أقول : «لا تكتبوا موهبة الشعر والأدب في نفوسكم، ولا تخافوا إن أنتم بجانب الفضيلة أن تحاربوا من عشاق الرذيلة، وحاولوا أن ترفهوا جفاء الموعظة بنعومة الأداء والحقائق مرة فاستعبروا لها خفة البيان، والنصح ثقيل فلا ترسله جبلاً ولا تجعله جدلاً» . والنقاد العرب القدامى نوهوا بشرف المعنى وصحته، وبالقيمة الأخلاقية في الشعر والنثر الفني، والفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سبق النقاد المتخصصين، والفلاسفة الأدباء، والفقهاء والعلماء في هذا التوجيه الأخلاقي للأدب عامة وفي الشعر خاصة، حيث يقول : «تحفظوا الأشعار، وطالعوا الأخبار، فإن الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويعلم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال، ويفتق الفطنة، وشحن

(١) دارت وقائع هذا الحوار في منزل الشيخ محمد متولي الشعراوي في نهار رمضان بعد صلاة الظهر ١٥ رمضان سنة ١٤١٦هـ، ونشر كاملاً بمجلة الأدب الإسلامي العدد ١١ / ١٤١٧هـ. وكان بصحبتني الشاعر أ.د/ حسين محمد علي .

القريحة، ويحدو على ابتناء المناقب، وادخار المكارم، وينهى عن الأخلاق
الديئة، ويزجر عن موقعة الريب، ويحض على معالي الرتب». (١) وهذا
التصور النقدي وغيره من الآراء كما يقول د/ محمد الحارثي في كتابه القيم
(الاتجاه الأخلاقي) في النقد العربي- يوحى بتوجيه وظيفة الشعر وجهة نفعية
أخلاقية تقوم على اختيار نمط معين من الشعر، يكون قادراً على تقويم
السلوك، واكتساب الفضائل، والترفع عن الدنيا وذلك يعد من صميم الرؤية
الإسلامية في شعرنا العربي والإسلامي (٢).

وأرى أن الحاجة ملحة الآن إلى العكوف على استخراج كنوز الأدب
الإسلامي وتبصير المتأدبين بأفاقه، حتى يكتسب الوجدان الإسلامي ثراء
وعمقاً.

وقد تمثلت القيم الإسلامية في كثير من شعر القدماء، ولكنها جاءت
مباشرة بعيدة عن الإيحاء والقوالب الفنية المتعددة. ويقر بهذه الظاهرة الأستاذ
(طه إبراهيم) في كتابه تاريخ النقد عند العرب ويقول: لم يوفق الشعر العربي
إلى تبدل في الكنه والجوهر، فمنذ نضج قبل الإسلام، وتحدد قلبه ظل أسير
هذا قالب، ولم يستطع أن يتخلص منه مهما جد فيه من الصور والأشكال.
ولقد أتيح للشعر العربي بعد عصر نهوضه عهدان، كان حريا أن يستحيل
فيهما- لو اهدى الشعراء حقاً- إلى الخلق والابتكار، ازدهر في أواخر القرن
الأول الهجري بحضارة الإسلام، وجيشان النفس العربية، وجاء الشعر
الإسلامي رائعا جليلا كالذي أخرجته الجاهلية أو أحسن، ولكن هذا الازدهار
كان على مثال الشعر الجاهلي، فلم ينظر الشعراء في القرآن لغير الصياغة،
وبعض المعاني، ولو أنهم تمعنوا لوجدوا فيه أساليب من القول، وضروبا من

(١) الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي . د/ محمد الحارثي ص ٦٤ .

(٢) انظر: أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود زيني للوقوف على معالم الرؤية الإسلامية في شعرنا
العربي القديم.

الفن الأدبي، كان يسيرا عليهم أن يحتذوها، في القرآن مثلا الأسلوب القصصي، وتاريخ الأقدمين، وقصص الأنبياء، وتلك أمور تزيد في روحية الأدب، وتمد الشعراء بالأخيلة والإلهام، وحسبنا أن نقول: إن الفرس جيران العرب قد انتفعوا بذلك فاستقوا منه فيضا لشعرهم القصصي، وحسبنا أن نقول: إن الغربيين المحدثين استلهموا سفر التكوين فأوجدوا من قصة إبليس وآدم، وقاييل وهابيل، والجنة والنار، واليوم الآخر شعرا قصصيا يرمي إلى كثير من شئون الاجتماع. وهذه القصص واردة في القرآن في أحسن معرض بيان وأكملة، وهذه القصص لم ينتفع بها شاعر عربي في أي عصر^(١).

والرأي السابق له وجاهته - ولكنه يغالي في عدم استفادة وانتفاع أي شاعر عربي في أي عصر بأسلوب القرآن الكريم وبخاصة القصص القرآني. وحين نتأمل الشعر الحديث، ونراجع في ضوء المنظور الفني شعر الكميت، وشعر أبي العتاهية وغيرهما من شعراء الوجدان الديني - نعثر على أسس الخيوط الفنية للرؤية الشعرية في ظلال الإسلام، ونعثر أيضا على ملامح الاستفادة الفنية من أسلوب القرآن الكريم^(٢). وحين نحاول بعث هذه الروح الإسلامية في الأدب. فإننا نحارب الروح الانهزامية التي جعلت كثيرا من أدباء هذه الأمة ونقادها يضعون كل قيم الأدب الأجنبي في صورة النموذج الأعلى، وصاروا يقلدون حتى كدنا نفقد الحس الإبداعي الحقيقي النابع من رؤيتنا الإسلامية. وقد بدأ هذه الموجة في العصر الحديث علي أحمد باكثير في نتاجه المتعدد الناطق بالرؤية الإسلامية وهو في قمة أدائه الفني، وكذلك الراجحي، في بعض نتاجه الإبداعي، ومجال الدراسات الأدبية. فكتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ترجمان صادق لمنهج الإسلام، ودفاعه عن تراث الأمة الإسلامية وأصالتها مع احتفاظه في مقالاته وخواطره وبحوثه بوهج الفن

(١) انظر تاريخ النقد عند العرب: طه إبراهيم.

(٢) للمؤلف كتاب يعالج بعض أبعاد هذه الظاهرة وهو - القيم الإسلامية في الأدب العربي / مطابع جامعة الزقازيق سنة ١٩٨٨م - مصر.

والتشكيل اللغوي الراصد لأدق الانفعالات، وأعمق المشاعر، هذا الدفاع الحميم الممزوج بالسموق الفني المتشبع بالرؤية الإسلامية يضع الرافعي في قمة المعانقين للرؤية الإسلامية ككاتب مسلم اعتنق الفكر الإسلامي مذهبا في حياته العملية والعلمية شعورا وفكرا وفنا، ولأن الرافعي ينطلق من الإسلام في كل ما يكتب، نجده غير حذر في لجوئه إلى العقل، لأنه يخشى إذا اختط لنفسه طريق العقل، أن تتضارب النتائج العقلية التي يتوصل إليها مع فكره الإسلامي لأنه يؤمن أن الإسلام والعقل متكاملان متوافقان، وأن تقدم العلم وتطور الفكر البشري لا يمكن أن يتناقضا مع جوهر الدين الإسلامي بل على العكس نجاهما يقدمان التفسير تلو التفسير والتأكد تلو التأكد. لما غمض من هذا الدين، أو ما احتاج في حركة الظمأ البشري الحديث وتطلعه نحو البحث والاستكشاف إلى مزيد من التأكيد والكشف.

وفي أدب الرافعي لا نستطيع فصل عنصر الخيال عن عنصر اللغة. . ومن قبله عنصر الفكر، فليست الأفكار وحدها تتوالد عنده، بل الصور كذلك أيضا، وهي صور رائعة نادرا ما تحققها الإبداعات العربية قديما أو حديثا. إن توالد الصورة عند الرافعي يواكب توالد الفكرة ثم العبارة ليحقق هذا التواكب انسجاما بديعا بين المقومات الرئيسة الثلاثة لأي إبداع أدبي^(١)، والرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر «في النموذج الأمثل لها» لا تنحصر في الشعر الديني المباشر المتمثل في شعر المناجاة والتضرع، وشعر الوعظ، والحث على التعاليم الإسلامية، فذلك مجال تعليمي في الاتجاه الأخير منه، ولكن هذه الرؤية تتمثل روح الإسلام، وتستجيب لأثره الفعال في تغيير الوجدان، وفي تغيير رؤية الإنسان للأشياء، وفي تشذيب المعجم الشعري، والتراكيب الدالة على ما وراءها من أسرار روحية، وكذلك تستوحي هذه الرؤية جو الحضارة الإسلامية، في مواقفه وشخصه، وأماكنه وأزمته، ولا تروي هذه الرؤية في

(١) انظر. الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد/ أحمد بسام ساعي ص. ١٧٨، ١٨٧.

صياغتها الفنية التاريخ في صورة سردية تقريرية بل تمتزج بروح ذلك التاريخ ، وتشكل منه واقعا حضاريا له شخصيته ونفاذه وتأثيره . والصياغة الفنية لمكونات هذه الرؤية الشعرية الحضارية الإسلامية تتأثر إلى حد كبير بالبيان القرآني ، والبيان النبوي ، والتراث الإسلامي ، وكذلك لا تنفصل عن إيقاع العصر لغة وأسلوبا وتصويرا ورؤية كونية شاملة^(١) .

وهناك جيل من الشعراء الجدد يتشكل في إطار هذه الرؤية الشعرية الإسلامية على امتداد الوطن الإسلامي والعربي ومنهم على سبيل المثال - لا الحصر - محمد بن عمار ، ومحمد علي الرباوي ، ومحمد المنتصر الريسوني ، وحسن الأمراني ، وهم من شعراء المغرب ، ومن مصر : حسين علي محمد ، وجميل عبد الرحمن ، وعبد الله السيد شرف ، وصابر عبد الدايم .

ومن السعودية عبد الرحمن العشماوي . وغيره من الشعراء السائرين في وهج التيار الإسلامي ، ومنهم الشاعر د/ أسامة عبد الرحمن ، و د/ صالح الزهراني وإبراهيم فودة ومحمد حسن رفقي وغيرهم .

وفي رسدي لأبعاد الرؤية الفنية الإسلامية في الشعر المعاصر اعتمدت كثيرا على استقراء نصوص الدواوين الشعرية التي تلتزم بهذه الرؤية ، ومن ثم كان تركيزي على نتائج بعض الشعراء الذين يعكفون على هذه الرؤية وتنطق دواوينهم بأبعادها الفنية . ومن هذه الدواوين ديوانا «مملكة الروح» و «نشيد الغرباء» لمحمد بن عمار ، وديوان «لله وللرسول» لعبد العليم القباني وديوان «البيعة المشتعلة» لمحمد علي الرباوي ، وديوان «علي درب الله» لمحمد المنتصر الريسوني ، وديوان «مسافر إلى الله» لأحمد فضل شبلول ، وديوان «صوت من الله» لمحمود حسن إسماعيل وديوان «المسافر في سنبلات الزمن» لكاتب

(١) لمزيد من التوضيح ومعرفة أبعاد الرؤية الإسلامية في القصة والمسرح ، انظر كتاب . القرآن ونظرية الفن / د . حسين علي محمد .

هذه الدراسة ومن الشعراء ذوي التوجه الإسلامي : الشاعر عبد الحميد الخطيب ، و طاهر زمخشري ومحمد السنوسي ، وزاهر الألمعي ففي شعرهم نبض إسلامي صادق . . . والشاعر الكبير «محمد التهامي» .

محاوور الرؤفة:

وبعد رصد محاوور الرؤفة وبعد تأمل النصوص واستقراءها استقرأ فنيا في ضوء التصور الإسلامي وجدت أن أبعاد الرؤفة الإسلامية في الشعر المعاصر في بعض مكوناتها تتمثل في المحاوور الآتفة :

أولا : التأثر بالبيان القرآني .

ثانيا : التراث الإسلامي ومحاوور تأثيره في تشكيل الرؤفة الشعرفة وهذه المحاوور تتمثل في الآتفة :

(أ) استدعاء الشخصفات التراثفة الإسلامية .

(ب) الأمكنة الإسلامية وأثرها في تشكيل النسيج الشعرف .

ثالثا : السفر إلى الماضي لبعث الحاضر وإحفاؤه وفق التصور الإسلامي .

رابعا : توظف الطففة في تشكيل التجربة الشعرفة .

أولا : التأثر بالبيان القرآني:

يعد القرآن الكرفم قمة البيان العربف ، وهو أسمى نموذج يحتذى . . . أسلوبا وفكرا وهدافة . . . ودستور حفاة . يقول الرفاعف مصورا في كتابه القفم «إعجاز القرآن والبلاغة النبوة» روعة البيان القرآني ، «وكاشفا عن بعض أسرار تراكفبه المعجزة» آفات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء . . . هف منها كواكب ، بل الجنء الإلهف قد نشر له من الفضفلة علم ، وانضوت إلفه من الأرواح مواكب ، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها ، وامتنعت علفه

أعراف الضمائر فابتز أنفالتها . ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الشغور تضحك في وجوه الغيوب، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب . ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان وبينما هي ترف بندى الحياة على زهرة الضمير، وتخلق في أوراقها من معاني العبرة معنى العبير، وتهب عليها بأنفاس الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير . . . ثم بينا هي تتساقط من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوح عليها اللسان، وتمثل للمذنب حقيقة الإنسانية حتى يظن أنه صنف آخر من الإنسان - إذ هي بعد ذلك إطباق السحاب وقد انهارت قواعده، والتمعت ناره وقصفت في الجور وواعده، وإذ هي السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها، واستأذنت في صدمة الفزع ربها، فكادت ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة: وإنما هي عند ذلك زجرة واحدة، فإذا الخلق طعام الفناء . . . وإذا الأرض (مائدة)!!!^(١)

ظواهر التأثر بالبيان القرآني:

والتأثر بالبيان القرآني في الشعر المعاصر تتعدد محاوره وظواهره .

(أ) فقد يتأثر الشاعر بالبيان القرآني صياغة وفكراً وشعوراً، فلبينات شعره تستمد جرسها العذب من المعجم القرآني ألفاظاً وتراكيب، ورؤيته الشعرية تنطلق من الآفاق القرآنية، وتنبع من مقومات التصور الإسلامي للحياة عقيدة وعبادة وعملاً .

(١) تاريخ آداب العرب ص ٢ لمصطفى صادق الرافعي ص ٢٩، ٣٠، وهذا الجزء مطبوع طبعه أخرى بعنوان مستقل هو (عجاز القرآن والبلاغة النبوية).

(ب) وقد يتأثر الشاعر بالمعجم القرآني أي بألفاظه وتراكيبه ولا تشحن روحه بطاقة الإيمان الدافعة، وحينئذ يصبح التأثر شكليا أدائيا يظل بمنأى عن نسج الرؤية الإسلامية الطامحة إلى فعالية الوجود الحضاري المسلم.

(ج) وأحيانا يكون التأثر سلبيا مضادا وذلك حين يسيء الشاعر استخدام الألفاظ والتراكيب والمعاني القرآنية كأن يضعها في غير مكانها اللائق، أو أن يسوقها في معرض السخرية والتهكم، أو أن يحاول جهلا وغرورا وادعاء - محاكاة أسلوب القرآن الكريم ظنا منه أنه قادر على إبداع بيان في مثل البيان القرآني العظيم، ومثل هذه المحاولات تبوء بالفشل الذريع. ولا تحظى إلا بالرفض الكامل شكلا ومضمونا.

(أ) التأثر النابع من الرؤية الإسلامية للحياة

الظاهرة الأولى: من ظواهر التأثر بالبيان القرآني - تتمثل في التأثر النابع من رؤية إسلامية للحياة . . . منطلقة من الآفاق القرآنية، ومحملة بثمار التصور الإسلامي ومقوماته وهي الربانية، والإيجابية والتوازن، والواقعية والشمولية، والتوحيد، والثبات، وتتجلى هذه الظاهرة في شعر «محمد بنعمارة»^(١) في ديوانيه مملكة الروح، ونشيد الغرباء، وشعره نابع من وجدان مشرق بأضواء العقيدة الإسلامية، ومن رؤية شعرية ملتزمة بالتصور الإسلامي وموقفه من الكون والوجود والإنسان، وشعره متفتح على آفاق التجديد بكل مقاييسه الفنية، ولم يفقد توهجه التأثيري في إطار التزامه بموقفه الإسلامي: يقول بنعمارة مستوحيا قول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ (الأنبياء: ٣٠):

ورأيت الماء لونا عاما.

(١) من شعراء المغرب الملتزمين بالتيار الإسلامي . . . ومن المجددين في الشكل الشعري تجديدا فنيا واعيا ناضجا.

وغرست الحرف في الملح وناديت حبيبا عاشقا .
ثم أطفأت حروفي .
نطق الماء وقال .
أنت كـهـف . . . أنت طين .
أنت نسل الماء إذ صار رمادا^(١) .

ويتنصر الشاعر على الصراع بين المادة والروح ، ويعلن أنه من كائنات مملكة الروح ، وتشغله قضية التكوين ، فهو لا يهرب من الحياة حين يعانق مملكة الروح بل يدعو إلى خصوبة الحياة وإعادة صياغتها في إطار القيم الروحية ، ودعوته يقدمها في أسلوب رمزي شفاف متأثر بالبيان القرآني : يقول :

أنت الجسد الموصول وأنت الماء .
أنت النخلة في جسد الصحراء .
أنت المؤمن بحديث المهد الأول تحت جناح العذراء^(٢) .

والخطاب الشعري هنا يتكىء على أداة «الخطاب» «أنت» ويكررها الشاعر في بداية كل بيت إعلانا منه عن الهوية الحقيقية ، وكشفا لمعالم الطريق ، وما النخلة/ العطاء إلا رمز للحياة الخصبة في قلب الجذب/ الصحراء .

وتناميا للشعور الفني والحس الإسلامي نراه يقرن النخلة بحديث المهد الأول تحت جناح العذراء ، وما حديث المهد الأول إلا حديث سيدنا عيسى عليه السلام - حين قال المرجفون : ﴿ كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (مريم : ٢٩) وما النخلة إلا صدى إيماني لمعجزة عيسى وأمه مريم حيث أمرها

(١) ديوان/ مملكة الروح ص ١١ ، ١٢ محمد بنعمارة .

(٢) السابق ص ٨٤ .

ربها بعد أن وُضِعَتْ مولودها فقال: ﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (مريم: ٢٥).

وحديث المهدي الذي يعلن الشاعر إيمانه به ينطق به البيان القرآني العظيم ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٠-٣٣).

وفي قصيدة «مملكة الروح» يصور الشاعر واقع الصراع بين العالم المادي الملحد وبين مملكة الروح التي شيدها الإسلام ويقتطف مشهداً من قصة موسى - عليه السلام - ليتخذ منه معبراً يعبر عليه إلى مملكته التي يتشبث بها وتسكن إليه يقول الشاعر:

يسقط ريشي في بحر الحكمة

فأطير بأجنحة القلب . . . وأنشر هنا الشوق الصاعد في الغيم . . . هذا .

ويسترني رمز الماء المتدفق بين ترائبه . . .

معجزتي . . . عشقي . . . أتوكأ/ وأهش به/ فيه مآرب أخرى^(١).

فشوقه إلي الوجود الإسلامي المتصغر هو عصاه التي ستلقف ما يأفكون، وهو الذي يتوكأ عليه في رؤاه ويهش به على مرآئي الوجود، وله فيه مآرب أخرى . . . فهو سلاحه الذي لا يخبو ولا يصدأ . . . بل يظل مشتعلاً في كيانه يدفع به إلي حمأة الصراع والمجادلة . وإذا كان الشاعر «بنعمارة» في النماذج السابقة متأثراً بالبيان القرآني مع تغيير في التراكيب والألفاظ فإنه يقتبس أحياناً جزءاً كاملاً من آية قرآنية لفظاً ودلالة، ويأتي اقتباسه في مكانه الصحيح من التجربة، ففي قصيدة «وألقاك على غصن الثورة قرآناً» التي يخاطب بها روح

(١) ديوان مملكة الروح ص ١١ «محمد بنعمارة».

الإمام الشهيد «محمد باقر الصدر» يحاوره في لغة عذبة صافية، وإيقاع فني مؤثر، مصورا رؤيته الإسلامية عبر هذا الخطاب الشعري .

أنا لا أسألك زماناً ومكاناً

يمتد إليك نزييفي

ليمر الغيم وينأى

من يبحث عني في ذاك الآتي من رحم الإسلام . . . ؟

ومن يبحث عنك هنالك في كل الأشياء الوافدة من الله إلينا . ؟

تساءلتُ ولكن «ضعف الطالب والمطلوب»^(١) .

ولا يخفي اقتباس الشاعر من القرآن الكريم جزءاً كاملاً من الآية القرآنية الواردة في سورة الحج وهي قوله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَأَسْتَفِدُّوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (الحج : ٧٣) .

ويختتم الشاعر قصيدته «إنني أرسم إقلاعى بالأخضر» ليس بجزء من آية ، ولكن بأية قرآنية كاملة ، ولكن إيقاعها مخالف لإيقاع القصيدة . فالقصيدة تسيير في إيقاعها على تفعيلة بحر الكامل «متفاعلن» . . . والآية القرآنية تتوافق مع تفعيلة «بحر المتدارك» «فعلن» وربما عمد الشاعر إلى ذلك حتى لا يختلط النص القرآني بالنص الشعري . . . ويحدث اللبس والاضطراب ، ويقول الشاعر وهو يبشر المجاهدين الأفغان بالنصر :

أنتقي . . . وشوارع الأفغان أوقدت النجوم

(١) ديوان «نشيد الغرياء» ص ١٠ «محمد بنعمارة» .

وأخـبـرت عـنا المـدائـن والمـرافـع والمـراكـب والمـطر
وتعانقت فيها الشوارع بالرجال برعشة اللحن المحمدي الجميل^(١)
... تباركت فيها الشهادة آية مزهوة
فتهيئي نحصي العساكر والخيول

ثم يتابع تدفقه الشعري متسائلاً ومتحدياً قوى الباطل وأنصاره أين
أنا؟ . . . كابول نرجسة وبحر فوقه عرس الجهاد . . . فقرأت ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء : ٨١) ^(٢).

واقتبس الشاعر لهذه الآية، وذكرها في نهاية القصيدة إعلان عن نتيجة
الصراع بين الحق والباطل . . . فالله ينصر جنده المؤمن . . .

ومهما تكاثفت غيوم الباطل فإن شمس الإيمان تشرق حتماً . . . وتضيء
دروب المجاهدين الرافعين لواء العقيدة معتقداً وشعاراً وسلوكاً.

وكاتب هذه السطور يتأثر بالبيان القرآني في تجاربه الشعرية المتعددة، وإذا
كان «محمد بنعمارة» ختم قصيدته بآية قرآنية مثلت قرار التجربة، وثمره
الرؤية فإن كاتب هذه الدراسة يبدأ إحدى قصائده وهي قصيدة «الفرع الأكبر»
بست آيات من سورة الطور، وهذه البداية لها دلالتها الفنية في القصيدة، فهي
منبع التجربة ومصبها منها تبدأ وإليها تعود . . . ، والقصيدة كلها بعد ذلك
تتشكل من نسيج الألفاظ والتراكيب القرآنية . وهي بهذا المسلك الفني تعلن
أن أزمة الأمة العربية والإسلامية في صراعها مع المد الإسرائيلي الغاشم لن
يجد منها المسلمون مخرجاً إلا بالاحتكام إلى آيات هذا القرآن، والسير في
ظلال مبادئه وأضوائها المبددة لظلمات الشرك والجهل والوثنية والاستعباد.

(١) لجأ الشاعر إلى تخفيف النسب في كلمة «المحمدي» حتى يستقيم الوزن الشعري وكان يمكنه تفادي ذلك.

(٢) ديوان «نشيد الغرباء» لمحمد بنعمارة ص ١٣ .

وتبدأ القصيدة بهذه الأقسام:

«والطور، وكتاب مسطور، في رق منشور
والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور»
«والشعب المقهور
والأقصى المهجور
والقدس المشيطور
قد جاء الأمر وفار التنور
والعالم يغرق في الديجور
والسلم يفتش عن ساعده المبتور»^(١).

وكما أشرت سابقاً . . فالقصيدة كلها مستوحاة من الأسلوب القرآني ألفاظاً وتراكيب وأفكاراً، وهي بهذه الصيغة الإسلامية تعلن من خلال فنية الأسلوب أن مأساة المسلمين في العالم بعامة، وفي فلسطين بخاصة لن يبدد ليها الطويل إلا بعودة الهوية الإسلامية، واستعادة بريق المد الحضاري الإسلامي المتوارى خلف غيوم الحضارة المادية الحديثة!
وتشرق هذه التراكيب في آفاق القصيدة:

فسموات العصر انشَقَّتْ
والأرض أراها قد مُدَّتْ
أَلَقْتُ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ

وترد أيضاً هذه التراكيب والأساليب:

مجرأها بسم الله ومرساها

(١) ديوان «المسافر في سنبلات الزمن». د/ صابر عبد الدايم ص ٣٨.

تصغى للصوص القادم من لدن الملاء الأعلى

فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك

«إلا من سبق عليه القول»

وقصيدة «من فتوحات الغربية» يفتتحها الشاعر بأيتين من سورة الانشقاق،
وهما يمثلان لونين متضادين . . . ، ولكنهما في مجموعهما يكملان الرؤية
ويصبغان التجربة بصبغة الصراع والمعاناة . . .

يقول كاتب هذه السطور:

«والليل ومما وسق»

«والقمر إذا اتسق»

إننى راكب طبقاً عن طبق

راحل في زمان القلق

صاعد في انطفاء الأفق

ممتط صهوة الشمس لم أحترق

فاتحادى مع الشمس عصر من الظهر يبزغ من بشریات الشفق^(١).

وقصيدة «المنفى داخل الوطن» تختتم بأيتين هما بداية سورة العصر . . .
وتجيبان في أسلوب القسم . . . وله دلالاته السامقة في السياق القرآني . . . وهو
في سياق القصيدة يفتح للتجربة منافذ الإشراق والأمل والقوة، فالقصيدة
رصد لمسيرة الزعيم «أحمد عرابي» وتحديه للمستعمر الغاشم وللسلطة
الظلمة، وهو في مقاومته المزدوجة يدافع عن ديار الإسلام ويذود عن دين الله
في أرض الكنانة .

(١) ديوان «المرايا وزهرة النار» ص [٢٧-٢٨] د/ صابر عبد الدائم .

تقول القصيدة في آخر مشهد من مشاهدها

سنحارب من أجل الحرية

سنكون فداءً للوطنية

نصرخ في التل وعند رشيد

نقسم . . . نقسم . . . ثم نعبد

﴿وَأَعْزِرْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

«إلا من وصى بالحق وحارب من أجل النصر»^(١).

وفي قصيدتي «في رحاب الإيمان» وهي من الشعر «المقفى» من بحر الطويل وتبلغ أكثر من مائة وعشرين بيتاً تشع الاقتباسات القرآنية في نسيج القصيدة الشعوري والمعماري . فالشاعر في حالة تصادم مع الواقع الأسن ، وهو رافض لما آل إليه أمر الإنسان ، من إنكار للقيم الدينية ، وإنكار لوجود الله ، وانخداع ببريق المادة : يقول الشاعر في معرض إشادته بدور القرآن الكريم في إرساء قواعد الحضارة الإنسانية ، والأخذ بين العالمين إلى بر النجاة ، وهو في هذه الإشادة يصور تناقض الإنسان المعاصر في موقفه من القرآن ومن الخالق جل وعلا . . . ، وجاءت الاقتباسات القرآنية مجسدة لهذا التناقض ورافضة له في الوقت نفسه . يقول كاتب هذه السطور :

وفي قرننا العشرين تاهت سبيلنا

ولكنها في الذكر شعت لعميان

وقد قُتل الإنسان في حمأة الهوى

ومُدَّتْ له أيدي الغرور يبهتان !!

(١) ديوان «المسافر في سنبلات الزمن» د . صابر عبد الدائم .

فأنكر قرآنا . . . وأنكر ربه
وفي أذنه عن صيحة الحق كفان !!
ولكنما القرآن جاء بما ادعى
ولا تسمع الصم الدعاء «بإمعان» !!
«ويخلق ما لا تعلمون» أما تلوا؟
ففيها من الأسرار «مليون» برهان
«ألم تر أن الله يزجي» أما تلوا؟
بلى . . لكن الأفئاد مُسَّتْ بطغيان
وإن حل ذا في القلب مُزَّقَ نُورُه
وصاحبه أعمى . . . ولو فيه عينان
وللروح عين لا يضار ضيأؤها
ترى كل ما يخفي عن الإنس والجان^(١)

والتأثر بالبيان القرآني يأتي في بعض التجارب الشعرية لدى بعض الشعراء
معبراً عن لحظة التحول من الرؤية المادية إلى الرؤية الصافية الصاعدة عبر
معارض السمو والارتقاء الروحي وفي زمن هذا التحول تتوالى مشاهد كثيرة
مقتبسة من البيان القرآني العظيم ، وتشكل من هذه المشاهد في النهاية
تكوينات الرؤية الإسلامية بكل أبعادها من اتزان وثبات وواقعية وإيجابية
وشمولية ، يقول «أحمد فضل شبلول» من قصيدته «من الروح إلى الجسد»
وهي في ديوانه الذي رصد تجربة التحول في رؤيته . فالديوان عنوانه «مسافر

(١) نشرت القصيدة كاملة بجريدة الندوة السعودية (٢ شوال ١٤٠٦هـ / ملحق الندوة الأدبي ونشر
معظمها بمجلة الأزهر عدد ربيع الثاني ١٤٠٢هـ، وانظر ديوان «مدائن الفجر» لكاتب الدراسة / إصدار
رابطة الأدب الإسلامي ١٩٩٤م.

إلى الله» يقول الشاعر على لسان الروح / رؤيته الجديدة مخاطبًا الجسد / رؤيته
الآفلة ، ويستوحي أصداؤه الفنية وخيوط تجربته من عبق القصص القرآني مثل
قصة موسى - عليه السلام -، وقصة إبراهيم - عليه السلام -، وقصة أهل
الكهف . . . يقول الشاعر :

إني قرأت في الحجر
أقصوصة الذين في قلوبهم مرض .
شاهدت في السحر
حدائق الذين في صدورهم نهر
إني رأيت في البحر موسى ومن معه
وقبلها
لمست نار البرد والسلام
فلا أمان
لكل ذي غشاوة ولا هدى
إني نسمت في الضحى
عبير سبعة وكلبهم
سمعت في الخلا
تسيحة الحجارة . . . تكبيرة الرمال
تنير للذين في قلوبهم سلام
تضيء للذين في عيونهم نهار^(١) .

(١) ديوان «مسافر إلى الله ص ٤٠ - ٤١ أحمد فضل شبلول .

ومن ملامح التأثر بالبيان القرآني أن الشاعر أحياناً يستمد إلهامه الشعري من إشارات آية قرآنية، ويضع بعض الشعراء الآية فوق القصيدة، لأنها تمثل منبع التجربة . . . ومصدر الإلهام .

والشاعر عبد العليم القباني يكتب قصيدته «في محراب الليل» ويضع قول الله سبحانه: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (الضحى : ٢) في صدر القصيدة، ويتأمل جمال الليل في ظل رؤية إيمانية مستجلية جمال الخالق، وهو في هذه الرؤية الإيمانية يرفض صورة الليل القائمة عند كثير من الشعراء، وكذلك يرفض صورة الليل الماجنة في تجارب شعراء آخرين على امتداد مسيرة الشعر العربي فالإيمان اطمئنان وجمال وتفاؤل ويقين وصفاء . . .

قول الشاعر :

رأيت الليل حين سـجى

ووشى الكون بالشهب

جمالا فيه سرمنـ

ك فوق العقل ياربي

رأيت الليل حين سـرى

على مهد من العشب

وغاب الساحر الفضي

في عش من السحب

فكان الكون في عيني

وفي سمعي وفي قلبي

صلاة حرة الأعمى

ق في محرابك الرحب^(١)

ويأتي التأثر بالبيان القرآني في معرض صياغة الصورة الشعرية وتركيبها
ليجعلها أكثر تأثيرا وعمقا، وأكثر وضاءة وإشراقا... فالشاعر محمد علي
الرباوي في قصيدته «السيل» يقول:

أيها المشاء في جوف الظلام

قلبك الأخضر مشكاة تدلى كوكب أخضر منها

أوقدت أرجاءه الشمس التي...

... ما إن رست في ساحل الشرق أو الغرب...

... أمامي سبل مشرعة أبوابها

جسدي رح لها رجا مريجا

وارتمى في مرجل السبع الشداد^(٢)

وفي ختام القصيدة يقول:

إنني أعددت للعسرة إيماني...

لا تخش نحولي... واتخذني صاحبا في هذه الشدة...

فتصوير القلب بأنه مشكاة تدلى كوكب أخضر منها استيحاء لقول الله
سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ (النور: ٣٥).

(١) ديوان «الله وللرسول» صلى الله عليه وسلم ١١ عبد العليم القباني.

(٢) ديوان البيعة المشتعلة ص ١٩ محمد علي الرباوي.

واللون الأخضر يفسر هوية الشاعر الإسلامية ، فالخضرة ثمرة الخصب ، وترجمان الجمال ، وللخضرة في وجدان المسلم أثر عميق نافذ .

والشاعر «محمد بنعمارة» يعنون إحدى قصائده بقوله «إنني أرسم إقلاعي بالأخضر» ومصدر النور في ذلك الكوكب الأخضر شمس الإيمان المتسامية فوق الصراعات المذهبية فهي لا تميل إلى الشرق ولا إلى الغرب ، وإنما تفتح على الملكوت كله ، وما على أصحاب الرؤى الإيمانية المسلمة إلا أن يصمدوا ويناضلوا في سبيل عقيدتهم ، فالسبل مشرعة أبوابها والمدافعون عن قضيتهم يرتمون في مراحل السبع الشداد . وقصيدة «الأربعون» لدى الشاعر «الرباوي» ترمز إلى الكمال الإنساني ، فالأربعون في عمر الإنسان حد فاصل بين واقعين . . . واقع التيه ما قبل الأربعين ، وواقع اليقين / ما بعد الأربعين سنة ، وقد تكون هذه الرؤية مستوحاة من تيه قوم موسى الذين تاهوا في الأرض أربعين سنة ، وقد تكون مستوحاة من منظور الإسلام لدائرة الاكتمال الشخصي الذي يتحقق في سن الأربعين انطلاقاً من قول الله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ (الأحقاف : ١٥) .

وقد تكون مستوحاة من واقع شخصية المصطفى - عليه الصلاة والسلام - وبلوغه سن الأربعين ، ونزول الوحي عليه بعد بلوغه هذه السن ، ولكن فترة ما قبل الأربعين لم تكن تيهها في حياة الصادق الأمين ، ولكنها كانت إعداداً لرسالة أجل وأخطر . . . وهي هداية العالمين ، يصور الشاعر لحظة التحول تصويراً فنياً مقتبساً ظلالة الإيجابية من البيان القرآني يقول :

كان مثلي ضائعاً . . .

لكن ريحاً صرصراً عاتية . . .

. . . ذات صباح . قلعت كل جذوره

ثم يواصل الشاعر الرحلة مستضيئاً بمعطيات التراث زماناً ومكاناً . . . ولغة . . . يقول :

دائرة الأرقم تدعوك . . . انسحب من ذاتك الظمأى . . .
. . . ادخل الدارة . . . أنت الأربعون»^(١).

وفي «قصيدة المناضل» يرسم الشاعر صورة ساخرة لتحول هذا المناضل وردته، وهزيمته النفسية، وفقدانه كل ملامح الهوية، ولذلك يعبر عنه الشاعر بصيغة الغياب لا الحضور فهو غائب عن ساحة النضال الإيماني بردته، وهو غائب حتى عن كائنات الصياغة الشعرية . . . يقول الشاعر . . .

قالوا عنه مناضل

وأنا ما زلت أفتش عنه لأقرأ في الليل كتابه^(٢).

ودعا الداعي . . . يارب «فغيض الماء»

فتحت «إرم» زنديها، واستلقت فوق ضياء الفجر،

وطهر الكلمات الأولى . . .

وتناسل خيط النور

وقد حدد الداعية الأديب الشيخ/ محمد متولي الشعراوي موقفه الواضح من ظاهرة التأثير بالبيان القرآني . . . وذلك حينما توجهت إليه في حوار مع بالسؤال التالي:

ما رأي فضيلتكم في اقتباس بعض الشعراء آيات من القرآن الكريم أو بعض الآيات الموافقة لبعض «التفاعيل»، وتكون متسقة مع مناخ النص ورؤيته؟
فأجاب فضيلته في زهو وحب وعاطفة إسلامية جياشة قائلاً نحن صنعناها ففي قصيدة الهجرة حينما تكلمت عن أبي بكر قلت:

(١) ديوان «البيعة المشتعلة» ص [١٨] محمد على الرياوي.

(٢) المرجع السابق ص [٣٥].

ياوفاء الصديق في رحلة الحق (م)

سلام عليك ياخير جار

كنت درعا إقامة ومسيرا

ونصيرا يرجى لدى الإعصار

علم الله ما انطويت عليه

فجزاه إمامة الأبرار

وكفاه على الجزاء دليلا

ثاني اثنين إذ هما في الغار

ثم قال الشيخ الذي أخذ على بعض الشعراء أنهم نقلوا بعض الألفاظ القرآنية والآيات القرآنية إلى مجال آخر في سياق لا يتناسب مع قداسة القرآن الكريم .

وفي مقدمة ديوان «البيعة المشتعلة» (لمحمد علي الرباوي) ينوه كاتب مقدمة الديوان «على لغزيوي» بالتيار الإسلامي في شعر «الرباوي» فيقول :

«وإذا كان الشاعر الرباوي يستوحي بنية الجملة القرآنية، ويغرف من المعجم القرآني ويوظف الشخصيات الإسلامية توظيفاً موفقاً واعياً يؤكد إيجابية هذا المنحى في تجربته الشعرية، فإن الإيمان في نهاية المطاف من حيث المضمون والتصوير إنقاذ من المتاهات الممتدة في غير نهاية، وخلاص من التساؤلات المحيرة، وتهدة للنفس القلقة الحائرة التي لا تستسيغ شيئاً ولا تهتدي لشاطئ الأمان»^(١).

والشاعر «محمد المنتصر الريسوني» في ديوانه «على درب الله» يخوض تجربة إسلامية تمتلك وضوح الرؤية، وفنية الأداء . . . ويعلن عن ذلك في

(١) مقدمة ديوان على درب الله للشاعر محمد المنتصر الريسوني .

مقدمته الثرية لديوانه فيقول محددًا هويته «فهذه الإضمامة من الشعر . . . لعل أهم ما يميزها أنها تحمل صوتًا غاضبًا لحمى الله، يعلن الاحتجاج على التيه الذي يجلد كرامة الإنسان في كل مكان من البسيطة، كما يعلن إدانة الجاهلية في شتى صورها المعيشة، ويحدد دون مواربة موقف الرفض من كل منهج الله الذي ارتضاه للبشرية سواء أكان غربيًا أو شرقيًا، من ثم نهلت الإضمامة من النبع الرباني الذي عاهدت الله ألا أنهل من غيره أو أحميد عن روحه . . . وأتكتب طريقه التزامًا بالمضمون الإسلامي الحق في صورته المثلى ومعاله الواضحة وشيأته المتميزة»^(١).

ويركز الشاعر «الريسوني» على ضرورة تقديم الرؤية الإسلامية في إطار فني بالغ الجودة حتى لا يجد المغرضون منفذًا للهجوم عليه والسخرية منه: يقول: «وفي يقيني أن نجاح الفن رهن - بدون ريب - بقدره الفنان المسلم الذي يتولى تشكيله، وينقله إلينا من خلال إمكاناته الفكرية واستعداداته الثقافية، ومدى وضوح الرؤية الإسلامية في حسه، وصدق معاناته للتجربة، ومكنة أدواته الفنية على استيعاب المضمون المنبثق عن تلاحم المعادل الموضوعي والمعادل الفني ساعة التأمل ولحظة المخاض».

يقول «الريسوني»:

قرأت حروف الأسى والحداد

تغوص بعين الفقير الشريد

تعموم بها صبوات المعنى

ليوم يرف مواسم عييد

سنا الله أنبت في الساح صبحًا

سينداح عرسًا بكل وريد

(١) المصدر السابق ص [١٩].

نشرت القلاع فأبحرت نحو

مغان تددت بحب الحصيد

وردد عمق المدى عزمتي

فصاح لخيلي نعال الحديد^(١)

ويقول في قصيدته «كتابات على جدران القهر» وفيها يرثى الشهيد «سيد قطب» ويبدأ القصيدة باقتباس قرآني من بداية سورة «المسد» ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١). وكأنه بهذا الاقتباس يوازن بين جاهلية القرن العشرين وبين الجاهلية الأولى، ويعيد إلى الذاكرة المؤمنة وهج الصراع بين حزب الرحمن وحزب الشيطان في الأيام الأولى للإسلام... ويوحى بأن الصراع ما زال قائماً... وكل هذه الإيحاءات والإضاءات دفع بها إلى ساحة الشعور تأثر الشاعر بالبيان القرآني، واقتباسه جذوة من وعيد الله لأبي لهب.. الذي تحدى المصطفى - عليه الصلاة والسلام - وقال له حينما جمعهم وقال «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب «تباً لك... ألهذا جمعتنا؟». يقول الريسوني في رثاء «سيد قطب».

تبت يدا القهر الرجيم

لم تغن عنه سطوته أو خدعته

«قطب» شرع من ضياء

يسخو على جزر المحاق

يدعو المدائن للعناق

(١) المصدر السابق ص [١٩].

ركضاً إلى فجر خصيب

فتح صبيب^(١)

وفي قصيدة «فصول من كتاب» «صالح وثمرود» يستوحي أجواء القصة القرآنية، ووجدانه الشائر متفتح على «ثمرود» القرن العشرين، وملكته الفنية الإبداعية قادرة على استيعاب المضمون المنبثق عن تلاحم المعادل الموضوعي والمعادل الفني ساعة التأمل ولحظة المخاض، وفي القصيدة ترد تراكيب شعرية مستوحاة من السياق القرآني ومنها «نادى صالح»... «يوقد الشوقا...» . . . «ياقوم ريكمو... فاعبدوا».

ويضع لأحد مقاطع القصيدة عنواناً مقتبساً من آية قرآنية هو «قدمم عليهم ربهم» ثم يقول:

جنت أحلام ثمود بطغواها
عقروا الناقة الأيه
فاستحبوا العمى
عن نور السمما
حقت كلمه
أزفت أزفه
مالها كاشفه

وفي آخر القصيدة يقول مضيئاً تجربته:

ركب الإيمان غدا يمضي
بعدد غدد
تحده أشواق الهادي أحمد

(١) المصدر السابق ص [٢٥].

تستجلي آفاق الآتي
تندي طيبًا في الوادي الجديب
تنداح سناءات في ليل رهيب
وعلى الجودي: يستوى ركب الرحمان الأمين
فيقال: هلاكًا للقوم الظالمين^(١)

ويفصح الشاعر عن ملامح هويته الإسلامية . . . فيقول معلنا رفضه للقيم
الجاهلية:

«قريتي قد رفضت رؤيا «سواع»
أنكرت نسل «مناة»
أمنت بالمعجزات
معجزات الله في كاف ونون
منذ أن سوى الزمان . . . والمكان . . . والخليفة
فإذا الركب يسير
عبر آفاق الدهور
والنبوات ائتلاقات اخضرار
تبذر الأزمان خصبًا وعطاء
«قريتي بنت الهدى . . . حضنت إرث السماء» .

(ب) التأثير الشكلي الأدائي «بالبيان القرآني»:

وهذا اللون من التأثير يمثل المحور الثاني من محاور التأثير بالبيان القرآني أو
ظواهر التأثير بهذا البيان . . . أي بالألفاظ القرآنية والتركيب فقط، ويظل

(١) المصدر السابق ص [٥٨-٥٩].

شكلياً بعيداً عن لب التجربة وغير داخل في إطار الرؤية الإسلامية الشاملة لموقف الإنسان من الحياة والكون . . . والوجود . . . وما وراء الطبيعة . . . والنفس والروح ، وكثير من تجارب الشعر الحر أو شعر «التفعيلة» نلمح فيها ظاهرة التأثر الأدائي بالبيان القرآني ، ومن هذه التجارب تجربة الشاعر «محمد أبو دومة» في ديوانه «السفر في أنهار الظمأ» فهو يوظف التراث العربي والإسلامي توظيفاً فنياً في إثراء تجربته والدفاع عن قضيته ، وهي بمنأى عن الالتزام بالرؤية الإسلامية ، ونطالع في ديوانه هذه الاقتباسات القرآنية :

«تبت يد الجاني وتب»

«فما اقترفت محضراً تجدوه»

«كل بما كسبت يدها رهين»^(١)

ويبدأ قصيدته «فوق ذراعي نقش» باسم أبي ذر بقوله «ولبطن الأرض أحب إلي» وهذه البداية مقتبسة من سورة يوسف حيث يرد على لسان يوسف في السورة في مواجهة إغراء نسوة العزيز ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ (يوسف : ٣٣) .

واختيار «أبو دومة» للأرض في تعبيره بديلاً عن السجن . يجعل لتجربته الطعم التواق إليه الشاعر فهو عاشق للأرض . . . ويضحى في سبيل هذا العشق . . . وبطن الأرض يمثل في النهاية أمنه وخلاصه ، وحين يجدد الشاعر قضيته ويدافع عنها موظفاً الخطاب الشعري بكل ما يحمل من عوامل التأثير والخصائص . . . فهو لا يقع في شبك النفاق بل يسخر من ولي الأمر الظالم سخرية مباشرة بعيدة عن الإيحاء تقترب في صياغتها من اللغة التقريرية النثرية . . . وذلك مزلق فني لا يكاد ينجو منه إلا القليل من أصحاب الرؤى الملتزمة حيث لا يستطيعون الإمساك بالخيط الفني الدقيق مع الالتزام بالرؤية المحددة!!

(١) انظر ديوان السفر في أنهار الظمأ «لمحمد أبو دومة» .

يقول الشاعر أبو دومه :

وأنا يا من وليت الأمر على بأمرى
يفـجـجـعني منك الظاهر
يفـجـجـعني منك المخفي
ورطني في خطأ الغفلة حسن الظن، . . .

. . فلا تسألني حبك بالإكراه . . . (ما خلق الله بجوفي من قلبين)^(١)

والشاعر يستمد تعبيره الأخير من قول الله سبحانه : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (الأحزاب : ٤) . وهذه الاقتباسات منفصلة عن السياق القرآني . . مما يجعلها في إطار التأثر الشكلي فقط ، ونطالع تراكيب كثيرة في ديوان الشاعر «أبو دومة» يتأثر فيها بالبيان القرآني مثل قوله : (هماز مشاء) بالذم ، وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (القلم : ١١) وقوله : (يهرف رجماً بالغيب) اقتباس من قوله سبحانه في سورة الكهف ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ (الكهف : ٢٢) .

ويقول في مفتح قصيدته «السغب الظمى فى البلاط الفاطمى» .

«أحللنا لكم الميتة والدم والخنزير»
فليخبر حاضركم غائبكم يا إخواننا فى الطاعة .
لأولى الشأن المعصومين النزهاء .

والشاعر يسوق هذا المفتح فى معرض السخرية من أولى الشأن ، ولذلك

(١) المصدر السابق ص [٨٤] .

يعرض بهم فى قوله «المعصومين النزهاء» وكيف يكون على هذه الشاكلة وقد أحلوا الميتة والدم والخنزير . . . وذلك مخالف لما جاء به القرآن الكريم حيث حرم ما ذكره الشاعر وأحله أولو الشأن!!! والآية الكريمة التى استوحى منها الشاعر هذا التعبير ترسى قاعدة شرعية تمثل لبنة من لبنات المنهج الإسلامى حيث يقول سبحانه فى سورة المائدة: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (سورة المائدة: ٣) . فى القصيدة نفسها يقول الشاعر:

سـدت دور الصدقة

نصبت فى أروقه الأزهر

كل بنود البر وصار لصوص الأمن هم العسكر

والويل لمن قال السجن «أحب إلي»

وواضح أن موقف سيدنا «يوسف» الراض لإغراء امرأة العزيز كان مصدرًا من مصادر تجربة الشاعر حيث يقول سبحانه فى سورة يوسف: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (يوسف: ٣٣) .

ولكن الشاعر جعل السجن عقابًا لرفض الذل والحرمان والجذب، وليس عقابًا على رفض الإغراء وعدم الاستجابة لمتع الحياة الرخيصة كما فى قصة يوسف «وليس هناك من جامع بين قضية الشاعر والسياق القرآنى سوى نزعة الاعتراض، ومن هناك كان التأثير شكليًا لا يتعدى دائرة اللفظ والصياغة، ولا ينفذ إلى عمق النص، ولا يتوهج بإشراقات الإيمان، وقد تكون للشاعر قضيته التى يدافع عنها . . . ولكنها برغم هذا التأثير بالبيان القرآنى خارج دائرة الرؤية الإسلامية التواقفة إلى الوجود الإسلامى المؤثر فى المسيرة الإنسانية» .

(ج): التأثر السلبي بالبيان القرآني،

وهو التأثير الذي يسيء فيه الشاعر استخدام الألفاظ والتراكيب والمعاني القرآنية، كأن يضعها في غير مكانها اللائق، أو أن يسوقها في معرض السخرية والتهكم، أو أن يحاول جهلا وغرورا وادعاء - محاكاة أسلوب القرآن الكريم ظنا منه أنه قادر على إبداع بيان يكافئ البيان القرآني العظيم، ومثل هذه المحاولات . وهذه الاقتباسات منفصلة عن السياق القرآني . . مما يجعلها في إطار التأثير الشكلي فقط وتبوء بالفشل الذريع، ولا تحظى إلا بالرفض الكامل شكلا ومضمونا، وقد فعل مسيلمة الكذاب ذلك ولكنه باء بسخط من الله، ولم يلق عمله من الجماهير المؤمنة سوى الرفض الكامل، ولم ترق أساليبه لعلماء اللغة والبيان، فاندثرت كما اندثرت بقايا عاد وثمود.

ومن قرآن مسيلمة الذي زعمه قوله «والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، والخبزات خبزا، والثارذات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه والمعتز فأووه، والباغي فناوئوه»، وكل كلامه كما يقول الرافعي «علي هذا النمط واه سخي لا ينهض ولا يتماسك، بل هو مضطرب النسج، مبتذل المعنى، مستهلك من جهتيه وكل أساليبه» ضرب من الحماسة يعارض بها أوزان القرآن في تراكيبه، ويجنح في أكثرها إلى سجع الكهان»^(١).

وقد حاول زعيم البابية هذه المحاولة في كتابه «البيان» ولكن أسلوبه جاء مهلهل النسج، ضعيف الصياغة، ركيك المعاني، وليست عباراته إلا «أمشاج» متباينة متناقضة اختارها غلام يتنازع فكر مضطرب، وخيالات هاذية، فلا ترى فيها فكرة نابهة، أو عاطفة صادقة، أو تصويرا جميلاً، أو

(١) انظر الجزء الثاني من كتاب «تاريخ آداب العرب للرافعي» ص [١٧٤-١٧٥].

أسلوبها مشرقا، وإنما ترى جملا ينفر بعضها من بعض، ويناقض أولها آخرها. وأشد ما يثير دهشتك وسخريتك تلك السجعات التي يختم بها فقراته، فهي حروف مركبة تركيبا لا يوحى بمعنى، ولا يومئ إلى دلالة، ولا صلة لها أبدا بما يسبقها من القول. ومن أقواله التي تستبد بها الجهالة والضلالة والخلط والفساد «تبارك الله من سلط متسلط رفيع، تبارك الله من وزر مؤتزر وزير، تبارك الله من حكم محتكم بديع، تبارك الله من جمل معجمل جميل^(١)».

وهذه النزعة تسربت إلي حقل المعجم الشعري في العصر الحديث وأساء بعضهم عن عمد استخدام الألفاظ المقدسة في تجاربهم الشعرية، وبعضهم انزلق عن غير قصد إلى هذا المزلق الفني تقليدا منهم للنماذج المشهورة. فلفظ الجلالة. والقدر، والنبى . . . والصلاة. وغير ذلك من الألفاظ التي تتسم بالقداسة الدينية ترد في دواوين بعض الشعراء في غير مكانها، وبعيدة عن إيحائها الراسخ في وجدان الإنسان^(٢).

يقول الشاعر «خليل حاوي» مسيئاً استخدام لفظ الجلالة:

طرقات الأرض مهما تتناءى . . .

عند بابي . . . ينتهي كل طريق

وبكوحى يستريح التوأمان

اللسه والدهر السحيق^(٣)

والشاعر نفسه يجعل الصلاة بابا للذل والخضوع . . . وهى فى الحقيقة علاقة

(١) انظر كتاب «البهائية» تاريخها وعقيدتها «عبد الرحمن الوكيل» ص ١٢٠، ١٧٥.

(٢) انظر هذه الظاهرة بالتفصيل في كتاب «الخدائة سرطان العصر» ومصادر الإبداع بين الأصالة والتزوير تأليف د/ عبد العظيم المطعني وكتاب «الورد والهالوك» للدكتور/ حلمي محمد القاعد.

(٣) ديوان «خليل حاوي» ص [١٥].

حميمة بين المسلم وبين ربه . . . وبين الإنسان المتدين بعامته وبين خالقه من شأنها أن تهب النفس الإنسانية التوازن والثبات : يقول :

مبحر ماتت بعينيه منارات الطريق

مات ذلك الضوء في عينيه مات

لا البطولات تنجيه ولا ذل الصلاة^(١)

ويقول . . . مستخدماً لفظ «الإله» ببدلوله المستقر في الوجدان في غير موضعه

يا مجوس الشرق ، هل طوفتم في غمرة الأرض إلى أرض الحضارة

لتروا أي إله يتجلى من جديد في المغارة^(٢) .

ثم يقول : «يا إلهاً هارباً من صرعة الشمس ومن رعب اليقين يتخفى في المغارة^(٣)» ويقول :

لن تموت الأرض إن متم . . . لها بعل إلهي قديم

طالما حنت إليه . . . غير ليل العقم أنثى والهة

فضَّها البعل ورواها . . . فغصت بالرجال الوالهة^(٤)

وفي ديوان «أبى دومة» ترد التراكيب الآتية :

«يكون رباً» أدمن التأليه ، قادتني أقداري^(٥)

وهي تراكيب ترد كثيراً في دواوين الشعراء المحدثين . . تضل الطريق الفنى

(١) المصدر السابق ص [١٩] .

(٢) المصدر السابق ص [١٠٩] .

(٣) المصدر السابق ص [١١٥] .

(٤) المصدر السابق ص [١٢٣] .

(٥) انظر ديوان «السفر في أنهار الظمأ» ص [١٦ - ٩٥] محمد أبو دومة .

والموضوعى إلى الاستخدام الصحيح للألفاظ القدسية، وتفقد هذه التراكيب إحياءاتها المشعة فى وجدان القارئ المسلم، وتصدم مشاعره، ولا تلقى منه إلا الرفض والاستهجان.

وقد وقع فى هذا المزلق الأسلوبى بعض شعراء التيار الإسلامى ومنهم «محمد بنعمارة» حيث يقول فى ديوانه «نشيد الغرباء» من قصيدة أناشيد عائشة الأفغانية:

والله يوزع منشورا نتدبره
وبه نحرق أوراق «الأمبير» يمينا ويساراً
وفى قصيدة «الموت الخرافى» يقول الشاعر نفسه:

إنى اشتهيتك صحوة تسري وتزهر فى كياني
الأنبياء تسللوا... نحو النهارات البعيدة...
يملأون شوارع المدن الحزينة بالغناء^(١).

ويمكن أن يعبر عن دور الأنبياء بلفظ غير «تسللوا» ولفظ غير «الغناء» مع ما يوحى به لفظ «الغناء» من موحيات السعادة والأمل.

ويمكن أن يقال: «الأنبياء تسابقوا... نحو النهارات البعيدة...
يملأون شوارع المدن الحزينة بالضياء»

والشاعر «حسين على محمد» يصور مكة بالأثنى التى يشتاق إليها العاشق،
وحين يلتقى بها يخاصرها قدام الناس.

وذلك التصوير مهما كان رمزياً ومهما كانت أبعاده الفنية واستدعاءاته
الباطنية ومبرراته النفسية... فإنه يظل بعيداً عن التوظيف الفنى الصحيح
لمسميات الأمكنة فى الرؤية الشعرية الدائرة فى فلك التصور الإسلامى.

(١) انظر ديوان «نشيد الغرباء» ص [٤٤-٤٩] لمحمد بنعمارة.

يقول الشاعر:

(ظل يخاصر مكة قدام الناس ويصرخ
أنت عروس، يا قمرى الناصع غبت سنين عن القلب...
... تعودين الآن فتمتلى الدنيا بالبهجة...
... يشتعل الجسد الفراع...
... كان الوجه الطيب يتلو آيات النصر...
... ويعرف أفراحك يا مكة والأتراح...
وكانت عينك تقولان كلامًا محفوراً في أفئدة العشاق^(١))

ثانياً: التراث الإسلامي ومحاور تأثيره في تشكيل الرؤية الشعرية:

* إن التراث الإسلامي بكل معطاته شخصاً وأماكن ومواقف وأزمانا يضيء
زوايا التجربة في الشعر المعاصر؛ وتتعدد محاور تأثير هذا التراث في
صياغة التجربة الشعرية ومنها:

(أ) استدعاء الشخصيات التراثية الإسلامية.

(ب) الأمكنة الإسلامية وأثرها في تشكيل النسيج الشعري.

وفي ضوء هذين المحورين سأرصد ملامح هذا البعد من أبعاد الرؤية
الإسلامية في الشعر العربي المعاصر.

(أ) أبعاد توظيف الشخصية التراثية الإسلامية في الشعر المعاصر:

*مدخل:

* إن توظيف الشخصية التراثية يعد أحد مصادر تشكيل الرمز في الشعر

(١) ديوان «الرحيل على جواد النار» [ص ٣٢-٣٣] حسين علي محمد.

العربي المعاصر، وفي ظلال هذا الرمز «ترتقي الصورة الحسية من كينونتها المادية التاريخية إلى صورتها الفنية حيث تصبح بؤرة لإشعاعات إيحائية لا تحدد، لأن الرمز كيان حسي يثير في الذهن شيئاً آخر غير محسوس . فهو يبدأ من الواقع - التاريخي ويتجاوزه إلى ما وراءه من معان مجردة وإيحاءات وظلال^(١) . فالشخصية التراثية في النسيج الشعري ليست تاريخاً يُروى، وليست سيرة يحللها الشاعر، وإنما استدعاؤها يأتي في إطار رمزي قصصي غير محدد بأسوار التاريخ، وغير خاضع لمنطقه المحكم، وهذا الاستدعاء الفني له ما يبرره في تجرية الشاعر المعاصر . فهو يتكئ على المفارقة التصويرية واللغوية مسلطاً الشعور الناقد أو الراض أو المتعاطف مع حركة الحياة المعاصرة .

* أبعاد توظيف الشخصية التراثية الإسلامية :

إن توظيف الشخصية في الشعر المعاصر لا يسير على نمط واحد . بل تتعدد الأطر وتنوع الرؤى والمضامين، وربما تباينت رؤى الشعراء في توظيفهم لشخصية واحدة، وربما جمع النص الواحد حشداً من الشخصيات والمواقف والأحداث التراثية في بناء شعري يعتمد المفارقة أساساً للتصوير الذي يجسد التناقض بين الصورة التراثية وواقع الحياة المعاصرة .

* وتوظيف الشخصية التراثية خاصة وكذلك الأنماط التراثية عامة يتم في سياق فني يُعنى بالصيغ والأساليب والصور، ويُقدّم في إطار قصصي ودرامي، ولا يقدم المضمون فقط، وهو إذا تم على هذا المستوى يضع القارئ دائماً على حافة نوع خاص من التوتر يمكن أن نطلق عليه «توتر التذكر» فلا يستطيع أن يمضي في تلقيه للنص دون أن يستحضر تداعيات نظيره في المستوى المستثار للشخصية التراثية، ودون أن يقارن بشكل دائم بين ما يؤديه كل من الطرفين، وإذا كان القارئ العادي يكتفي بلمح المشابهة

(١ ، ٥) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر د/ محمد فتوح أحمد دار المعارف بالقاهرة .

ويسعد باكتشاف الموافقات . فإن القارئ المثقف يتوتر لهذه المشابه ولا يرتاح حتى يدرك المخالفات ويضع يده على مناط المفارقة . إذ إن هذا هو السبيل الحقيقي لإعادة إنتاج دلالة النص الجديد ، وتوظيف النصوص والشخصيات الدينية في الشعر يعد من أنجح الوسائل ، وذلك لخاصية جوهرية في هذه النصوص والشخصيات التراثية تلتقي مع طبيعة الشعر نفسه ، وهي أنها مما ينزع الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينياً أو شعرياً .

* ومن هنا يصبح توظيف التراث الديني في الشعر تعزيزاً قوياً لشاعريته ودعمًا لاستمراره في حافظه الإنسان^(١) .

* وهذا المنحنى الفني في بناء التجربة الشعرية المتكئ على توظيف الشخصيات والنصوص الدينية لم يلتفت إليه الشعراء القدامى ، ولم يستفيدوا من القصص الإسلامي في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، ولقد أتيح للشعر العربي بعد عصر نهوضه عهدان ، كان حرياً أن يستجلي فيهما - لو اهتدى الشعراء حقاً - إلى الخلق والابتكار - كما يقول «طه إبراهيم» في كتابه (تاريخ النقد عند العرب) . . ثم يتابع قوله : ازدهر «الشعر» في أواخر القرن الأول الهجري بحضارة الإسلام ، وجيشان النفس العربية ، وجاء الشعر الإسلامي رائعاً جلياً كالذي أخرجته الجاهلية أو أحسن ، ولكن هذا الازدهار كان على مثال الشعر الجاهلي ، فلم ينظر الشعراء في القرآن لغير الصياغة ، وبعض المعاني ، ولو أنهم تمعنوا لوجدوا فيه أساليب من القول ، وضروباً من الفن الأدبي كان يسيراً أن يحتذوها : في القرآن مثلاً الأسلوب القصصي ، وتاريخ

(١) إنتاج الدلالة الأدبية [قراءات في الشعر والقصة والمسرح] د/ صلاح فضل الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

الأقدمين، وقصص الأنبياء، وتلك أمور تزيد في روحية الأدب وتمد الشعراء بالأخيلة والإلهام^(١).

* وحين نرصد الرؤى والأبعاد التي تتكى على توظيف الشخصية الإسلامية وتستدعيها في صيغة فنية معاصرة نجد أنها في بعض مناحيها تتفرع إلى الرؤى والأبعاد التالية:

أولاً: الرؤية الشمولية للشخصية

ثانياً: الرؤية السياسية

ثالثاً: الرؤية المذهبية

رابعاً: الرؤية الذاتية

خامساً: الرؤية الضدية «المعارضة من خلال التناص».

أولاً: الرؤية الشمولية،

* وتنطلق هذه الرؤية من المنظور العقدي. فالشاعر في اتكائه على هذا البعد الفني يوج وجدانه بوهج الإيمان، والشوق إلى انتصار الوجود الإسلامي وعودته إلى تسنم ذروة المجد وقمة الحضارة.

* وخاصية الشمول في التصور الإسلامي يمكن أن تصبح طابعاً لصياغة التجارب الأدبية، حيث تتسم بالخطاب الإنساني، والسمو بالتجارب الذاتية الخاصة إلى الآفاق الفسيحة الشاملة، وتتعامل مع الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها، وهذا التصور الشمولي «يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة واتصالاً بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود كما هي في عالم الحقيقة والواقع»^(٢).

(١) انظر تاريخ النقد عند العرب / طه إبراهيم.

(٢) انظر خصائص التصور الإسلامي أ. سيد قطب.

* والرمز في هذا البعد الفني يعد إطاراً كلياً للقصيدة، وتتنامي فيه الأحداث والمواقف، وتتفجر فيه الطاقات الإيحائية، وهي تسلط عيناً على التراث وعينا يقظي على الواقع المعيش.

* وطبيعة الرمز في هذا التوظيف الفني تخالف الصيغة الرمزية في مرحلتها الأولى عند الرمزيين الرومانسيين، حيث كانت تتكئ الرمزية الرومانسية على وسائل الإيحاء التصويرية والموسيقية، فالرمز هنا يجسد حالات نفسية تكون بمنأى عن الواقع وحركته المائجة الصاخبة في كثير من التجارب، أما الرمز الذي يجسده استدعاء الشخصيات الإسلامية فهو تفاعل مع حركة الواقع واستكناه لمعالم المستقبل، وارتباط حضاري ووجداني بالجذور التراثية المكونة لهوية الأمة العربية والإسلامية وجوداً وحضارة وهوية وطموحاً إلى تجاوز مناطق الضعف ومسببات الاندحار والهزيمة.

* والرمز من خلال الشخصية التراثية في صياغته الفنية لا يظل حبيس مدلول واحد بل تتعدد دلالاته، وتترامى آفاقه، وتنوع عطاءاته. فبالإضافة إلى تحقق المستويين الحسي والتجريدي في الرمز. . . ينبغي ألا يكون المستوى التجريدي الرموز محددًا بكل قسماته وأبعاده، لأن أساس الرمز الإيحاء، والإيحاء ضد التقرير المباشر للأفكار والعواطف، ولهذا تنتفي عن نطاق الرمز «الكلي الشمولي» تلك الاستعارات والكنيات والأمثال الرمزية المقصود بها إلى استخلاص عبرة أو مغزى صريح «محدد» يفصح عنه الشاعر غالباً في نهاية القصيدة، التي تبدو في تلك الحالة وكأنها قد سيقّت خصيصاً من أجل البرهنة على الفكرة المرادة.

* فإذا تجاوزت الصورة الشعرية من خلال التوظيف التراثي للشخصية حدود الدلالة الحسية الضيقة واعتمدت على الإيحاء الرحب، وليس على تقرير الأفكار أو بسطها وإذا فهمت على أنها بناء مركب تتأزر جزئياته وتتنامي،

ولم ينظر إليها - كما يفعل بعض الشعراء - على أنها مجرد وسيلة للتعبير غير المباشر غدت تلك الصورة وأمثالها رموزاً تثير من الناحية النفسية والروحية والوجدانية ما لا تقوى على أدائه اللغة في دلالتها الوضعية ، وفي تلك الحالة قد تعني القصيدة معاني متعددة لعدد من القراء ، وقد يكون كل من هذه المعاني مختلفاً هو الآخر عما قصده الشاعر»^(١) .

ولكنه ليس متصادماً مع إحساس منشىء النص أو آفاقه ورؤاه واهتماماته ، والنص الجيد في منظور النقد الحديث هو الذي تتعدد دلالاته وتتعدد قراءاته فهو أشبه بالحديقة الغناء الفياضة بالطيوب والأصوات ، وتتعدد أبوابها بتعدد مراديبها .

* وشخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - كم كانت وما تزال وستظل مصدراً لتفوق كثير من التجارب الشعرية الرائدة . . . وسر ذلك : إن مقومات الشخصية المحمدية هي نموذج للشخصية الإسلامية في صورتها المثلى ، ولاغرو فهو الرحمة المهداة ، وهو أفصح العرب لساناً وأصفاهم جناناً ، وهو السراج المنير ، والبشير النذير وما زالت شخصية المصطفى - عليه الصلاة والسلام - تمد البصائر المؤمنة بأروع أسرار الكلم ، وأصدق آيات القصيد .

* والناقد الدكتور/ حلمي محمد القاعود كانت أطروحته لنيل درجة الدكتوراه حول «شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - في الأدب العربي في القرن الرابع عشر الهجري»^(٢) وهي دراسة وافية للأعمال الإبداعية التي تناولت شخصية الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

* والشاعر محمود حسن إسماعيل يخوض تجربة الارتحال مع النور الأعظم

(١) انظر «الرمز والرمزية في الشعر المعاصر د/ محمد فتوح أحمد .

(٢) لمزيد من الإيضاح والنماذج ، انظر الكتاب المشار إليه في متن الدراسة للدكتور حلمي القاعود .

ويشهد ببصيرته انبثاق النور المحمدي في آفاق الكون، فتتجمع خيوط الزمن في ذاكرته، وتتوهج مسيرة الإسلام في وجدانه، والنور الأعظم يتهادى أمام مسارات تجربته فتبصر الكون وقد أفاء الله عليه بظلال الإسلام، وتبديد الرؤى الوثنية المظلمة .

* يقول في صياغة خبرية بعد نداء إيماني صادق متجسّد في مستهل قصيدته : «يا أول نور»، وهذه الصيغة الخبرية المزوجة بالنداء تفصح عن تحقق الرؤية وواقعية الأحداث، وتغلغلها في ضمير الزمن، وتعاقب الأجيال، وشخصية المصطفى - عليه الصلاة والسلام - هي الفلك الذي تسبح في مساراته هذه الأحداث المضيئة بكل معاني الخير والإيمان والأمان .

* وتتوالى الأبيات المصورة للأحداث في إيقاع سريع، وموسيقى مصورة لحركة الشعور وحركة الواقع . . وهي موسيقى البحر «المتدارك» أو «الخبب» أو «ركض الخيل» .

* ويتميز إيقاع بحر «المتدارك» بخفته وسرعة تلاحق أنغامه، وموسيقاه الواثبة تناسب سرعة الإيقاع في هذا العصر، وهي أيضاً انعكاس لشدة الانفعال، وتأجج العاطفة وتوقدها، ويصلح للأجواء التصويرية التي يصح أن يكون النغم فيها عالياً .

* يقول محمود حسن إسماعيل^(١) :

يا أول نور

عَطَّشَ الدُّنْيَا جُنَّ عَلَيْهِ . . وَرَوَّى الحَيْرَةَ مِنْ قَدَمِيه !!

البُيْدُ الظَّمَاى شَرِبْتُ مِنْهُ وَرَاحَتْ تَسْقِي الظَّمَا اللّاهِثَ فِي الأَكْوَانِ

(١) ديوان «نهر الحقيقة» للشاعر محمود حسن إسماعيل ص (١٩٠ - ١٩٢) القاهرة ١٩٧١ م، وانظر كتاب «محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة»: للمؤلف ص (١٠٠ - ١٠٤) .

وأذاب ضحاه جدار الليل . . وأوغل . . أوغل حتى شعشع في الإنسان
رشَّ اليقظة والتوحيد على رثتيه
ومحا الذلة والإطراقة من جفنيه
ودهى الرق وكان محالاً لا يتزحزح عن كتفيه
ومضى يسحق كل ظلام . . عبر الدهر ومّر عليه
عرج الأفق وأذن من أعلى أعلاه . .
وراح يدق . . ويطلق . . يطرق . . كل الأبواب
الفجر توهج يا سارين على الأعتاب
والليل الضارب حول الكون تصدع في شفتيه وذاب!!

* وقصيدة «من وحي النبوة»^(١) للشاعر: حسن عبد الله القرشي تترجم
موقف الشاعر الحضاري ورؤيته الإسلامية، ولكنه لا يستدعى شخصية
المصطفى - عليه الصلاة والسلام - عبر الرمز الفني والتوظيف الشعري،
ولمّا يصور في صدق وصراحة بهجة الكون ببعثة محمد - صلى الله عليه
وسلم - وأثر هذه البعثة وشخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - في إنقاذ
الكون من الضلالات والأهواء الزائفة، والقيم الفاسدة.

* وفي ختام القصيدة يفصح الشاعر عن صدمته، وتتجلى المفارقة بين الماضي
المشرق المجيد وحاضر العالم الإسلامي المتخاذل الممزق. وتحوطه الأخطار
من كل جانب.

* يقول الشاعر في مطلع القصيدة:

أيّ بشرى علوية التـرديد

غمرت بالهدى شعاب الوجود؟

(١) ديوان «الأمس الضائع» للشاعر حسن عبد الله القرشي دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨م.

أطلقني يا سماء أسمى الأناشيـ

سد وضجني يا أرض بالتوحيد

فلقد لاح في ذراك شعاع

ماله في ائتلاقه من نديد

هو فجر فرد على غرة الدهـ

سروعيد مخلد التجديد

*وفي ختام القصيدة يستدعى الشاعر موكب النور رامزاً به إلى زمن القوة،
والحضور الإسلامي الفاعل المؤثر في حركة التاريخ الإنساني منذ بزوغ شمس
الدعوة الإسلامية، يقول الشاعر/ حسن عبد الله القرشي مصوراً واقع
المسلمين، وفي الوقت ذاته يدفع بالعالم الإسلامي إلى النهوض من جديد
على هدي من نور الكتاب المبين وسنة خاتم النبيين^(١):

موكبَ النور قد عشنا فأرسلْ

قَبَسَةً من ضيائك المنشود

قد تعالی القتام وارتكم الميـ

نـ وبؤنا بواقع منكود

قَبَسَةً . فالظلام هدّ قوانا

وامتداد الظلام لا شك يودي

هاهنا مهبط الرسالة مهوى الـ(م)

حق مجلى لعالم موعود

(١) ديوان الأمس الضائع للشاعر حسن عبد الله القرشي دار المعارف ١٩٦٨ م.

لا يزال الإسلام فينا فهياً

نصرع الشرك والأسى من جديد

* والبدال المكسورة وهي حرف الروي في هذا النص تفسر عاطفة الشاعر الصادقة تجاه قضيته ومدى تعلقها بشخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ولكن هذه العاطفة يمتزج فيها الشوق بالحزن، والفرح بالانكسار، فالبدال تعبر عن صوت المحب الذي صار دالاً من شدة الحزن، وحركة الدال هي الكسرة وهي توحى بالانكسار، فالضمة تعطي الفخامة والفتحة تعطي الاستعلاء، أما الكسرة ففيها انكسار وألم.

أما علماء الأصوات فيذكرون أن الدال صوت أسناني لشوي انفجاري مجهور يتذبذب معها الوتران الصوتيان، وهذا يومية إلى القلق وهزة الشوق، وهي من أصوات «القلقة» لأنها تحتاج إلى تحريك.

* فتشكيل القافية الصوتي شارك في تصوير عاطفة الشاعر وأوحى بطبيعة التجربة الشعرية.

* والقصيدة في إيقاعها الشعري تسبح في نغم البحر «الخفيف» . . وهو بحر «ساطع النغم»، بارز الموسيقى، ثم إنه صالح للحوار «بقال وقلت»، ويصلح للجدل وللتريد وللرد، ويمتلئ بالروح الملحمي، وقد ذكر حازم القرطاجني في منهاج البلغاء «أن له جزالة ورشاقة»^(١).

* وتتضمن هذه القصيدة كثيراً من الخصائص السابقة فهي أشبه بالأعمال الملحمية حيث تتكون من أكثر من سبعين بيتاً، وتصور كثيراً من أحداث الإسلام في عهد النبوة وهي تتكئ على السرد الفني والاستدعاء لبعض مواقف التاريخ من خلال شخصية المصطفى - عليه الصلاة والسلام - وبها بعض المشاهد الحوارية التسجيلية.

(١) انظر دراسات في النص الشعري د/ عبده بدوي، ومن القيم الإسلامية في الأدب العربي / لكاتب الدراسة.

* ومن التجارب التي وظفت فيها الشخصية التراثية الإسلامية توظيفاً فنياً موازناً بين أقول حضارتين، حضارة الإسلام في الأندلس وحضارة المسلمين في أفريقيا «زنجبار» قصيدة الشاعر الدكتور/ عبده بدوي وعنوانها «جمشيد وأندلس الشرق»^(١).

* ومنبع جودة هذه التجربة انطلاقها من رؤية شمولية لواقع العالم الإسلامي، فهي رؤية إسلامية تتسامى فوق الحدود الوهمية المصطنعة التي فرضها أعداء الأمة الإسلامية على أبنائها فشتتوا شملهم يوم أن اصطنعوا لهم حدوداً جديدة خادعة من الجنس والعصبية واللغة والبيئة حتى ينسوا أنهم تظلمهم الدائرة الكبرى دائرة العقيدة فهم في ظلها الفينانة أمة واحدة كالبيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

* يقول د/ عبده بدوي في المقدمة الثرية لقصيدته :

[أحسست أن الدمعة الأخيرة الحزينة التي ذرفها السلطان العربي «جمشيد ابن خليفة» آخر السلاطين العرب على زنجبار تُمْتُ بصللة حزن عميقة إلى تلك الدمعة التي ذرفت في غرناطة يوم خروج الخليفة عبد الله - آخر ملوك بني الأحمر - منها].

والشاعر في البناء التكويني لقصيدته جعل منها أربعة مشاهد تكون في مجموعها لوحة واحدة. وبدأ هذه اللوحة/ القصيدة بمشهد الضياع. ثم مشهد الوجود العربي الإسلامي في زنجبار، ثم مشهد الذكريات العائدة كسراب بقيعة، ثم مشهد البكاء على الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا «الأندلس» وفي زنجبار.

* يقول د/ عبده بدوي منادياً في لهفة وأسى، ومتخذاً من الكامل المجزوء صيغة إيقاعية منسجمة مع مسار تجربته الأليمة - فمناخ التجربة يوحى

(١) ديوان «لا مكان للقمر» د/ عبده بدوي: الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

بالانقسام والتجزئة، وأسلوب النداء المتكرر في مطلع كل مشهد يجسد حالة البعد عن زمن البطولة، وحالة الغربة المسيطرة على واقع الشاعر. .
وواقع الحضارة الآفلة في الأندلس وفي أفريقيا «زنجبار».

* والقافية الساكنة المقيدة توحى بحالة الجمود المسيطرة على مد الحضارة العربية والإسلامية في كثير من مناطق المعمورة، والروي حرف الدال المردوف بالياء الممدودة يصور عمق الحزن وشدته وامتداده، ويوحى بالقلق المسيطر على الشاعر، وقد اتفق الشاعران حسن عبد الله القرشي ود/ عبده بدوي في رؤيتهما للواقع العربي والإسلامي فجاءت الموحيات الصوتية والأسلوبية لديهما متقاربة لأن منبع التجربة من حقل شعوري واحد.
* ولنتأمل بعض ملامح هذه التجربة الصادقة حيث يقول الشاعر في مشهد «الضياع»:

* جمشيد يا إشراقه

جفت على الأفق البعيد

يا دمة منذر وفة

من جفن تاريخ مسجيد

جمشيد وانصب الظلا

م وماج من بين السدود

فلذا الطيور مهاجرا

تُبين أفق من حديد

وأمامها الأمواج والأ(م)

خوف المجوف والجمود

ويصدها جمشيد من

غير البيارق والبنود

أرخی الجناح وأسند الـ

منقار وانتظر الرعود!

* وفي مشهد «العودة بالذكريات» يتابع الشاعر نداءاته وتصويره للمأساة عبر مفردات وتراكيب رامزة:

* جمشيد يا جزع المساء على النجوم الآفله

يا آخر المترئين على طريق القافلة

من أي باب سوف ترجع بالحياة الزائلة؟

بالذكريات - بعالم جفت رؤاه الآمله!!

بالنور . . . مدّ إلى الظلام المستبدّ أنامله!!

بمآذن . . . لم تبتهج . . . والفجر نجوى سائلة

هذا هو التاريخ يقتل في العصور الذابله

ويداك تخرج من يديه إلى الدياتي المائلة

ووراءك المجد النضير وأوجه متقاتله

* وفي مشهد «البكاء» تتجسد المفارقة المصورة لأفول حضارتين . وهي مفارقة

قائمة على الموازنة، وتثير فينا الحمية والنخوة والنهوض بعد العشرات

والكبوات . . . ولكن كيف . . . !!!

جمشيد إنك دمعة

لما نزل بين الجفون

إننا ذرفنا مثلها
والفجر في ليل سجين
لما غدت غرناطة
مطروقة بالفاتحين
وامتد «حقد» للهلال
فمال بالضوء الحزين
ومشى الخليفة مطرقا
في موكب المستسلمين
وراءه أم تقبول
بكل خوف الضائعين
قد أن أن تبكي هنا
ملكا مضاعما منذ حين
مثل النساء الباقيات
بكل أحزان القرون

* * *

* قد عاد «عبد الله» يبكي ههنا بين السكون
من قلب جمشيد المعذب . . قلب جمشيد الطعين
سيظل يبكي ههنا في عصرنا . . عصر الأئين
يبكي العروبة والسماحة . . والمآذن والسنين!!!

* * *

* وشخصية «أبي ذر» يستدعيها كثير من الشعراء، ولكن تتباين رؤاهم، ومنهم من يجنح بموحيات الشخصية إلى دروب تتصادم مع التصور الإسلامي ومع واقع الشخصية التاريخي، والشاعر «حسين علي محمد» ينجح في توظيفه واستدعائه لشخصية الصحابي الجليل «أبي ذر» حيث يرصد معالم الشخصية رسداً فنياً في لحظة التحول الحقيقي لحظة إشراق نور الإسلام في وجدان أبي ذر، وفي عقله، ولحظة التحول هذه هي التي أضاعت له دروب حياته فيما بعد، ويرجع توفيق حسين في هذه التجربة إلى ملمحين: أولهما: أنه لم يقلد غيره من الشعراء المعاصرين الذين اتخذوا من شخصية «أبي ذر» رمزاً لمقاومة الثراء... حيث كان يحب الفقراء ويدافع عنهم - كما يقولون - ويزعمون أنه أول اشتراكي في الإسلام - والمسلم الملتزم بمنهج الإسلام ينطلق في كل تصرفاته وسلوكياته من منابع مضيئة بالتوحيد والربوبية والشمولية والاتزان والواقعية والإيجابية، فالثراء ليس مرفوضاً في التصور الإسلامي، وكذلك الفقر ليس هدفاً يركض وراءه المسلم: قال تعالى: ﴿فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥). وقال سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى. وَأَن سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى﴾ (النجم: ٣٩-٤٠) ويقول سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات: ٢٢).

* ثانيهما: إنه صاغ رؤيته لشخصية أبي ذر في إطار الشعر المسرحي، وحالفه التوفيق في هذه الصياغة المسرحية.

* والحوار بين أبي ذر وبين أخيه أنيس من أقوى مشاهد المسرحية، فهو بين أنصار الحق ومنهم «أبو ذر» وبين أهل الشرك متمثلين في «أنيس».

* يقول أنيس لأبي ذر حين شعر بميله للإسلام «هل أنت صبات».

يقول أبو ذر: لم أصبأ... لكنني أتلمس ضوء الحق... أبحث عنه.

* أنيس - قلقتاً - ومناه... !!

* أبو ذر :

لا تكفيني . . لا تشب عني
أثق يقيننا أن هناك إلهاً
أقوى من كل الأصنام
أقوى من معبودتك مناه
فهو الخالق . . وهو القادر^(١)

* ولكاتب هذه السطور رؤيته الفنية في توظيف الشخصية التراثية ؛ من خلال الرؤية الكلية الشمولية ، فالشخصيات الإسلامية تعد محوراً تدور في فلكه كثير من التجارب الشعرية ، وتوظيف الشخصية في حالتها «الوجه والقناع» هو إطار التجربة ، فالوجه هو الواقع التاريخي للشخصية ، والقناع هو الواقع المعاصر الذي تبعث فيه الشخصية لتنفخ فيه من روحها الإيمانية النقاء والعزيمة والعزة الإسلامية ومن هذه التجارب القصائد التالية :

«مشاهد من ملحمة العشق والبطولة لمحمد بن القاسم الثقفي» و «أسماء : الثورة والعطاء والتحدى» و «إشراقات من سفر التكوين والنبوة^(٢)» و «إيقاع الزمن القادم» أو «يوسف والجب» و «قافلة الغرباء» ، و «لن يموت في عيوننا النهار»^(٣) .

* وقصيدة «أمير الفقراء» عمر بن عبد العزيز^(٤) ، وقصيدة «القبو الزجاجي» أو «رسالة إلى محمد الفاتح»^(٥) .

(١) ديوان الرحيل على جواد النارد / حسين علي محمد : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٥ .

(٢) ديوان «الحلم والسفر والتحول» د/ صابر عبد الدايم : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٣ م .

(٣) ديوان «المسافر في سنبلات الزمن» د . صابر عبد الدايم : القاهرة ١٩٨٢ م .

(٤) النص الكامل للقصيدة بديوان «العاشق والنهر» للمؤلف . الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة ١٩٩٤ م .

(٥) النص الكامل للقصيدة بمجلة «الأدب الإسلامي» العدد السابع المحرم ١٤١٦ هـ .

وديوان «العمر والريح» للمؤلف قيد الطبع بالهيئة العامة للكتاب .

* وفي مطلع قصيدة القبو الزجاجي يقول كاتب هذه السطور:
 * أيها الفاتح . . . ضيِّعنا مفاتيح المدائن!!!
 ونسينا البحر . . . والموج وتهليل السفائن!!!
 ونسينا الخيل . . . والرمح . . . وأسرار الكمائن
 * سورة الفتح هجرناها . . . وبددنا صداها . . .
 وتراءت في حنايانا . . . أنينًا وحنينًا
 كل أشجار الفتوحات أراها
 عـاريات مـن رؤاهـا . . .
 . . . من ثـمـار المـجـد . . .
 . . . في أوراقها جفَّت دماءُ كنت تَسقيها شذاها
 أيها الفاتح أقبل . . . أنت ما زلت فتاها
 انزع السيف من «القبو الزجاجي» . . .
 فقد تُهنا . . . وتاهـا . . . !!!

وشخصية «محمد» - عليه الصلاة والسلام - كانت مصدرًا لكثير من تجاربي
 الشعرية ومنها . . . قصيدة «محمد ورحلة اليقين» «وأين الطريق إليك» و«قافلة
 الغرباء» و«أبا الزهراء» ورسالة إلى المصطفى - صلى الله عليه وسلم -.

وقصيدة «قافلة الغرباء» رصد وجداني إيماني لرسالة الشاعر في ظلال
 الإسلام، ومحاولة للعثور على ملامح الرؤية الشعرية في التصور الإسلامي،
 والقصيدة في وجهها الآخر إدانة لمسيرة الشعر العربي التي ابتعدت به في بعض
 تجاربه عن الدرب الصحيح، وجعلته مطية للنفاق واتخذت منه معبرًا للكسب
 المادي، وجعلت منه كلمة جوفاء لاهية، تدغدغ مشاعر كل كيان مغرور
 أحمق:-.

أحمل في شرياني الحب - أجيء إليك على استحياء
يا من أشرقت علينا بشريعتك الغراء
أهواك . . فأنت سقيت كياني معنى البوح وسر الإفضاء
ألهمني سر الوجد فأنت بأرض العشاق سماء
وأراك أتيت إلى العالم في قافلة الغرباء
ولأنك أدركت الجوهر في عمق الأشياء
وتساقيت رحيق الحق من العلياء
صارت كلماتك آفاقا للشرفاء
وإذا أبواب الجنة . . أبوابك . . تفتح للفقراء
والعالم سيق إليها زمرا تغمره الآلاء
لم ترصد أبوابك إلا في وجه الشعراء
فالشعراء تراموا بنبال الحرف العمياء
واقنتلوا في ساحات الكلمات الجوفاء^(١)

وشخصية «بلال» من الشخصيات التي كانت وما زالت منبعاً لكثير من التجارب الشعرية وقصيدة «ترنيمة بلال» للشاعر «حسين علي محمد» تمثل الرؤية الشمولية للشخصية الإسلامية حيث يمثل بلال فيها - كما يقول د/ علي عشري زايد في مقدمته لديوان الشاعر تجسداً من تجسيدات الحلم المناضل، ويحمل دلالات رمزية معاصرة، ويستغل الشاعر من ملامح شخصية بلال - رضي الله عنه - «ملحمين أساسيين» المؤذن والمجاهد الصامد فيألى جوار كون

(١) انظر نص القصيدة: كاملاً لديوان «المسافر في سنبلات الزمن» صابر عبد الدايم، وديوان المرايا وزهرة النار.

بلال هو مؤذن الرسول فهو واحد من الذين تحملوا أقسى صنوف العذاب في سبيل عقيدته، وصمد صمودا فذا والمشركون يجرونه في شعاب مكة، ويضعون الصخور على صدره ليعلن كفره بالدين الجديد، ولكنه لم يكن يحرك لسانه بسوى هذا الدعاء العلوي «أحد . . أحد» وقد امتزج هذان الملمحان امتزاجا فنيا بارعا للرمز من خلال هذا المزج إلى انتصار صوت الحق دائما في النهاية، واكتساح نور الحق لكل ظلمات الضلال والظلم، شريطة أن يجد هذا الحق أنصارا في مثل صمود بلال، ومثل يقينه:

خلف النوافذ حط عصفور شريد

نقر المساء

فأفتر عن فجر جديد

فجر العصافير التي غنت كثيرا للصباح

أحد أحد .

أحد أحد .

أحد أحد .

والليل يرحل والجراح

والشمس . . شمس محمد . . تجتاح مكة والبطاح^(١)

وإذا كان «حسين علي محمد» قد نجح في توظيف شخصية «بلال» بموحياتها في وجدان المسلم فإنه في قصيدته «الرحيل على جواد النار» أو من مكابدات عبد الله بن الزبير . لم يتخذ من عبد الله بن الزبير رمزا تاريخيا، ولم يحصره في دائرة البعد السياسي ولم يتجاوز هذه الدائرة إلى الرؤية الشمولية، ولكن الشاعر . . جعل من شخصية «ابن الزبير» معادلا موضوعيا

(١) انظر: مقدمة ديوان «شجرة الحلم» للدكتور علي عشري زايد ص ١٦، ١٧ .

لذاته ، ومن خلال استدعائه لهذه الشخصية طرح همومه وقلقه ، وأبان عن
نفسيته وما تموج به من قلق وأشواق ، وفي نهاية رحلته على جواد النار المندلعة
في داخله . نراه يهدأ وكأنه وجد أمنه وخلاصه في ساحة «عبد الله بن الزبير»
فبدأ يضيء تجربته بمشاهد من نضال ابن الزبير فيخاطب الإنسان المعاصر
الواقف في وجه الحجاج ، ومن خلال هذا الخطاب تتحدد معالم رؤية الشاعر
الإسلامية . . . يقول :-

أبنائي . . . يا أقمار الدنيا في ليل الأنواء

صبرتم . . . جاهدتم

قلتم كلمة حق في وجه الحجاج . . .

. . . وقفتم . . . ثابرتم

مازلت أناديكم . . . يا أحباب الفجر الآتي

أبنائي . . .

من يحمل راية حزب الله القادر لا ييأس

. . . من نصر الله القادم

فالله الأكبر في صف الفقراء بجانبهم

. . . يقف يحارب معهم

صبرا يا أبنائي

هذا وقت البذل

* ويقدم الشاعر د/ حسن الأمراني اعتذاراً إلى أبي أيوب الأنصاري ، حين
زار مدينة استامبول ورحلت ذاكرته الإيمانية في مرايا المجد الإسلامي ،
والفتوحات الكبرى في بلاد البلقان . . . ، ولم يجد مخرجاً إلا أن يخاطب

أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، الرجل الذي اختار الله عز وجل أن تبرك بأرضه ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين دخل المدينة مهاجراً ، وهو أحد السبعين من أهل العقبة الثانية ، شهد المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وعندما تحرك جيش المسلمين إلى فتح القسطنطينية على عهد يزيد بن معاوية كان أبو أيوب ضمن ذلك الجيش ، وحين أصيب في المعركة طلب أن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو فدفن على مشارف القسطنطينية «إستامبول» [أي دار الإسلام] .

* وقصيدتا «رسالة إلى محمد الفاتح واعتذار إلى أبي أيوب الأنصاري» منبع التجربة فيهما واحد فهما من وحي زيارة الشاعرين لمدينة استامبول .
وتصوير محنة المسلمين في العصر الحاضر مع استدعاء الرموز الماجدة التي صنعت الوجود الإسلامي في هذه الديار العامرة . يقول الشاعر / حسن الأمراني مستدعياً الشخوص والأزمنة والأمكنة في امتزاج فني شعوري صادق :

أقدم اعتذاري

إليك يا ناشرة السلام

يا قلعة الفاتح يا بشارة الرسول

يا مدينة القباب والمآذن الصواري

أهكذا يموت في أعماقنا الضياء؟

أهكذا ينهدم البناء؟

هل يغسل الحزن خطايانا

كما تغتسل الحقول بالأنهار؟

وهل تذيب دَرَنَ الأنفس دمة بجوف الليل أو . .
. . أو شهقة لها أزيز النار؟
أكلما نهضت أو خرجت أو جردت من أشعاري
سيفا يحزّ عنق الظلام
أو كفا تعيد الخصب للتراب
يفجعني الأصحاب!!
لأن هذا الناس في زماننا
ثيابهم عوار
وجوههم عوار
أقدم اعتذاري
إليك يا سيف أبي أيوب الأنصاري^(١)

* والتجربة نفسها يخوضها الشاعر د/ جابر قميحة فيكتب من وحي زيارته
لمدينة استامبول قصيدته «رسالة إلى أيوب الأنصاري»^(٢) «مصوراً مشاهد
الانتصار، ومشاهد الانكسار في مفارقة غاضبة حزينة لا ترفع الراية
البيضاء، ولكن يظل الصمود وقوة الإيمان يمثلان التحدي الإسلامي
المناهض لكل التيارات المضادة.

وقد ألقى الشاعر قصيدته في غابة بلجراد على القمة التي كانت مجلسا
لمحمد الفاتح يوماً ما !!

(١) ديوان ثلاثية الغيب والشهادة: نص القصيدة الكامل والهامش ص ٦٩-٧٦ د/ حسن الأمراني/
المغرب.

(٢) نشرت قصيدة: رسالة إلى أبي أيوب الأنصاري «بجريدة الشعب» بالقاهرة. د/ جابر قميحة.

ثانياً، الرؤية السياسية:

. . واستدعاء الشخصية في هذا المنحى يظل في بعض التجارب متكئاً على التصور الإسلامي والالتزام بمعالم الرؤية الإسلامية مضموناً وأداءً، لغة وأسلوباً، وبعضها يحصر الشخصية في قالب محدد متأثراً ببعض التوجهات والأفكار، أو ينظر للشخصية من خلال منظور جزئي تمثل السياسة بعده الأكبر، وكذلك البعد الاجتماعي، فالشاعر «محمد أبو دومة» يحمل هويته في صورة نقش على ذراعه باسم أبي ذر، وهو يقتصر على البعد السياسي والبعد الاجتماعي، ويظل في استدعائه لشخصية أبي ذر الغفاري بمنأى عن الرؤية الشمولية للشخصية بصفاتها شخصية مسلمة شاركت في صنع الوجود المسلم بكل أبعاده، لأن هذه الهوية لا تضيف إلى رمز «أبي ذر» شيئاً جديداً، ولكنها تتعامل معه من منظور التمرد على بنى أمية وعلى المترفين، وفي مفارقات تصويرية ساخرة يوضح الشاعر ملامح هويته التي يحاول فك طلاسمها من خلال موحيات ومعطيات شخصية «أبي ذر» التي يحاول الشاعر تطويعها لتجربته .

يقول «أبو دومة»:

تتمطى قدامي صحراء المنفى موجات صدى

تتكوم في صدري الأحزان

أذكر لحظة أن قابلت «أباذر» يسحبه الحراس إلى «الربذه»

حملق في وجهي برهه

أعطاني معتذراً ظهره

ومضى يحكي للحصباء عن النار المنتظرة

عنا حين تجرنا الموت قعوداً

حين تجرعناه وقوفاً

لكني ما فارقت خطاك

فمعاوية يلاحقني مذ شاهد فوق ذراعي نقشاً باسمك^(١)

وفي قصيدة «مشتكاي يا خامس الخلفاء» يصبح الرمز مزدوجاً يفصح عن شخصيتين، شخصية الحجاج وهي الطاغية علي التجربة . . . والطاغية في واقع الحياة، وشخصية «عمر بن عبد العزيز» وليس لها مكان في التجربة سوى توجيه «الشكوى» وكان على الشاعر ابتغاء اكتمال التجربة - أن يسترفد عطاء شخصية «عمر بن عبد العزيز» من خلال تصوير مشاهد مضادة لسلوكيات الحجاج، وحتى لو لجأ الشاعر إلى ذلك فلن يجتاز مرحلة الخطر . . . لأن الواقع التاريخي يؤكد أن الحجاج لم يكن معاصراً لعمر بن عبد العزيز . . . فقد تولى «عمر» الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك، ومات الحجاج قبل ذلك في عهد «الوليد بن عبد الملك» .

وملامح شخصية «عمر بن عبد العزيز» يشوهها الشاعر، ولا يقف على أبعاد الصورة الحقيقية، ولا على موحيات الشخصية في الوجدان الإسلامي، حيث يقول: «وقفت ببابك المغلق»!!! ويقول: «أخاف عليك من عدلك، أخاف عليك من نفسك!! أخاف عليك: تروح ضحية للسهو^(٢)» .

والشعر المعاصر يحفل ديوانه بكثير من النماذج الإبداعية الجيدة في هذا السياق التوظيفي للتراث^(٣) واستدعاء الشخصية الإسلامية في بعض التجارب الشعرية لا يقدم في صورة «شفرة تراثية إيحائية» متمثلة في «اسم هذه الشخصية أو لقبها وكأن الشاعر يستدعي برقية عاجلة من هذا التراث المجيد

(١) ديوان «السر في أنهار الظما» د/ محمد أبو دومة - القاهرة ١٩٨٩ / الهيئة العامة للكتاب .

(٢) المصدر السابق ص [١٣٢] .

(٣) هناك تجارب متعددة في هذا الاتجاه، ومنها: مقاطع من سيرة أبناء يعقوب . د/ صالح الزهراني، ورسالة إلى محمد الفاتح . د/ صابر عبد الدايم، وامتنعاه د. حسين علي محمد .

ليطل بها على الواقع الجريح تمسكا بالجذور، تشبثا بهوية الأمة وزرعا للثبات في النفوس، وانتزاعا للقنوط الذي يكبل مسيرة الأمة في نضالها المعاصر ضد الأعداء، ومن هذه التجارب قصيدة «أمّتي»^(١) للشاعر غازي القصيبي «حيث يسخر من تقول الجاحدين الذين يزعمون أن الأمة العربية ماتت ضعفا وتخلفا يقول الشاعر في مفتح قصيدته ساخرا ومتهكما يقولون: إنك مت .

يقولون: إنك غسلت . . كفنت ثم دفنت!!!

ثم يختم القصيدة رافضا هذا الزعم، مستدعيا رموز القوة والإيمان والثبات في تاريخنا الإسلامي، إذ يقول في صيغة استفهامية تحدى افتراءات المكابرين، وتعلن أن أمة منها محمد- صلى الله عليه وسلم- ومنها طارق بن زياد، والمثنى، وفيها القرآن الكريم لن تموت ضعفا وتخلفا بل ستظل كلمة الحق فيها مرفوعة اللواء . . .

«تموتين! كيف؟ ومنك محمد.

وفيك الكتاب الذي نور الكون بالحق حتى تورّد

وطارق منك . . . ومنك المثنى . . وأنت المهند

تموتين . . كيف؟ وأنت من الدهر أخلد

وفي تجربة أخرى استدعى الشاعر/ غازي القصيبي في إشارة ضوئية سريعة بطلين من أبطال الإسلام وهما خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص موحيا بحتمية النصر لأحفادهما ومن على شاكلتهما إيمانا وفروسية ودفاعا عن الحق: يقول من قصيدته «لا تهيبى كفني»^(٢).

لا تهيبى كفني . . . ما دمت بعد

لم يزل في أضلعي برق ورعد

(١) ديوان «الحمى» نص القصيدة من (٥٣-٥٨) غازي القصيبي، دار تهامة-الكتاب العربي السعودي ٥٣.

(٢) ديوان الحمى من (١٠١-١٠٥).

أنا إسلامي . . . أنا عزته

أنا خيل الله نحو النصر تعدو

أنا تاريخي . . ألا تعرفه؟

خالد ينبض في روعي وسعد

قسماً ما قفز الخوف إلى

قبضة الفارس . . ما اهتز الفرندُ

مادعانا الفتح إلا شمختُ

هذه الصحراء والكثبانُ أسدُ

وإذا كان د/ غازي القصيبي يستدعي رمز الشخصية الأقوى إحياء ممثلاً في اسم هذه الشخصية أو لقبها ولا يجعل من الشخصية محور التجربة كلها، فإن الشاعر «محمد بن علي السنوسي» يقدم لنا سيرة الشخصية الإسلامية في صيغة شعرية أقرب إلى السرد التاريخي، وتتبع وقائع السيرة، ولا يمزج هذا التصور الفني لتاريخ الشخصية بالواقع المعاصر، حيث يقدم نموذجاً إسلامياً مجرداً من التحديد بموقف معاصر، وغير متضمن للإشارات اللفظية أو الإضاءات التعبيرية التي تشي بالمعاصرة، وعلى الرغم من ذلك فإن مجرد استدعاء الشخصية واتخاذها محورا للتجربة الشعرية يعد دعوة من الشاعر إلى الإقبال على هذه النماذج المضيئة في مسيرة أمتنا زمان نهوضها وحضارتها. فهل تعود هذه الحضارة من جديد؟؟

يقول محمد علي السنوسي في معرض إشارات الخليفة الأول أبي بكر الصديق:

يا ثاني اثنين إن الدين في خطر

وأنت للدين مُذْأُسلمت نصار

هذا مسيلمة الكذاب في نزق
وذا طليحة أفاك ونعار
ثبت للخطب لم ترهبك ثائرة
ولا هفابك أوغساد وأغرار
وقلت قولتك الغراء ترفعها
كالسيف في وجه من خاروا ومن ثاروا
والله لو منعوني حبل راعية
قاتلتهم ليس إلا ذاك إقرار
ياللوديع الرقيق القلب أين مضت
تلك الوداعة فهو اليوم جبار
أعدت للمسلمين الفجر مبتسما
من بعد ما كاد يحو الفجر فجار
ويسجل «السنوسي» لمحات مضيئة، وقبسات إيمانية من سيرة الفاروق
عمر، وعلي بن أبي طالب، ويقف أمام شخصية الخليفة العادل/ عمر بن
عبد العزيز متأملا سيرته وعدله وزهده فيقول في سرد تاريخي، وتصوير
فتني :
واستقبل الدهر عهدا لا نظير له
في كل ما سجل التاريخ من حقب
هديا وعدلا وإيمانا ومرحمة
ووحدة صاغها الإسلام من ذهب

يمشون في ظلها الصافي وقائدهم

دين ينير خطاهم في دجى الدرب

ثم يقول الشاعر مؤكداً أنه يصور تاريخاً ولا يستدعى الشخصية في تجربة
نابعة من الواقع المعاصر:

أسطورة تلك...! لا والله بل بشر

مشى على الأرض مشي الغيث في جذب

قرأت تاريخه يوماً فرف فمي

شوقاً لتقبيل ذاك العطر في الكتب^(١)

* ومن التجارب التي تستدعي الشخصية الإسلامية عبر رؤية سياسية مفسرة
لما يدور من أحداث معاصرة قصيدة «بنت الأزور في بيروت» للشاعر جميل
عبد الرحمن.

* وهو يجسد من خلال هذه الشخصية الصابرة المناضلة مأساة «لبنان»
المعاصرة، والمفارقة واضحة بين التاريخ الجليل والحاضر الذليل...،
وتزدحم قصيدة الشاعر بكثير من الشخصيات الدائرة في فلك رؤيته
المصورة لأحداث الاعتداء الغاشم على لبنان، يقول جميل عبد الرحمن:

* سيدتي يبست يدها... ما عادت تقدر أن تحمل سيفاً

أو تقفز فوق جواد نافر

وحصان المجد الساطع في «اليرموك» و «أجنادين».

شاخت خطواته من زمن غابر

(١) انظر الأعمال الكاملة للشاعر/ محمد بن علي السنوسي ص ٥٣٧-٥٢٦-٥٢٧.

وعن الاتجاه الإسلامي في شعر محمد بن علي السنوسي «كتاب الباحث» مفوح إدريس وهو أطروحتة
العلمية التي نال بها درجة «الماجستير» في الأدب العربي من جامعة أم القرى - كلية اللغة العربية.

«خولة» سيدتي العربية

تبكي مجدداً قَوْضَه الإغفاء طويلاً فوق جدار الشمس
تبكي آخر ما كانت ترجو سيدة في عمر اليأس^(١)

ثالثاً: الرؤية المذهبية:

* وفي هذا المنحي يحصر الشاعر الشخصية المستدعاة في قالب مذهبي يمثل اتجاه إحدى الفرق في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، ويصوغ الشاعر رؤيته للملامح هذه الشخصية انطلاقاً من التصور المذهبي، ومثل هذا الاتجاه نجده عند علي أحمد سعيد «أدونيس»، وهو تصور بعيد عن الصورة السوية لمعالم الرؤية الإسلامية، ولا يوحى بأبعاد الشخصية الماثلة في الوجدان العام، ولكنه يصبغ موحيات الشخصية بمعتقد الشاعر ومذهبه.

و «أدونيس» يصور لحظة اغتيال زيد بن علي إمام الزيدية، ولحظة مصرع «الحسين»، وهذا التصوير يخرج الشخصية عن صورتها المعتدلة في مسيرة التاريخ الإسلامي فللحسين بن علي مكانته بين صحابة رسول الله، وله مكانته في وجدان المسلمين، ولكن هذه المكانة لا ترفعه إلى مقام التقديس كما يحاول ذلك بعض الكتاب والأدباء، وأدونيس في تصويره لمصرع الحسين، ومصرع زيد بن علي يحاول إثارة القلاقل والفتن، ويرمي كل المذاهب الأخرى والاتجاهات المعتدلة بالعداوة والبغضاء.

* والرؤية نفسها تتكرر في رصد الشاعر لمصرع «زيد بن علي» حيث يسيطر الأداء «الدرامي» على التجربة، وتتعدد الأصوات، والصياغة القصصية

(١) انظر القصيدة بديوان «وأمام تشققنا نعترف» لجميل عبد الرحمن» الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٢ م. والتيار السائد في «استدعاء الشخصيات التراثية» لدى الشعراء المعاصرين هو تيار الرؤية السياسية، ويقع الشعراء في كثير من المغالطات التاريخية والفنية التي تنحرف بالشخصية عن مسارها الحقيقي.

تحتل العنصر البارز من عناصر التجربة الشعرية، ولكن يسيطر عليها التعصب المذهبي، وعدم تمثل خصائص التصور الإسلامي الصحيح^(١).

رابعاً: الرؤية الذاتية؛

* وتوظيف الشخصية التراثية في هذا الإطار لا ينطلق من منظور تاريخي، ولا يحصر الشخصية في دائرة البعد السياسي أو المذهبي، ولا يتجاوز هذه الدائرة الضيقة إلى آفاق الرؤية الشمولية، وإنما نجد بعض الشعراء يتخذ من الشخصية معادلاً موضوعياً لذاته، ومن خلال استدعائه للملامح هذه الشخصية يطرح همومه الحياتية، ويكشف عن قلقه الذاتي، ويبوح بما تنطوي عليه نفسه من مكابدات، وما تموج به من أشواق وطموحات وانفعالات، والتجربة لا تخلو في هذا الإطار التوظيفي التراثي من إشارات عصرية توهم في المفردة الشعرية، وفي التكوينات الأسلوبية، وبعض التشكيلات البيانية المعاصرة.

وهذه الرؤية الذاتية تبرز بجلاء في قصيدة «الخروج من الجنة» للشاعر حسين علي محمد؛ إذ يصور من خلال استدعائه لشخصية «أبي حيان التوحيدي» شعوره بالقلق والهزيمة والإحباط، وعنوان القصيدة يجسد هذا الإحساس الذي رمز إليه بالخروج من الجنة.

* وفي ختام القصيدة يرسم الشاعر هذا المشهد التعبيري المؤثر:

أرجع مكسوراً وجريحاً

قد يكفي أن أمتص جراحي

لكني أخرج من جنتك . . .

فأعرف أنني خنتك في أولى لحظات الكشف . . .

(١) انظر متن هاتين التجريبتين في ديوان «الآثار الكاملة» لعلي أحمد سعيد [أودونيس].

فسالت قنوات دمائي

ترسم غيمات زرقاء

على وجه القمر الشاحب .

* والتصوير الشعري هنا يجسد الواقع النفسي ، فدماء الشاعر تسيل ، والعالم كله يصبغ بلون نفسيته وآثار دمائه . فإذا به يرى دماؤه غيوماً زرقاء تحجب عنه ضوء الحقيقة الهارب منه في صورة القمر الشاحب ، وليست قنوات الدماء ، ولا الغيوم الزرقاء ، ولا القمر الشاحب إلا تصويراً لنفسية الشاعر وإحساسه بالقلق ، وشعوره بالتصادم مع إيقاع الحياة المعاصرة .

* وفي قصيدة «من إشراقات عمرو بن العاص» يفرغ الشاعر نفسه كل مواجيدته وهمومه وآلامه الخاصة والعامة^(١) .

خامساً: الرؤية المعارضة من خلال التناص:

* وفي هذا المنحى يقدم الشاعر تجربته من خلال نص تراثي ارتبط بشخصية لها مكانتها في الوجدان الجمعي ، ولها تأثيرها في نفوس الأجيال المتعاقبة ، وفي هذا الإطار تقدم تجربة الشاعر «جميل عبد الرحمن» ، حيث يقيم علاقة تناص «متصادمة» مع نص الشاعر المحارب «قطري بن الفجاءة» ، حيث يعارض «جميل» أبيات ابن الفجاءة ضمن قصيدة تجسد روح المعارضة وعنوانها «انكسارات» ، يتفق مع مناخ «التناص» والتجربة القائمة على المفارقة الساخرة . يقول في المشهد السابع من «انكساراته» معارضاً قصيدة «قطري بن الفجاءة» التي مطلعها :

أقول لها وقد طارت شعاعاً

من الأبطال ويحك لن تراعي^(٢)

(١) انظر متن القصيدتين أو التجريبتين في ديوان الشاعر «الرحيل على جواد النار» و «حداق الصوت» ، وانظر «مجلة» البلد الأمين : العدد الرابع - رجب - رمضان ١٤١٧ هـ .

(٢) انظر حماسة أبي تمام ، والفرق الإسلامية في الشعر الأموي د/ النعمان القاضي .

** أقول لها وقد طارت شعاعا

من الأهوال نامي في ضياعي !!

فإنك لو سألت الحزن يوماً

لسدّ الأذن عن عمر مضاع !!

وغض الطرف عن صرخات أهلي

وعن شيب الوليد على ذراعي !!

أقول لها- وقد أخذوا صغيري

إلى قعر السجون بلا دفاع !!

إذا اتهموه غالوا في الرزايا

ويُقتن في العذاب بلا انقطاع !!

لقد أخذوه في دجى الليالي

وخلوا أمه نهب التيساع !!

فصبوا في عراك الظلم صبراً

فما رفع الرءوس بمستطاع !!^(١)

* والشاعر الراحل «علي أحمد باكثير» يتخذ من استدعائه لشخصية أبي تمام وسيلة فنية لتجسيد تجربته وإحساسه بالفجيعة، وكذلك إثارة نزعة المقاومة والتصدي لمؤامرات الصهاينة ومحاولاتهم السيطرة على المقدسات الإسلامية في فلسطين، وكأنه يقول: إن التاريخ يكرر نفسه فالروم قديماً يتآمرون على المسلمين، والصهاينة حديثاً يشردون شعباً بأكمله، والمفارقة

(١) ديوان وأمام تشققنا نعترف/ جميل عبد الرحمن .

تبدو في موقف العزة العربية والإسلامية الذي وقفه المعتصم حيث قام بفتح عمورية وتأديب الروم، وسجل هذه الموقعة وملابساتها شعراً أبو تمام . . . فقال في حزم وقوة وإصرار .

«السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب»

* والبون شاسع بين موقف «المعتصم» وهزيمة الروم وبين واقع الصراع اليهودي وغدر الصهاينة، ومحاولاتهم نسف الجهود الداعية إلى إعطاء كل ذي حق حقه .

* يقول علي أحمد باكثير «مناديا أبا تمام» حبيب بن أوس الطائي، وملكنا على علاقة «التناصر» بين قصيدة «أبي تمام» في فتح عمورية وبين خطابه لأبي تمام في العصر الحديث، ورؤيته توحى بالبون الشاسع بين الموقفين من العدو الذي يتربص بنا الدوائر، إنه ينادي في أسى واستنهاض للعزائم:

أحبيبُ في ذكراك تذكرة

لبنى أبيك اليوم إذ وثبوا

أعداؤنا هم كعهدك لا

تغيير إلا الاسم واللقب

صهيون صار اسمًا لبابكم

والغرب فيه الروم ما غربوا

من ألف عام ما تزال لنا

معهم ملاحمٌ ليس تنقضب

يبغون أن يحوا رسالتنا

محوا ويأبي الله والحسب

وباكثير - كما يقول «د/ عبده بدوي» كان أقوى صوت غني للعرب وآمن بقدرتهم حتى حين سقط الظلام على الظهيرة، وحين تشكك الذين لم يسبق أن خطر الشك على صحيفة أنفسهم، وتختلط في شعر باكثير العروبة بالإسلامية، فإذا كان الإسلام هو النظرية فالعروبة هي السلاح، وهو في قصيدة أخرى يقول:

وصنّ رحم الإسلام فهي وشيعة

تشابك أقوام عليها وأقطار

هي العروة الوثقى هي القسوة التي

يتم بها للمسلم في الأرض إقرار^(١)

* وبعد:

فإن ديوان الشعر العربي المعاصر يحفل بكثير من التجارب الثرة في هذا المجال الإبداعي، وذلك ملمح بارز من ملامح تطور الشعر العربي الحديث رؤية وأداء، وإن التراث الإسلامي بكل معطياته شخصاً وأماكن ومواقف وأزماناً يضيء زوايا الرؤى الشعرية والتجارب الرائدة في مسيرة شعرنا المعاصر.

* والأديب المسلم في غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لا يكون بمعزل عن واقع الحياة ومشاعل الإنسان وآماله وأحلامه، فهو في إيمانه يتأمل ماخفي من أسرار الكون، وهو في تأملاته يستجلي أسرار الحياة، ويبحث عن منافذ الخلاص عبر رؤية إسلامية متميزة متفردة تصاغ معالمها في قالب فني مؤثر.

(١) انظر كتاب قضايا حول الشعر د/ عبده بدوي / الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٢م.

(ب) الأمكنة الإسلامية وأثرها في تشكيل النسيج الشعري،

المكان في الإسلام له أثر في تشكيل معالم الكيان المسلم . . . فالقلوب المؤمنة تظل معلقة بظلال وأطياف الأمكنة التي تحمل عبق التاريخ، وبطولات الإسلام، وأمجاد الأوائل .

وقد أقسم الحق سبحانه وتعالى بالبلد الأمين فقال سبحانه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ١-٤) .

وقال سبحانه: ﴿وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مُّسْتَوِرٍ . فِي رَقٍ مُّنشُورٍ . وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ . وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (الطور: ١-٨) .

وقال سبحانه: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ . لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ١-٤) .

والأمكنة متعددة . . . والوجدان الإسلامي يتعلق بها تعلقاً روحياً وعمقياً ومن هذه الأماكن . . . مكة - المدينة - دار الأرقم بن أبي الأرقم - أحد - بدر - حراء - ثور - جبل النور - جبل الصفا والمروة - عرفات - جبل الرحمة - الكعبة - الحجر الأسود - حجر إسماعيل . . . إلخ وكلها معالم ناطقة بالهدى . . . موشاة بالضياء واليقين، وتحمل ذروة الشعور في الوجدان المسلم وتسيطر على دوائر التوهج في مدارات الإبداع .

وقد خاطب النبي - صلى الله عليه وسلم - «مكة» بأصدق آيات الخطاب . وأرق عبارات الوجد وقال عن جبل أحد «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه» .

وقد سميت بعض الغزوات بأسماء الأماكن التي شهدت ملتقى الجمعيين مثل «بدر» وغزوة «أحد» وغزوة «الخنديق» . . .

والمكان في مدار الرؤية الإسلامية يصبح نقطة انطلاق للالتفاف حول مبادئ محددة يلتف حولها الشباب المعاصر، الذي لم يعثر علي هويته بعد!! يقول: «محمد علي الرباوي» في حوار بينه وبين صوت شعري آخر . . . ويمكن أن يكون الحوار بينه وبين نفسه . . . في لحظة التحول من الرؤية المشتتة بين مذاهب العصر إلى الرؤية الإسلامية الشاملة . . .

افتح الظرف ؛ فلا دنيسا ! ولا لغم !
ولكن ، هوشيء كـالـخـزامى
جثمت في جوفه هذى العبارة :
دارة الأرقم تدعوك : انسحب من ذاتك الظمأى
ادخل الدارة . . . أنت الأربعون^(١) .

والأربعون في رؤية الشاعر رمز زمني لاكتمال مقومات الكيان الإنساني ، وهو ضوء الهداية في مفترق الطرق ، وارتباط الرمز الزمني «الأربعين» بالرمز المكاني «دار الأرقم» إضاءة لقدسية العلاقة بين المكان والزمان ، وإشارة إلى بدء الوحي ، وإشراق البعثة المحمدية . حيث كانت دار الأرقم ملتقى الكوكبة المؤمنة في بدايات البعثة ومنها انطلق فرسان الدعوة .

«ومكة» في رؤية الشاعر/ حسين علي محمد تمثل النبع الطهور . . . وهي كذلك في وجدان كل مسلم ، فهي بلد الله الحرام ، والشاعر هنا يحلم بالعودة إلى مكة بعد رحلة الاغتراب في دروب القلق والضياح . . . إنه مشتاق للأمن والاطمئنان الروحي والنفسي . . . فمكة في رؤية الشاعر أشواق روحية يحاول أن يعرج إليها . . . ولكنه لا يملك كل أدوات العروج : يقول:

ترحل كل خيوطي . . . راكضة نحو النهر

(١) ديوان «البيعة المشتعلة» ص [١٨] محمد علي الرباوي .

ترحل عبر حـ قـ و ل القـ يـ ظ
تحمل في الذاكرة الشمعية بعض رؤى خضراء
تحلم والشفق الأحمر يصفعني
وسؤال في الأعـ مـ مـ ا ق يـ و ر ق نـ ي
هل أصل إلى النبع صـ بـ ا حـ ا
مـ مـ ع أول ضـ مـ و
أم أصل . . . وقد ماتت أضواء نهاري؟^(١)

واتكأ الشاعر هنا على الصيغة الزمنية المستقبلية يفسر إصرار الشاعر على الوصول، ويجسد الحركة الوائبة في هذا الطريق، ورغبة الوصول حينئذ تصبح توهجاً شعورياً مصاحباً للرحلة . . . وليس أحلاماً وردية، ولا أوهاماً غائمة، وهذا التوهج المتجدد تجسده الأفعال الحركية المصورة لإيقاع السير المشحون بالأمل والعمل. (ترحل - تحلم - تحمل . . . يؤرق . . . أصل).

والمعجم الشعري هنا والبناء اللغوي يشي بما يمور في رؤية الشاعر وداخله ولنتأمل هذه المفردات الشعرية وهذه الأنساق اللغوية ونحاول اكتشاف ظلالها . . . (راكضة نحو النهر - الذاكرة الشمعية - الشفق الأحمر - هل أصل إلى النبع).

والتساؤل في نهاية هذا المقطع يجسد كذلك خوف الشاعر من تبدد أمل العودة وبترجم حرصه الأكيد على مواصلة الرحلة . . . برغم القيظ؛ وهو يحاول بث الحياة في الذاكرة الشمعية، ويحاول التغلب على معوقات وصفعات الشفق الأحمر . . . والشفق يمكن أن يرمز إلى زحف الظلام . . . ، وموت النهار . . . ، والنبع والصبح يرمزان إلى الوصول إلى لب التجربة . . . والتوغل في آفاقها المشرقة .

(١) ديوان «الرحيل على جواد النار» ص [١٥] حسين علي محمد.

والشاعر نفسه في قصيدة أخرى يصور مشهداً من مشاهد معاناة العودة،
حيث كاد يفقد أمله في الوصول . . . يقول :

شـمـسـك غـابـت يا مـكـة

مـاذا فـأفـعـل ؟

لا أسمع غير صدى خطواتي في الصحراء ودقات القلب !

لم يبق لعيني غير الدمع . . . وصرت وحيداً خلف الجمع

وإذا كانت مكة في رؤية الشاعر «حسين على محمد» إشراقة روحية . وقمة
مزهرة بالمجد والضوء يحاول الشاعر العروج إليها ولا يستطيع . . . !!!

فهي في رؤية «جميل عبد الرحمن» تمثل الحقيقة الكائنة والواقع المكاني
والروحي ، إنه يتعامل مع مدلولها بصيغة الخطاب المباشر ، ولا يحيط رؤيته
بغلاف من الغموض ، لكن يصوغها في إطار فرحته بذكرى انبثاق النور
المحمدي ، ويتجاوز لحظة البهجة الآنية إلى التوغل في آفاق المستقبل
المصاحب لذلك النور ، والمتوهج بقيم الإسلام ، ومن هنا تصبح مكة ذات
الوجهين ، الوجه القديم حيث التيه والأصنام ، والوجه الجديد حيث النور
والأذان . . . والحق - والإنصاف - والعدالة - والحرية - والمساواة .

يقول الشاعر منادياً مكة - الوجه القديم - لتستقبل وجهها الجديد القادم في
هالات النبوة :

«يا مكة : قومي من نومك

خلى عينيك الآستين . . . الهائمتين . . .

وراء بخور القربان الوثنى . . . التائهتين بظلمة وجه الليل . . .

. . . تكتحلان بعطر النور الآتي بالرحمة من وجه الرحمن

طيـري بجناح النور هناك فراشـة بشـرى
تحمـل نبأ سـراج الحق . . .
وضمى تاج الدنيا فوق جبـينك
من أرضك ينبعث النور
أزلى الطلعة لا يخنق
ليـزين عـمـر الأزمـان
في أرضك يا مكة ولد محمد
خلي عينيك الشاخصتين لنور الله السرمد^(١).

ومكة في رؤية د/ محمد عبد المنعم خفاجي نور الإسلام . . . ومنى
وأمان . . . إنه يرصد لحظة استقبالها للنور الأسنى . . . نور محمد - صلى الله
عليه وسلم . . . ويرمز لانبثاق النور المحمدي بالفجر الجديد . . . وينسب
الفجر إلى مكة ويصفه بأنه نشوان، ومكة في صحبة ذلك النور زينة الدنيا . .
وتاج الروابي، ويوغل الشاعر في تشخيصه لمكة . . . فيصورها بأنها غمرتها
السعادة . . . فغنت لمقدم هذا النور . . . ، ورددت الأجيال والقرون وراءها
هذا الغناء . . . ، وما أحسب هذا الغناء إلا صدى رائعاً لاستجابة مكة النور
- مكة الإسلام - لدعوة خاتم الأنبياء . . . وما ترديد الأجيال والركبان لهذا
الغناء إلا تصوير لإيقاع هذه الاستجابة في نفوس الأجيال المسلمة .

وحين يضع الشاعر مكة في دائرتي «النور والسلام» فيقول مكة النور . . .
ومكة السلام، فإنه يومئ إلى الزمن المضاد . . . زمن الجاهلية . . . حيث
كانت مكة «الظلام» ومكة «الحروب والخوف» فمكة في ظلال الإسلام غير
مكة في ظلال «الجاهلية» .

(١) ديوان «تموت العصافير لكن تبوح» ص [٩] «جميل عبد الرحمن» .

وهذه الصورة التي رسمها الشاعر د/ خفاجى لمكة . . . تقترب من صورة «جميل عبد الرحمن» ولكن صورة د/ خفاجى تأتي في صياغة خبرية وتدثرها ظلال الإيحاء، أما صورة «جميل عبد الرحمن» .

فتقدم إلينا في صياغة طلبية «إنشائية» وتتعامل مع الحدث تعاملًا مباشرًا يقول د/ خفاجى:

مكة النور فجرها نشوان

وبها الدنيا والربا تزدان

حدث مكة السلام به غنت

وغنى غناءها الركبان

ومشت في الدنيا الرواة به في

فمها طاب السحر والألحان

بذرى بيت في الشعباب هناك

البشر والبشرى والمنى والأمان^(١)

* * *

وكاتب هذه السطور تشاء الأقدار له أن يتجول في دروب مكة وشعابها، وتتشرب روحه عقب التاريخ المضيء في مكة، وتعانق عيناه ومشاعره جبالها الشم، ويتمخض العناق الحميم عن أسرار مضيئة بحقائق الإيمان، وتكون الثمرة قصيدة «الجبل» وهي تأملات مؤمنة في قدسية المكان، وطهارة الزمان، فمكة كيان نوراني، مفرداته الجبال . . . والسهول؛ ومركز دائرته ونقطة انطلاقه «البيت العتيق» . . . وما يدور حوله ويحف به من المجموعة النورانية المتمثلة في جبل الصفا، وجبل المروة، وجبل منى، وجبل الرحمة، وجبل

(١) ديوان الذكريات ص [٥] د/ محمد عبد المنعم خفاجى .

النور، وجبل ثور؛ إنها ظواهر كونية يتسع لها الوجدان المؤمن ويمتد، بل تقع من الكيان المسلم موقع اللحم والدم والأعصاب.

والجبل في رؤية كاتب هذه السطور محور الكون، ومنبع الضياء، وملقى المشاعر المؤمنة ومصهر التجارب، ومنار الأوبة والعودة إلى الطريق الحق.

تأتي الجموع من كل فج عميق فتعود بهم هذه المشاهد والمراثي الإيمانية إلى عصر البراءة ونقاء الطفولة، يعودون كيوم ولدتهم أمهاتهم وقد تلاشت ذنوبهم في شمس الإيمان، وشدت من عزائمهم صخور الحق، التي تمثل الجبال بعض ملامحها... فقد قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١).

يقول الشاعر:

أني أسير يضمني الجبل

فكأنني في الصخر أرتحلُ

من كل زاوية ملامحه

تبدو وفي الأجواء تنتقلُ

فكأنه عين الوجود إلى

قلب الخفايا لمُحها يصلُ

حمل العصور الشم كاهله

وهو الفتيُّ وليس يكتهل

متجههم.. جرداء قمته

لكنه بالخير يشتل

مُدَّتْ إِلَى الْغِيَمَاتِ رَاحَتَهُ
فَإِذَا بَجْرَحِ الْكُونِ يَنْدَمِلُ
وَإِذَا الْعَوَالِمُ مِنْ بَحْيِرَتِهِ
يَسْقُونَ فَيُضِ الْعِزَّ إِذَا نَهَلُوا
قَدَمَ الرُّضِيعِ تَهْزِجُ بَهْتَهُ
فَإِذَا بِهِ لِلطِّفْلِ يَمْتَثِلُ
وَإِذَا بَعِينَ الْحُبِّ مَشْرِقَةٌ
وَالْأُمُّ يَهْجُرُ قَلْبَهَا الْوَجْلُ
وَإِذَا الطُّيُورُ عَلَى مَبَاسِمِهَا
تَضُؤِي الْأَغْنَانِي وَهِيَ تَرْتَجِلُ
وَإِذَا الْوُجُودُ الطِّفْلِ تَحْضِنُهُ
أُمُّ الْقُرَى . . . وَيَكْبُرُ الْجَبَلُ
وَحَرَاءُ نَبْعٍ فِي تَمَاوِجِهِ
الْأَرْضُ بِالْعَلِيَاءِ تَتَّصِلُ^(١)

* * *

و «مكة» كثيراً ما ترد في التجارب الشعرية التي تدخل في دائرة «المدائح
لنبيهة» وهي في هذا الإطار لا تتجاوز صيغة الخطاب الشعري المباشر،
لا يقلل هذا من شأن التجربة، فموحيات البلد الأمين متجددة دائماً في نفس
لمؤمن، ومصاحبة لمشاعره المتطلعة دائماً إلى مشاهدة هذا المكان المقدس.

(١) ديوان «المرايا وزهرة النار» ص [٦٨]. صابر عبد الدائم.

فالشاعر/ عمر أبو ريشة يصور شوق الوجود إلى الحق والخير والإنصاف والعدالة ، ويرى أن هذه القيم كانت أمنيات تطوف بوجدان العالم الحائر ، وفي مكة كان المستقر والمستودع والمنبع والمصب ، والبعد والمنطلق لهذه الأشواق بظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - يقول في قصيدته «يارمل» والرمل هنا رمز للصحراء التي جادت بالخصب الروحي العظيم ، وبالرخاء الشعوري والمادي الذي غمر مشارق الأرض ومغاربها بنور العقيدة وبرد اليقين ، يقول :

يارمل ما تعب الحادي ولا سئما

ولا شكاً في غوايات السراب ظما

على نجومك من نجواه أخيلة

شق الفتون بها أكمامه ونما

كأنما من وراء الغيب هاجسة

فضت على سمعه السر الذي كتما

فرنج الكون في لآلاء أمينة

عذراء ما عرفت أرضاً لها وسما

مرت طيوفاً على الدنيا فما غمست

فيها جناحاً ولا جرت بها قدما

حتى إذا طالعتها مكة اختلجت

شوقاً وسالت على أجوائها نعماً

فلاح أحمد في أعراس دعوته

يسلسل الوحي إن صممتاً وإن كلما

فأرسل الصرخة الزهراء فانطلقت

كتائب الله ترعى البيت والحرم^(١)

وفي قصيدته «مقدمة ملحمة محمد» تمثل الأماكن والأجواء الإسلامية معطيات ثرة وروافد تعبق بالأمل في إعادة القيم الإسلامية إلى الوجود المعاصر... ، وهذه الأجواء تعكس وجه الإسلام الحضاري المشرق.. مثل مكة - يثرب - أحد - الخندق - حراء ؛ وتأخذ القصيدة ثوباً قصصياً يعرض أحداث التاريخ الإسلامي في لغة شعرية عذبة الإيقاع ، مجنحة الخيال ، مشعة بالإيحاءات ، صادقة العاطفة ، ثرية الألفاظ ، غزيرة المعاني ، حاملة إشراقه الماضي... وعائلة بها إلى واقعنا المعاصر... لتؤازر حركة المد الإسلامي في عصرنا الحديث .

وقف الحق وقسفة عند بدر

شحذت في الغيوب سيف القضاء

ووراء التلال ركب أبي سفيان

سان يحمى سرية الفيحاء

وقريش في جيشها اللجب تسعى

بين وهج الفنا وزهو الحـداء

بلغت منحنى القلب ولفت

من عليه بيسمة استهزاء

وفي ختام القصيدة يخاطب مكة في إيقاع أخاذ ينتصر للأمل ويتطلع لعودة
المجد الإسلامي :

(١) ديوان عمر أبو ريشة ص [٤٨٤-٦٨٧].

ياعروس الصحراء ما نبت المجد

سدُّ على غير راحة الصحراء

فأعيدي مجد العروبة واسقي

من سناه محاجر الغبراء

قد ترف الحياة بعد ذبول

ويلين الزمان بعد جفاء^(١)

و «مكة» يطلق عليها الشاعر/ عبد العليم القباني «أم المدائن» ولا يناديها «بأم القرى» وهو يظن أنه بذلك يعلي من شأن مكة . . . ولكن الشاعر إذا تأمل كنية مكة سيجد أن القرآن الكريم هو الذي أطلق عليها الكنية فقال: ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧)، فإطلاق «أم القرى» على مكة لا ينقص من قدرها، والشاعر نفسه يبرز دور مكة الحضاري وأثرها في حضارة الشرق والغرب على السواء، وهذه المكانة اكتسبتها مكة لأنها تضم البيت العتيق، وأنها كانت مشرق التوحيد، ومنبع الهدى، وهي مقصد الحجيج وهي البلد الأمين. يقول:

أم المدائن . . لم أقل أم القرى

بغداد تعرف ما أقول وجلق

منك استمد الغرب إشعاع الهدى

وطوي الضلوع على سناك المشرق

لولاك في الصحراء ظلت قفرة

تودي بأعمار الرجال وتحرق

(١) المصدر السابق ص [٥١٥].

أرأيت كيف اعتز من عرف الهدى
وهوى فألصق بالتراب الأحمق
أين الجبابر في رحابك، راعهم
صدق النذير فآمنوا، أم أشفقوا؟
عاد الرسول إليك يزجي فيلقا
تعنولعزته الجبال وتطوق
بيمينه من وحي ربك معجز

أعيا البيان وحرار فيه المنطق^(١)

وينفعل الشاعر/ عمر الأميري بمشهد البيت الحرام، وتغمره أنوار الخالق
جل في علاه وتظل هذه المشاهد مضيئة في وجدانه . . . فلا تنهزم نفسه أمام
مغريات الحياة ولا ينجرف في تيار الغواية . . لأنه محصن بنور اليقين، ومناعة
الإيمان: يقول:

غمـرتني أنواره فكأنني
عنصر من عناصر الأنوار
وكأنني والبيت يشوق حولي
شامخ المجد في سنا الأسحار
أه يا ويح وقفتي في ديار
قدس الله تربها من ديار
خصت هول السماء سعيها إليها
وطويت البحار إثر البحار

(١) ديوان «لله وللرسول» ص [٤٩] عبد العليم القباني.

وعلوت النجوم في صخب الأنواء

أشرى مر العنا بالنضار

فكأنني وقد حللت رباها

جوهر خالص من الأوضار

نقيت من طبيعة الترب نفسي

حين حلت في روضة المختار^(١)

والمكان في رؤية الشاعر يصنع جناحين، يطير بهما في عوالم الصفاء الروحي وهو محفوف بالأنوار، نقي من أدران المادة، شفاف كضوء النجوم، فقد ذاب كيانه في ماء زمزم . . . وغدا جرما نورانيا . . . يحلق في السماوات والعوالم الأثيرية، ولم يعد يدري عن نفسه شيئا . . . وهو غارق في تأملاته وعبادته، فقيامه في حجر إسماعيل كأنه سجود وسجوده سباحة علوية مع الأقمار، وسعيه بين الصفا والمروة هدوء مريح ووقوفه سياحة وحركة، وضجيج الحجيج سكون وخشوع وابتهاال والأحجار الصامته يسمع تسييحها مدويا في آفاق الملكوت .

إن ذوبان الشاعر في مصدر انفعاله جعل المعالم والأماكن . . . والشجائر تتراسل وتتغام وتبادل الوظائف والمعطيات الإيمانية .

ومن «وحي الكعبة المشرفة» والطواف حولها يصور الشاعر/ حسن عبد الله القرشي هذا المشهد الذي لا ينقطع لجموع الطائفين حول البيت والركع السجود، ويناجي ربه في خشوع وجلال، وهيبة المكان ورهبة الموقف تزيده خشوعا وتضرعا ومناجاة الله عز وجل في رحاب البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا . يقول الشاعر:

(١) انظر: منهج الفن الإسلامي ص ١٩٥-١٩٦ محمد قطب.

شاقني موكب الجلال تبدي
في ظلال التهليل والتكبير
برحاب البيت المقدس حفت
هتفات إلى العلي القدير
كلهم لاجئ إليه شريد
أرقته لوافح التفكير
أي وحر يفيض ملء مرأثيه
فيجلو غشاوة للضرير
سلوة المخبتين روح المحبين
نشيد المعذب المقهور
طفت مالي إلى سواك سبيل
رب فاقبل نجوى فؤادي الكسير
أنا يارب حائر الخطو عان
أترأى لديك خير مصير^(١)

ولم يشغل الشاعر هنا بوصف المكان بقدر ما شغل بالكشف عن الحالة الشعورية والبوح الوجداني ، والإفضاء بما تكنه النفس من مشاعر الحيرة والقلق والرغبة في التوبة والأمان فالقادم ، لاجئ- شريد- مؤرق- يلفحه الفكر - معذب- مقهور- كسير الفؤاد- حائر الخطو- أسير- ولكنه في هذا المكان «في البيت الحرام» تزول كل مواجعه ، ويثوب إلى رشده- ويجد المثوبة والأمان- ويرى مصيره الخير في توبته والإقبال على ربه .

(١) انظر : النص الكامل للقصيد بديوان الشاعر «الأمس الضائع» ص (١١٠-١١١) وله عدة قصائد جعلها تحت عنوان «تهويمات روحية وهي» من وحي النبوة ، وفي ظلال الغار ، وموكب النور .

والشاعر «معيض البخيتان» لا يشغل بهمومه الذاتية، ومشاعره الخاصة بقدر ما يشتغل بتصوير عظمة المكان «مكة» وبيان أفضلية «البلد الأمين» على سائر أماكن «المعمورة» في صياغة شعرية قوية، ولغة جزلة، وصور موحية رائقة، فمكة سر القوة الكامنة في العالم الإسلامي، ففيها أول بيت وضع للناس، وإليها تهوي الأفئدة من كل فج عميق يقول: «معيض البخيتان من قصيدته» في الرحاب المقدسة^(١).

يا مهبط الإشراق كم من معجز

وحضور أملاك ومدكر غني

كم فيك من مثل يطول وحكمة

ملء الوجود... وجبهة لم تنحن

لو جمعت أجساد يعرب كلها

من حاضر يجري وماض مزمن

أو بعثرت في كل أرض قطعة

منها لكانت منك تربة مؤمن

والمسجد له مكانته في الإسلام. فهو المكان الذي تلتقي في رحابه الجموع المؤمنة وهو رمز الوجود الإسلامي عملاً بقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨).

والمئذنة من متعلقات المسجد، ومنها ينطلق الأذان للصلاة، ولها في قلوب المسلمين مكانة روحية شعورية عميقة، وهي ترمز إلى علو الكلمة المؤمنة، وشموخ الشخصية المسلمة، والشاعر د/ محمد بن سعد بن حسين يتعلق بهذا

(١) ديوان «شلال قلب» ص ٢٧-٣٠ معيض البخيتان ط ١ مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

الرمز الشامخ من رموز الكيان الإسلامي ، وبأسى ويحزن حين انهارت مئذنة المسجد الجامع بعودة «سدير» مسقط رأس الشاعر ، وكانت المئذنة كما يقول الشاعر «أعجوبة» فنية في ارتفاعها الشاهق ولونها الأبيض الناصع وشرفاتها الجميلة . ويرثي الشاعر هذه المئذنة رثاء فنيا صادقا بدافع من إيمانه بمكانتها في وجدان المسلمين ، والارتباط العاطفي الإيماني بشموخها الصاعد إلى العلا . . يصعد منها للسماوات نداء التوحيد والدعوة إلى الصلاة والفلاح ، ويربط الشاعر بين ذكرياته الخاصة في صباه بين أهله الكرام وبين حبه لهذه المئذنة وشغفه بها . وكأنها تلبست بها الحياة وأصبحت تشعر وتصغي لهمساته ونجواه وأشواقه : يقول الشاعر وهو في غمرة استدعائه لذكريات الليالي البيض في مسقط رأسه ، واستعادة ما كان في قرينته من ألفة وسكن ومودة بين قوم أماجد ، وأشاوس أكارم .

الذكر نجواهم ، الدمع شاهدهم

وشهقة الخوف في الأجواف إعصار

جباهم من سجود طال ، سمرتها

براقعة ، نورها بالنيل ثرار

وهذه السمات الإيمانية لقومه لها صلة عضوية بتجربة الشاعر في رثاء المئذنة حيث يقول بعد ذلك مفصحا عن لب التجربة :

هم شيدوا في سبيل الله مئذنة

بيضاء من حسنها الأبصار تحنار

ملفوفة مثل غصن البان سامقة

لكن عليها رجال العصر قد جاروا

باتت . . . ركاما وكانوا في صنيعهم

كأنما حشهم في هدمها ثار

ألقى الزمان عليها من كلاكه
واغتالها منه أسوار وأستار
فنام فيها هواها بعد ما عصفت
فيها المنى فاستفاقت وهي تنهار! (١)

ثالثاً: السفر إلى الماضي لبعث الحاضر وإحيائه:

إن محور التجربة في هذا البعد من أبعاد الرؤية الإسلامية هو الإحساس بالتصادم مع حركة الحياة المعاصرة، فيفزع الشاعر إلى الماضي، ويتجول في دروبه وزواياه، باحثاً عن المواقف المضيئة في مسيرة التاريخ ليعود بقبس منها إلى الحاضر الأسن . . لعله من لهوه يفيق، ومن عشرته ينهض . ومن عله يبرأ .

والسفر إلى الماضي لبعث الحاضر لا ينحصر داخل حدود الأحداث التاريخية ذات الإيقاع الحماسي مثل المعارك وغيرها، بل يتجاوز هذه الأحداث إلى التغلغل في صميم الحياة الإسلامية الناطقة بالوجه الحضاري للإسلام . ومن مظاهر الحياة الإسلامية في عصور الإسلام الأولى وجود بيت المال والقاضي العادل، وهما من دعائم الحرية والمساواة، والهدوء النفسي، والتوازن في منهج الحياة الشعورية، والحياة المادية .

يقول «محمد بنعمارة» من قصيدة «الرحيل تحت الأجنحة» وهي مصدرة بكلمة للمفكر الإسلامي «المهدي بن عبود» وهي «العبودية مقبولة للحق فقط» يقول الشاعر:

يسكنني وهج كتاب ما فرط في شيء

والبحر يصيد طيوراً زرقاء بكفي

(١) ديوان «أصداء وأنداء» د/ محمد بن سعد بن حسين ٣٨-٣٩ .

تنشر ألحاني

قف . . . إنني أسألك . . .

عن عودة حاكم بيت المال ومن يقضي بين الناس^(١)

وتتسع دروب السفر ليصبح ذلك الماضي هو الزمن / الحلم لأنه صورة
حضارية تشكلت في إطارها ملامح الشخصية الإسلامية .

وقصيدة «الزمن الذي هو في انتظارك» تجسد هذا البعد من أبعاد التعامل مع
التراث . والقصيدة ليست حكاية تاريخية ، ولكنها إشراقات من أقباس
التوهج الإسلامي في قمة عطائه وهو يهديها إلى روح الصحافي الشهيد
«مصطفى رمضان» وهو من أصوات الحركة الإسلامية المعاصرة .

بقائي في نزيف الغائبين . . يمر بين الصحو في صوتي الغريب . .

عليك أن تختار دائرة الهوامش . . أو تكون مع الكتاب . . .

فتشعل الزمن الذي هو في انتظارك بالقصائد والتحول . . .

وليعد في صوت صاحبك المشرد وعده

تخضر أزمتي . . ويولد في غناء المنشدين سهيل أفراس الصحابة

عندما تتداخل الطعنات والساحات تنسج راية . . .

ينشق فيها من دم الشهداء نهر جارف

فتبارك الله الذي خلق البداية والنشيد^(٢)

وتجمع القصيدة بين إسلامية المضمون وحدائث الشكل الفني . . . فهي

قصيدة مدورة ، والتدوير من أحدث التطورات في شكل القصيدة ، العربية

(١) ديوان «نشيد الغرباء» محمد بنعمارة ص ٥٧ .

(٢) الديوان ص ٥٩ - ٦٠ .

الحديثة . . والقصيدة هنا دفقة شعورية واحدة، والتفعيلات فيها تتوالت . .
كالموجات الهادرة، كل موجة تلاحق الأخرى . . . وكأن تواصل الإيقاع
يجسد الرغبة في تواصل الزمن، وتواصل الحركة في سبيل التعايش مع هذا
الزمن الذي ينتظرنا، وبرغم أن هذا الزمن قد تحقق في الماضي المشرق، فإننا
نتطلع إلى بعثه وإعادته في صيغة حاضرة ومستقبلية، بإيقاعه منسجم مع
إيقاع الصوت الإسلامي . . . وهو إيقاع الثبات والتوازن والشمولية والربانية
والوحدانية والواقعية والإيجابية .

والمعجم الشعري هنا يستمد اللبنة المكونة لمعمار التجربة من جو الحضارة
الإسلامية ولنتأمل هذه التراكيب الناطقة بالمعجم الإسلامي وما تنشره من
ظلال وإيحاءات مشعة «صهيل أفراس الصحابة - دم الشهداء - فتبارك الله
الذي خلق البداية والنشيد» .

وفي قصيدة «بين جناحيها يخضر نشيدي» لا يعود بنا الشاعر إلى الماضي/
الحلم . . ولكنه يعود بالماضي على جناح رؤيته الإسلامية . . إلى مفازة زمننا
الرديء . . ويحاول إنقاذ ذلك الزمن ليعانق مع زمن البطولات
الإسلامية . . . زمن الهوية الحقيقية . . ولكن هيهات . . فالعصور الحاضرة
كهوف ينطفئ في عتمتها كل توهج إيماني صادق !!

يقول: أقرأ الفاتحة

وانطلق أيها المهر باسم الكتاب . . .

ستلقى على باب تبريز كل الصحابة ينتظرون . . .

تصلون في الساحة الصبح . . .

ذاك الصبي الذي مر يوماً يشاورهم . . .

وينظم صف الرماة وصف الخيول . . .

ويستخلف ابن الوليد . . .

يقول :

تركت الكتاب لكم . . .

لا تحيب العصور الكهوف !!

والشاعر لا يهرب من الواقع ، وهو يتشبث بالماضي . . مثل الرومانسيين في تجاربهم . . ، فبعث الماضي في الحاضر إنقاذاً لذلك الحاضر من الهوة التي تردى فيها . والزمن اللغوي يفصح عن رؤية الشاعر الإيجابية المستقبلية . فالجمل الشعرية حركية حيث صيغت في قالب الجملة الفعلية/ الأحداث الواقعة في زمن ، والأفعال تقع في دائرة الحاضر والمستقبل فهي أفعال في صيغة الأمر والمضارع . . وتتوالى على هذا النسق المتتابع بلا فواصل اقرأ - انطلق - ستلقي . . . ينتظرون - تصلون - يشاورهم - ينظم - يستخلف - يقول .

وهذا التدفق الشعوري . . . والتواصل الزمني . . والامتزاج بين الأزمنة . . . السائر نحو الغاية الرشيدة . . لا تتواصل حركته ولا تقطف ثمرته . . ويعبر الشاعر عن هذه الصدمة الشعورية - بوضع الزمن في صيغة النفي . . . وبتصوير العصور الجديدة بأنها كهوف . . . كل شيء فيها معتم : يقول مصوراً موقف العصر الحاضر من حركة المد الإسلامي .

«لا تحيب العصور الكهوف»!!!

والصياغة الفنية في هذه النماذج . . وبخاصة في شعر «محمد بنعمارة» مستمدة من انفعال الشاعر بأسلوب القرآن الكريم ، وبمعايشته الصادقة للواقع الإسلامي في أزهى عصوره . ولنتأمل مرة أخرى هذه التراكيب الشعرية التي تعد كائنات متحركة داخل حياة النص الشعري تكسبه الحيوية الشعورية والخصوبة الفنية «اقرأ الفاتحة - باسم الكتاب - كل الصحابة ينتظرون - تصلون في الساحة الصبح - ينظم صف الرماة صف الخيول - يستخلف ابن الوليد -

تركت الكتاب لكم . وذكرى «كربلاء» يسافر إليها الشاعر عبر تذكره ، وقد أداه اصطدامه بالزمن المعاصر إلى فقد ذاكرته . . لكنه لم يزل «كربلاء» .
يقول من قصيدته : «الطريق إليك حزن أو جهاد» . . ويقدم للقصيدة بكلمة للشاعر : محمد إقبال .

«اقرأ القرآن كما لو أنزل عليك»

يارفيق الاتجاه فقدت ذاكرتي

لكنني ما زلت أذكر كربلاء

إذا هنا وقفت خيول الفاتحين

قبل بداية الأشياء نجتاز السواحل كالسحاب^(١)

والسفر إلى الماضي في تجربة «محمد علي الرباوي» يصبغ بلون ناثر يدفع بالمسافر إلى اقتحام أسوار الحزن والضعف . . ، وهو في اقتحامه لهذه الأسوار ينبض قلبه بقول الحق سبحانه : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال : ٦٠) . وأحاسيسه وأفكاره تمتزج بقول المصطفى - عليه الصلاة والسلام - «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . . . وفي كل خير» يقول : الرباوي . . .

عامك هذا . . عام الحزن فلا تحزن

هذا الأرقم يخترق الأسوار . . .

ويكتسح الأنهار . . .

ويرسم وجهها في شكل القوس الغاضب

(١) المصدر السابق ص ٣٨ .

يدعوك أن اركب متن حصانك

جرّد إيمانك . . .

في وجه الأدغال الحمراء . . الصفراء . . السوداء . . ولا تحزن

خذ رمحك . . . واتل علينا سفرًا . . .

من آيات القصواء على الصحراء . . .

هي الآن تجوب البحر . . . محيطًا وخليجًا

خذ رمحك . . هديّ أعصابك

تشتعل الأرض أمامك

اشتعل الآن ولا تسكن

إن الماء الشجاج رهيب لا يتعفن^(١)

ومعطيات التراث الإسلامي تمثل الخيوط الرئيسة لنسيج التجربة الشعرية التي يخوضها «الرباوي» ويتأزر المبنى مع المعنى في تكوين الصورة الفنية لهذا النسيج الشعري وفي إكسابه إيحاء عابقا بالحس الإسلامي المتفرد .

فعام الحزن : له في تاريخ الإسلام إيحاء بارز يجسد حرص المصطفى - صلى الله عليه وسلم - على مقاومة كل دواعي الضعف ، وكل التيارات المضادة .

وموت أبي طالب : وموت خديجة لم يضعفا من عزيمة الصادق الأمين .

والأرقم : رمز القوة المؤمنة التي تكاتف وتآخت ، وهدمت حصون الشرك ، واكتسحت أنهار المغريات المادية .

والقوس الغاضب : تشكيل فني ومعادل موضوعي لصورة الوجه الإسلامي وهو يواجه فلول المشركين .

(١) ديوان «البيعة المشتعلة» ص ٦-٧ محمد الرباوي .

والقصواء: ناقة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - . . توحى بالقوة المحفوفة
بالعناية الإلهية، فالنصر الرباني لا يستحقه الكسالى الخامدون، ولكنه يغمر
المدافعين عن عقيدتهم المنذفين في عطاء خصب كالماء الثجاج . . إنهم
يشتعلون إيماناً وقوة وعطاء يكسبهم عزة الأولى، وسعادة الآخرة .

والبنية اللغوية تعانق الإحساس بالزمن . . مثلما وجدنا في تجربة «محمد
بنعمارة» فالأفعال تتوالى، وتتوغل في مسار الحاضر . . وتلج آفاق
المستقبل . . وهي تسبح في أضواء الماضي المتألق بالأمجاد . والسفر إلى
الماضي يكون في بعض التجارب الشعرية بحثاً عن قيمة سلوكية وحالة
شعورية صبغها الإسلام بصبغته النفسية المتوازنة الثابتة الواقعية الإيجابية
الموشاة بعبق التوحيد وندى الربوبية الذي يسمو بالنفس البشرية فوق الرغبات
والأهواء الذاتية .

ومن هذه الرحلات الشعرية . . رحلة الشاعر «عمر أبي ريشة» إلى خالد
ابن الوليد سيف الله المسلول، ورصده لموقفه البطولي حين نحاه الفاروق عمر
عن قيادة الجيش وهو في قمة انتصاره، ويذعن خالد، ويعود جندياً يقاتل
لإعلاء كلمة الحق . إن هذا القبس التاريخي، وهذا الموقف النفسي يصوغه
«أبو ريشة»، ويصوره بريشته الدقيقة في أسلوب قصصي، وعبارة مجنحة،
وخيال محلوق، وشعور صادق، ورؤية إسلامية ناضجة موشاة بالمعجم
الإسلامي شكلاً ومضموناً يقول:

صدق العهد فالفتوح توالى

وصدى خالد بكل مكان

أينما حل فالماذن ترجيـ

ع أذان المهيمن الديان

وبدا الروم في ضلال مناهم
شوكة في معاقد الأجفان
فأتاهم بحفنة من رجال
عندها المجد والردي سيان
ورماهم بها وماهي إلا
جولة فالتراب أحمر قان
وضلوع اليرموك تجري نعوشا
حاملات هوامد الأبدان
هليل المؤمنون واهتزت البش
رى تروي حناجر الركبان
فإذا خالد على كل جفن
خطرات من الطيوف الحسان
سمر العيد في الليالي الكسالى
وهوى الصيد في الزحام العوان
فتنة خيف أن يشيع بها الزهـ
و فتلوى بالقائد الفتان
فنحاه الفاروق فانضم للجنـ
د فخورا بعزة الإذعان
وتراءى أبو عبيدة في الفيـ
حاء يحمي قيادة الفرسان

وفتى النبل خالد يقحم الأسـ

سوار في نخبة من الفتيان

لم تزعزع من عزمه إمرة الفسا

روق بل فجرتة فيض تفاني

وإذا راضت العقيدة قلباً

فمن الصعب أن يكون أناني^(١)

ورغم صدق التجربة الشعرية السابقة . . فإن الزمن اللغوي مقيد بصيغة الماضي . . مما يوحي بأن الشاعر مازال أسير الرواية التاريخية . . ولم يجعل من حسه التاريخي مرآة تعكس ما في الواقع من مشاهد مرفوضة، وما في الماضي من إشراقة الرؤى التي تضيء ذلك الواقع، ووصف الصحابة المجاهدين بأنهم «حفنة» لا يوحي بعظمة هؤلاء الرجال، الأشداء على الكفار الرحماء بينهم، ووصفهم بأنهم «عندهم المجد والردى سيان» لا يعطي الصورة الحقيقية لهؤلاء الرجال. فالموت في سبيل الله شهادة ومجد خالد، فلا تضاد بين المجد والردى فكلاهما ثمرة للأخر، والتعبير بقوله «أناني» غير مناسب لأن التعبير فيه سوقية وابتذال وبعد عن اللغة الشعرية الموحية المحلقة .

ويأتى «السفر إلى الماضي» في تجارب بعض الشعراء ممتزجاً بعاطفة التحسر على ذلك الماضي المجيد، ورتاء الواقع المأزوم المهزوم. حيث دب الضعف في كيان العالم الإسلامي، واحتدم الصراع بين الغرب والشرق وخاصة العالم الإسلامي، واستولى الصهاينة على المقدسات الإسلامية في فلسطين .

* ويصور ذلك الشاعر «محمد بن علي السنوسي» في عاطفة صادقة ولغة واضحة مؤثرة مازجين الماضي الجليل والواقع الجريح إذ يقول^(٢) .

(١) ديوان «عمر أبو ريشة» ص ٥٤٥-٥٤٨ المجلد الأول.

(٢) انظر الأعمال الكاملة لمحمد بن علي السنوسي من ص ٤٨٠-٤٨٢ .

بات قلبي يحن شوقاً إلى الما
ضى وروحي تئن حزناً لحاضر
أنا من أمة رعى الله ماضي—
سها لقد كان جوهراً من جواهر
كان منها محمد وأبو بك—
ر وعثمان والزبير وعامر
وعلى وطلحة والمثنى
وأبو حفص والشهيد ابن ياسر
نفر كالنجوم إن أظلم اللي—
ل أضاءت بهم سماء المفاخر
كيف أضحي أحفادهم يا فلسطين—
من صغاراً لا يأنفون الصغائر؟؟!!
بردت في دمائهم نخوة العز
وماتت تلك السجايا الحرائر!!

* * *

* والسفر إلى الماضي يتخذ مساراً آخر في تجربة «عبد الله بن سليم الرشيد» حيث لا يستدعى الشاعر صورة الماضي المجيد، ولا يسافر إلى زمن البطولات، ولكنه يرصد لحظات الضعف ومسببات الهزيمة والانكسار في تاريخ الأمة وفي حاضرها. ومن هذه المسببات الفتن الشعواء، وتناحر القراء، والصراع بين المسلمين، وإحداث الفرقة والفتن، ومنها الصراع الذي دار بين علي بن أبي طالب وبين المناوئين له في معركة «صفين» وموقعة

«الجمال» وما تلاهما من فرقة وفتن أثرت في مسيرة الأمة الإسلامية يقول
«عبد الله» في مطلع قصيدته «مقاطع إلى الجرح الأزلي»^(١).

الليل من حولنا أصداً عربدة

وفي النهار على أرجوحة الكسل

يالهفة الحر في دهر يضام به

لعالم لم تُدَنَسْه يد الدَّخَل

حتم «صفين» بالغارات تنهكنا

فتنتشى في دمانا وقعة الجمل

مواجع يمتطيها ليل غفلتنا

ثما رهن تدلَّتْ في المدى الشمل

. . . والسفر إلى الماضي في بعض التجارب الشعرية يصبغ بلون الهزيمة،
حيث لا تتسم هذه التجارب بالرؤية الشمولية، بل تحصر نفسها في دائرة
«البعد السياسي».

ومن هذه التجارب «تجربة الشاعر» «محمد أبو دومة» في ديوانه «السفر في
أنهار الظمأ» وقصيدة «أيام الشورى الثلاثة» تترجم هذه الرؤية، إنه يبدأ
قصيدته برصد لحظة مأساوية كادت تعصف بالدولة الإسلامية في ذلك الوقت
وهي «اغتيال أمير المؤمنين» «عمر بن الخطاب».

مات ابن الخطاب

هأنذا في كل حجيج أنعاه لكم

ثم يشكل الشاعر للمأساة صوراً فنية تجسد مظاهر الألم النفسي والمادي

(١) ديوان «خاتمة اليروق» ص ١٢٨ عبد الله بن سليم الرشيد/ مطبوعات النادي الأدبي بالرياض
١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

الذى سرى في الكيان الإسلامى آنذاك . وما زال الألم يستشرى والداء يستفحل .

وكانت نكسة ٥ يونيو . . . هى وجه المأساة ، وموت عمر هو القناع الذى صور الشاعر من خلاله كل مشاهد فزعه وخوفه . . . وصدمة . ، وأضاء الشاعر تجربته بكثير من الإضاءات التى كشفت غموض الرمز . . ، وحددت الرؤية . . . وغلقت أمامها منافذ التفتح والامتداد ؛ إنه يجعل التاريخ فى دائرة «أطياف الذكرى» .

ويذكر صنعاء - وجبل الأكراد - ووطن المحنة ، ويسخر من مجلس الشورى الذى عينه «عمر» ويقول فى تهكم «فلتفق الشورى ، ويفقد أمله فى مواصلة المسيرة بعد موت «الرمز» المجسد فى «عمر» ، يعلن أن الجرح تسمم !!! والحزن يقوده إلى اليأس واللامبالاة والسلبية «وليامر فىنا يا أحباب من يأمر» .

ينادى الشاعر فى أسى وتوتر :

يا أهل الأمصار البكائين على أطياف الذكرى
أنكأ قدح الأمس إذا ما لامس ظفرى قشرته فيفور صديدا ودما
يحفر من أسوارك يا صنعاء إلى جبل «الأكراد» أخاديد لظى
تزكم أنفك يا وطن المحنة بدخان اللحم البشورى
فلتفق الشورى
وليامر فىنا يا أحباب من يأمر
فسواء بعد عمر . . . ما دام الجرح تسمم
لا فرق هنالك بين أطباء «اليونان»

وَحِـلَاقٍ مِّن تَدْمُـرٍ
الـرُومِ عـلَى الأَبـوابِ
وَحِوَا فِر خِيْلِهِم تَدْهَسُ وَجْهَكَ يَا وَطَنَ المِحْنَةِ
فَلتَفقُ الشُّورَى
فَلتَفقُ الشُّورَى وَيَفِضُ التَّطَوَّافُ^(١)

ومحدودية الرؤية في هذه التجربة يرجع إلى فداحة الأثر النفسى الذى أحدثته هزيمة يونيو عام ألف وتسعمائة وسبع وستين؛ في كيان الشاعر وفي رؤاه وأخيلته ومشاعره، إن الشعور بالإحباط قد أصاب الإنسان المسلم . . . والكيان العربى في الصميم، وكانت صدمة كبرى لكل المثقفين والمفكرين، ولكل شرائح المجتمع فى الوطن العربى والإسلامى كله.

والشاعر/ حسين على محمد لا يقع فريسة المأساة- مثلما وقع أبو دومة- ولا تنطفئ فى رؤاه نار الصراع بل يظل ممسكاً بالخيط . . . خيط الأمل والقوة والعزة، وهذا الخيط الذى يمسك به «حسين» يأخذ صيغة تراثية أيضاً، فهو يسافر إلى الماضى ويستمد من ذلك الماضى الموروث أدوات فنية ومعطيات أدائية يوظفها توظيفاً بارعاً . . . كما فعل فى قصيدته «الأميرة تنتظر» التى اتكأ فيها على الموروث التاريخى، ووظفه توظيفاً رمزياً بارعاً يمتزج فيه المعاصر بالموروث، والماضى بالحاضر، امتزاجاً فنياً رائعاً، وقد اختار الشاعر لحظة من أكثر لحظات موروثنا التاريخى إشراقاً ونصاعة لتكون هى محور البناء الفنى فى القصيدة، وهى معركة المنصورة التى حقق فيها الجيش المصرى الأيوبى المسلم بقيادة الملك الصالح «أيوب» ثم زوجته «شجرة الدر، وابنه توران شاه» من بعده نصراً حاسماً على الجيوش الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، حيث عادت هذه الجيوش تجر أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن تكبدت أفدح الخسائر، وبعد أن أسر قائدها لويس التاسع نفسه، وقد استغل الشاعر

(١) ديوان «السفر في أنهار الظلم» من ص [٢٦-٣٣] محمد أبو دومة.

المعطيات التراثية لهذه اللحظة بمهارة فنية واضحة ، واستطاع أن يوحد بينها وبين معطيات الواقع المعاصر في رؤية شعرية شديدة الشفافية والعمق والبراءة ، ولا يكتفى الشاعر بمعطيات هذه اللحظة فيرفدها بمعطيات تراثية أخرى تزيد من نصاعتها وإشراقها^(١) .

والمعطيات التراثية الأخرى التي أشار إليها د/ علي عشري زايد . . . ، ولم يفصل القول فيها . . . يتمثل في المعجم الشعري الذي يستمد «حسين علي محمد» لبناته من التراث الإسلامي مثل الباحث عن نور الفجر ، مئذنة الفجر أراها تصرخ في أفئدة الجمع صموداً ، هذا وعد الله لنا - لم يكتب في اللوح الباقي للأبناء البررة غير النصر .

وتتمثل كذلك في استدعاء الشاعر للشخصيات الإسلامية مثل «سعد بن أبي وقاص» و «عمر بن الخطاب» . . . فهم يشرقون في الظلمة أقمارا . . . يقول الشاعر :

هذى شجر الدر . . فكم يشتاق الصالح للضمة . . .

هذه قطع الليل القادم من دمياط . . العابر لجح المتوسط لم ترهنا . . .

. . لم تبدل في النقع وكانت حين التحم الجيشان كسيدات يحميننا من
أسياف الأعداء . .

. . . وكانت تلثم هذا الجمع المتشترق في الليل . . .

الباحث عن نور الفجر وأرض الباحة تمتلئ بخيل تصهل وبصلبان ونواقيس ،
ومئذنة الفجر .

أراها تصرخ في أفئدة الجمع صعوداً ،

يشرق سعد وابن الخطاب الليلة في الظلمة أقمارا

(١) انظر المقدمة التي كتبها د/ علي عشري زايد لديوان «شجرة الحلم» شعر حسين علي محمد .

هذا وعد الله لنا . . .

لم يكتب فى اللوح الباقي للأبناء البررة غير النصر^(١).

ولكاتب هذه الدراسة كثير من التجارب الشعرية فى هذا المجال
ومنها «موقف أسماء» الحاسم ضد الحجاج انتصاراً لعبد الله بن الزبير؛
واستدعاء أسماء فى تجربة شعرية حديثة يعد سفيراً إلى زمن أسماء والعودة
بمعطيات الشخصية وأبعادها إلى زمننا أملاً فى العثور على هذا النموذج
الأعلى للمرأة المسلمة فى عصرنا الحديث .

أسماء . . . فى لب الأغصان نداء إباء
لم يصغ لسيف الحجاج الغارق فى بركان دماء
لم تهتز جذور الحقل أمام الإعصار الأموى
. المصـبـوـغ بأشـلاء ابن على
عينها اختزنت كل تجارب رحلتها لليوم الموعود
يا عبد الله . . . لا حاكم إلا الله
لا تعط السارق بسـتـانك
لا تترك فى وجه الإعصار الأهوج أغصانك
صغ من أوتار هداك رماحاً تبنى من يخنق ألحانك
واجعل من نبض يقينك صاعقة
تنقض على من يغتال اللحظة إيمانك^(٢).

(١) ديوان شجرة الخلم ص [٢١] حسين على محمد .

(٢) انظر نص القصيدة كاملة فى ديوان «المسافر فى سنبلات الزمن» .

والسفر إلى الماضي يجسد الحس التاريخي الذي يتزود به الشاعر . . في
أسمى مفهوم له ، والذي لا يتضمن إدراك ماضي الماضي فحسب . بل إدراك
حاضره كذلك ، فهو حس بما وراء الزمن ، وبالزمن ، وبهما معاً
متحدين . . (١) .

وهذا الحس التاريخي يتكئ على جانب خصب من جوانب التراث
المضيئة ، فأهم وأغنى ما يستطيعه التراث بالنسبة إلى شعرنا الحديث . . . ليس
أن يصبح واجهة منطوقة للعمل الفني تضاف إليه من الخارج رغبة في التديل
على ثقافة الشاعر وإمامه بالتيارات العصرية في الأدب والفن ، بل أن يحسّه
الشاعر ، ويؤمن به بحيث يغدو جزءاً من صميم تجربته الشعرية ، ووعيراً من
الماضي يضافحك حين تطالع القصيدة فلا تدري من أين مأتاه وذلك لما يمكن
تسميته «التفكير بالتراث» (٢) .

ومن صفحات التراث . . . ، من عصر الفتوحات الإسلامية تنبثق لحظات
المجد والعزة الإيمانية ، ومن هذه الأصداء المشعة ينبض الفتوة الإسلامية نسمع
صوت القائد المسلم الشاب «محمد بن القاسم الثقفي» الذي قاد الفتوحات
الإسلامية في بلاد «الهند والسند» في عصر «الوليد بن عبد الملك» في نهاية
القرن الأول الهجري ؛ وقد صور كاتب هذه الدراسة مأساة هذا القائد . . .
ومأساة الواقع الإسلامي المعاصر . . . في قصيدة «مشاهد من ملحمة العشق
والبطولة» ، فعلى لسان القائد المسلم تأتي هذه الاستدعاءات التاريخية الناطقة
بأبعاد الرؤية الإسلامية وموحياتها ، وهي أقرب إلى «الدراما الشعرية»
وصوت ابن القاسم الثقفي . . . وهو الواقع المسافر إلى الماضي . . . للعودة
بالصورة المثلى للقائد المسلم . . . والإعلان عن حضورها في حركة الواقع ،
يقول ابن القاسم في مفتتح هذه التجربة التي تكونت من سبعة مشاهد ترصد

(١) انظر كتاب «الرمز والرمزية في الشعر المعاصر» ص [٣٢١] د/ محمد فتوح أحمد .

(٢) المصدر السابق ص [٣٢٥] .

الشخصية من جميع جوانبها وهي (افتتاحية - التكوين - التجربة - الاقتحام - الحقيقة - الصراع - أنا) .

من ثدى السيف تغذيتُ
وعلى صدر أمية غنيت
وبقلب الحجاج دخلت
ونزعت النقط السود السارقة الأضواء وسافرت
في شرياني كلمات المصحف تهدر نهراً من نار وضياء

* * *

والهند بذاكرتي والسند أساطير وحقائق
ويعيني سيفوف وبيارق
والله - محمد - ساريتان بأعلى عليين
في ظلها رحت أقاوم عسف الزمن المتموج في سنوات العمر
أستنبت من صخر الحلم زهور الآتي المخضر
أنطق كل الأحجار - الآلهة - بأقدس ما قال الشعر
في ظلهما احترق السيف - الطغيان . وجف الرمح الكفر

وفي قصيدة «مدائن الفجر»^(١) التي يهديها كاتب هذه السطور إلى الوطن الإسلامي الكبير وهو على أبواب الفجر الجديد، يسافر الشاعر إلى الماضي رافضاً ما آل إليه واقع المسلمين في العصر الحديث من ضعف وتشتت وانحلال . . . ، وهذا الضعف تجسده هذه الصور الإيحائية .

(١) نشرت القصيدة كاملة بجريدة «المسلمون» عام ١٤٠٨ هـ، ونشرت بمجلة اللواء الإسلامي عام ١٤٠٨ هـ.

وفي انكسار المرايا حطمت سفني
وفي انحراف الزوايا غاب إقدامي
وضعت يا وطنًا ضاعت هويته
والأرض تنبش عن أشلاء أقوام
هذا لسانك مسجون تقيده
مواقف الوهم من زيف وإحجام
وذي خطاك بلا درب يصاحبها
وذي رواك بلا لون وأعلام
وكم سفتك سلاف الذر طائفة
من المجانين عاشوا مثل أنعام
في حماة الطين لا يحلو لهم نغم
سوى انفجار الرزايا فوق أيتام
ودار في فلك الشيطان موكبهم
يسقى بفكر لقيط النبع هدام
لمركب الشمس طاروا وامتطوا لهبا
وأمطروك بأحققاد وأثام
وشوهت أوجه الأطفال يا وطني
والموت طارد أطفالاً بأرحام
ويرى كاتب القصيدة أن خلاص المجتمع المسلم من هذا الهوان، يكمن في

استعادة الزمن المشرق بالبطولات . ويصوغ هذه الرؤية في قالب الاستفهام
المجسد لحيرته وأمانيه ، يقول :

فهل نعود - كما كنا - بني رحم
نقضي على هاتف النفس قَسَّام
نعود من غربة للتيه تطعمنا
ونرقب الفجر يأتي بعد إظلام
ونحمل السيف في كف مُوحِّدة
تذود عن وطن في فك إجرام
ترنو لبدر وفجر الحق في أحد
تهنؤوا إلى «أسد» للشرك قسام
فمن هناك تعود الآن قافلتني
وتبصر الفجر في آفاق إسلامي
تعود في ثبح الإيمان سابحة
والموج حول ضياها مثل أعلام
ملائي حدائقها بالعشق يسكننا
وفيه نسكن قومًا بعد أقوام

والبنية اللغوية تجسد الإحساس بالزمن وتؤكد على الوجود الحاضر في
التجربة السابقة . . . فعلى الرغم من أن الشاعر يسافر إلى الماضي فإن الأفعال
المضارعة تسيطر على الزمن اللغوي في هذه القصيدة ، ولنتأمل الجزء
الأخير . . . لنجد الأفعال كلها مضارعة تعانق الحاضر . . . وتقتحم غياهب
المستقبل . . . وهي مفعمة بعبق الماضي وإشراقاته . . . والأفعال تتوالى على

هذا النسق (نعود - نقضي - تطعمنا - نرقب - يأتي - نحمل - تزدود - ترنو - تهفو - تعود - يسكننا - نسكن).

ويلاحظ أن الأفعال كلها لم تقترن بأدوات تبعدها عن دائرة التحقق القريب، وواقعية الحضور الحركي للقضاء على صورة الواقع الآسن، فليس هناك السين أو سوف، وليست هناك أدوات التمني أو الترجي، أو أدوات الطلب. وإنما الأفعال بمادتها اللغوية تفسر حركة الصراع الدائر... وتنتهي الأفعال بمادة السكون. وهو ليس سكون الخمود والدعة، وإنما السكون القائم على الطمأنينة والثقة والثبات والوصول إلى الغاية المنشودة، إلى مدائن الفجر.

رابعاً: الرؤية الإسلامية ودور الطبيعة في تشكيل التجارب الشعرية؛

الطبيعة كتاب مفتوح نقرأ فيه أسرار الكون، ونستشف منه جمال الحياة، وللطبيعة دور مؤثر في تشكيل التجارب الشعرية. ولكن توظيف الطبيعة في الرؤية الإسلامية يختلف عن توظيفها في التجارب الفنية المتحررة من التقيد بأي مذهب أو التجارب المنطلقة من خصائص مذهب أدبي. فالكلاسيكيون تمثل الطبيعة في تجاربهم مصدراً خارجياً، حيث يكتفون بمرحلة الإشراف عليها من الخارج وصفاً أو استخداماً في تشكيل الصورة أو بناء التشبيه والاستعارة. والرومانسيون يتحدون في كثير من تجاربهم بالطبيعة، ويوظفونها توظيفاً نفسياً، فهي تمثل لهم مرآة لنفوسهم ومعادلاً موضوعياً لمشاعرهم، وهم يصورون الطبيعة انطلاقاً من رؤيتهم النفسية للحياة ويصل بهم فناؤهم في الطبيعة إلى درجة التقديس تأثراً بالفكر الوثني القديم.

وهذا الاندماج بالطبيعة عند الرومانتيكيين يظل في دائرة إشراك الطبيعة ولا ينفى مشاهدتها ومراثيها مثلما نجد عند الرمزيين... فالشاعر الرمزي يحاول بعث الحياة في أوصال الطبيعة بما يسبغه عليها من خصائص إنسانية، كما

يحاول تفتيت إطارها المادي وعلاقتها الحسية، كي لا تقف عند حدود الدلالة الوضعية، وهو لا يلحظ الثنائية بين عالم الأشياء، وعالم الذات، فإدراكه للأشياء هو في الوقت ذاته إدراك لأسرار روحه وأشواقها^(١).

أما الطبيعة في منظور التصور الإسلامي فهي مسرح التأملات، ومصدر الجمال الكوني، وترجمان القدرة الإلهية، ومنبع السعادة الإنسانية. وللطبيعة الكونية حظ كبير من التقدير الإلهي في سر جمال هذا الكون، وقد سخرت لإسعاد الإنسان. وقد أقسم الحق سبحانه بمفردات هذه الطبيعة المرئية كالشمس والقمر والنجوم، وأقسم بمفرداتها الزمنية كالفجر... والضحى، والعصر، والليل. وقد سخر الحق سبحانه البحر والأنهار للإنسان، وكذلك سخر الشمس والقمر والنجوم. وجعل الليل والنهار آيتين من آياته البينات، وسميت سور كثيرة من سور القرآن الكريم ببعض ظواهر الطبيعة الكونية. والنباتية والحية والجمادة. والطبيعة الحية لها في التصور الإسلامي منظور خاص، ولذلك سميت بعض سور القرآن بأسماء الحيوانات مثل سورة البقرة، وسورة الأنعام وسورة النمل وسورة النحل وسورة العنكبوت^(٢)، وانطلاقاً من هذا التصور الإسلامي جاء تعامل الشعراء وهم يخوضون غمار الرؤية الإسلامية مع الطبيعة، فهي لا تمثل مصدراً خارجياً، ولا تمثل حالة نفسية كائية، ولا رمزا واقعياً منفراً، وإنما تعد الطبيعة في الرؤية الإسلامية رافداً أساسياً في حقل التجربة الشعرية، وتعد نسيجاً فنياً يدفع بالتجربة الشعرية خارج دائرة الرصد المباشر/ والتقريرية النثرية، والنبرة الوعظية وتعطي للتجربة مذاقاً تأملياً إيمانياً، وتدفع بها إلى رحاب الشمولية، بعيداً عن التقوقع داخل أسوار الذات.

(١) انظر: تشكيل الرمز ومصادره في الشعر العربي المعاصر وهو مبحث في كتاب «الرمز والرمزية في الشعر المعاصر» د/ محمد فتوح أحمد ص ٣٠٤.

(٢) وانظر: مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم للدكتور/ أحمد محمد حنطور/ مطبعة وهبة حسان، القاهرة، ١٩٩٠م.

وفي سورة إبراهيم . . . نقرأ هذه الآيات البيّنات التي تفصح عن ثمرة التأمل في ظواهر الكون، وكائناته، والثمرة هي الإيمان بالحق سبحانه والوصول إلى التوازن النفسي، والبعد عن ظلم النفس وظلم الغير، والنجاة من إغراءات الكفر، والأعيب الباطل، ولكن هيهات!! فالإنسان ظلوم كفار . . . قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٣).

ويحفل الشعر المعاصر بتجارب عديدة يتشكل منها هذا الاتجاه ومن هذه التجارب .

(أ) تجربة «عبد العليم القيانى»، هي ديوان «لله وللرسول»:

وانطلاقاً من الرؤية الإسلامية، واتكاء على دور الطبيعة في تشكيل هذه الرؤية لمكونات الخطاب الشعري . . . يكتب الشاعر عبد العليم القيانى ديواناً كاملاً عنوانه «لله وللرسول»، وهو يموج بالرؤية الإسلامية، ونجدته يبدأ الديوان بمقدمة ينوه فيها بدور الدين في الحياة . . . يقول:

إن الشعور الدينى شعور عميق متأصل فى الإنسان، فقد لازم الإنسانية منذ نشأ الوعى والإدراك فيها، فكان أول مظهر متكامل من مظاهر تفكيرها فيما وراء الطبيعة . وقد يختلف هذا الشعور باختلاف المكان والزمان والحضارة اختلافاً نسبياً نظراً لتنوعه، ولكنه ينتهى دائماً بالإنسان إلى التسليم والوقوف فى خشية أو فى حيرة أمام هذه القوة التى قام بسرّها هذا الوجود، ومن ثم تنتهى هذه الوقفة إلى الإيمان بها وبسيطرتها^(١).

(١) ديوان لله وللرسول، عبد العليم القيانى ص ٥ .

وأمام مشهد الغروب يقف عبد العليم القيانى متأملاً لحظة الغروب في الصحراء، ويرسم لوحة إيمانية . . يصل من خلال تأملها إلى استجلاء معالم قدرة الله في الكون . وقد بنى الشاعر معجمه الشعري من كائنات الطبيعة السماوية والنباتية وأقام على دعائم هذا المعجم أركان رؤيته الشعرية : يقول من قصيدته «الغروب في الصحراء» .

الغروب المهيب يحنو على الأف

سق ويفضي بروعة الصحراء

ويحيل الأصداء نفحة عطر

من عبير الحقيقة الغراء

فإذا الأنجم الوضاء شموع

تتلأأ على رحاب المساء

وإذا النخل أحرف من صلاة

تسامى في نشوة ورجاء

والغمام الشفيف ينساب سرا

عبقريا من وحي رب السماء

وإذا الكون معبد يتراءى

فيه سر الحياة والأحياء^(١)

والخيال الشعري لدى الشاعر يستمد عناصره من مفردات الطبيعة ممزوجة بالمعجم الإسلامى ، والألفاظ نفسها مستوحاة من روح الإسلام وعبق الإيمان . وتأمل هذه الألفاظ والتراكيب «المهيب - يفضي - نفحة العطر - عبير

(١) المصدر السابق، ص ١٦ .

الحقيقة الغراء - رحاب المساء - وحي رب السماء» وحاول أن تقترب من موحيات هذه الصور الشعرية «الأنجم الوضاء - شموع تتلألأ - على رحاب المساء - النخل أحرف من صلاة - الغمام الشفيف ينساب سرا عبقريا - الكون معبد يتراءى فيه سر الحياة والأحياء - الوجود نعمة حب - دعوة حامت وطافت بالقبة الزرقاء» .

إن هذه الخيالات بما تشعه في نفوسنا من موحيات ومعطيات إيمانية تعيدنا إلى السباحة الإيمانية في محيط النص القرآني العظيم ﴿ تَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّعَّةُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الإسراء : ٤٤) .

وقد وظف الشاعر مظاهر الطبيعة الكونية فذكر تسعة مظاهر سرت في جسم القصيد سريات الدم في العروق وهي «الغروب ، الأفق ، الصحراء ، الأنجم ، المساء ، النخل ، الغمام ، القبة الزرقاء ، الليل» ووقفه الشاعر أمام الغروب - ووقفه إيمانية تأملية .

وإذا قارنا هذا الموقف بموقف أبي ماضي في قصيدته «المساء» أو موقف مطران في قصيدة «المساء» وموقف ناجي في قصيدته «خواطر الغروب» نقف على تفرد الشاعر بالرؤية الإسلامية النابعة من الوجدان الإيماني ، فأبو ماضي تجربته تجسد حيرته وقلقه ، وعدم اهتدائه إلى سر هذا الوجود الكبير ، ومطران في تجربته أمام المساء متشائم يرى الشمس تسقط في مآتم الغروب . ويرى الكون يمشي في جنازة الأضواء ، وناجي في خواطر الغروب هارب خائف قلق وحزين على فراق الشمس فقد خلفت ليل الشك الأبدي والظلمة الخرساء^(١) ، ولكاتب هذه السطور قصيدة بعنوان «هروب» تصف الكون لحظة

(١) انظر هذه التجارب في الدواوين الآتية . ديوان «الجداول لإيليا أبي ماضي ص ٥٦ - ٦٣ ، ديوان إبراهيم ناجي «المجموعة الكاملة ص ١٠٤» و«راء الغمام» . وديوان «خليل مطران» .

الغروب وهي تنطلق من إحساس بالفناء . فالغروب فناء للضوء، وفناء
للشمس وهو موقف رومانسي يتفق مع رؤية ناجي الهروبية، ويقترّب من
رؤية أبي ماضي التأملية، ويمتزج برؤية مطران النفسية للوحة المساء .

وقسفت والنفس في هروب

والشمس في محنة الغروب

أسائل الضوء أين غابت

عني شموع الهوى الطروب

وأسأل الليل كيف تاهت

خطاي في عتمة الدروب

وأين ما شاده خيالي

في قلب وادي المنى الجديب

فكلها كلها تهاوت

وبعثرت في دجى المغيب

كالشمس لما اختفى ضياها

سالت دماها على السهوب

ونحن . . ما نحن . . غير طيف

يلوح في غفوة الهروب

وكل شيء كمثل نفسي

كالشمس في محنة الغروب^(١)

(١) ديوان «الحلم والسفر والتحول» ص ٨٩ للمؤلف .

وهذه الرؤى الشعرية لمشهد الغروب تظل بمنأى عن رؤية عبد العليم القباني، فهو يذوب في مشاهد الغروب والوجود إيماناً وحبا وصفاء وإشراقا، وينأى عن الكآبة والقلق والوحشة، وجنازة الأضواء، وحيرة الوجود، ومحنة الغروب، وليل الشك، والظلمة الخرساء.

وفي قصيدة «مالك الملك» يسبح الشاعر في مشاهد الكون، ويستجلي معالم القدرة الإلهية وتختلف التجربة الشعرية هنا في صيغتها الفنية عن التجربة في القصيدة السابقة لأن التجربة هنا خطابها الشعري جاء رسدا مباشرا لمظاهر الجمال الكوني، وإفصاح هذه المظاهر عن قدرة الخالق جل وعلا، وتمثل هذه المظاهر الكونية في عالم الطبيعة المتضادة، والضدية هنا ليست شاهدا على التناقض. بل تعد ترجمة لقدرة الخالق في كونه، وأن كل شيء في هذا الوجود له وظيفة في توازن الكون، فالشاعر يذكر هذه الثنائيات، الشمس/ الماء، النجوم/ الثنائيات، الجبال/ التلال، الربا، المروج/ الصحراء، البحار/ الجداول، العواصف/ النسيم، الصفير/ الخضراء، التمر/ الاستحياء. وكأن الشاعر استوحى هذا التقابل بين الأضداد الدال على قدرة الخالق من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام: ٩٥-٩٦).

يقول الشاعر:

الشمس في ملكوتها من أمره

والشمس حين يضمها الإمساء

وله النجوم السابحات على المدى

في كل ناحية لها لألاء

وله الدجى لا تستبين خلاله
إلا الدجى وله السنا الوضاء
وله الجبال الشامخات جلالة
الصاعدات بروجها السماء
وله التلال الصفرة رامضة الثرى
من وقدة وله الربا الخضراء
وله المروج توشحت بعطائه
ويسره تتوهج الصحراء
وله البحار المائجات تمردا
فكأنما صوب السماء سماء
وله الجداول لا تني رقراقة
وكأنما يغفوبها استحياء
وله العواصف تنحنى الدنيا لها
من خشية وله النسيم رخاء
وله الوجود وما تضم رحابه
من معجز لم تبده الأنبياء^(١)

وانفعال الشاعر وصدقته يجسده تكرار لام الملكية المتصلة بالضمير العائد على «الملك» «أكثر من عشر مرات» وصيغة الغائب هنا لا تعني أن الشاعر في غياب عن باري الكون، ولكن تصور استغراق الشاعر في تأملاته واستجلاء

(١) ديوان لله وللرسول ص ١٨-١٩ عبد العليم القباني .

آثار الله في ذلك الكون العظيم ، وكأنه يقيم الحججة الدامغة على من يقولون «ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» وهو في القصيدة نفسها يقول مشيراً إلى ذلك :

يا من له ما كان أو هو كائن

أو ما يكون وجلت الأسماء

وله الزمان خفيه وجلُّه

إن كان ثمت للزمان جلاء

وجمال الطبيعة في الرؤية الإسلامية ، من الدلائل الكونية على وجود الخالق كما أشرنا سابقاً فليست الطبيعة مقدسة إلى درجة التأليه في التصور الإسلامي ، وإنما هي من دلائل وجود الحق سبحانه ، فهو واجب الوجود ، وكثير من آيات الذكر الحكيم تنطق بذلك المعنى . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (آل عمران : ١٩٠).

وعبد العليم القباني في كثير من قصائده هذا الديوان يعزف على هذا الوتر الكوني ، وتصبح كائنات الطبيعة لبنات في مخيلة الشاعر يستخدمها في بناء تجاربه التأملية ، ويوظفها توظيفاً فنياً مباشراً لا رمز فيه ولا غموض ، ولا أبعاد تخلق بها في عوالم أخرى وكأن الشاعر يشعر أن مناجاته لربه ، واستجلاء معالم قدرته في كونه ، والسباحة في نهر الحب الإلهي . . . أسمى من أي تفسير أو بعد يفصح عنه الرمز ؛ وقصائده ، الآتية تمثل هذا التصور خير تمثيل (الله أكبر - الليل والنهار - المعجزات - يارب) (١).

يقول من قصيدته «الله أكبر» .

(١) انظر : هذه القصائد في ديوان «الله وللرسول» على التوالي ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٨ .

إن رأيت الفجر نهرا
سبحت فيه النجوم
ثم لاح الأفق تبــــرا
فيه تختال الغيوم
إذ يغني البلبل الصداح
باللحن البــــديع
فتذكر قدرة الرحمن من سوى وصور
وتأمل صنعة الباري وقل الله أكبر

وعبد العليم القباني في ديوانه يوظف الطبيعة أحيانا في تجاربه الشعرية التي
صاغها ابتهاجا بمولد المختار - عليه الصلاة والسلام - . وهذا تصور تقليدي
درج عليه كثير من شعراء المدائح النبوية وقصيدة شوقي تبدأ بقوله :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

يقول القباني :

الله أكبر هذا اليوم مبتسم
جلاله بهدي المختار متصل
عجبتُ للبحر رقراقا أسرته
سمحاء . موجاته لله تبتهل
وللنجوم تبارت في معارجها
يزهو بها الحب أو يغفوبها الخجل

يا أيها الكون . . . ته ما شئت واقض بما

طويت من صفحات خطها الأزل

إن اليتيم الذي ما ذاق عطف أب

بعطفه الآن أضحى يضرب المثل^(١)

والطبيعة في تجربة «محمد إقبال» يوظفها في تشكيل رؤيته الإسلامية التي تسعى للتعبير عن أحلام الإنسان، وتصور قلقه من أجل إسعاد الإنسانية ووصولها إلى شاطئ الإيمان؛ والإنسان - في حس إقبال - طاقة كونية ضخمة تتمثل فيها كل طاقات الوجود، إنها قبس من النور، وقبس من القدرة الخالقة؛ وهو مفكر وأديب إسلامي مبدع ورائد؛ يقول «محمد إقبال» من قصيدة عنوانها «شقائق الطيور» منظومة في رباعيات:

وكم ذا في الوجود من الحبور

أرى الذرات في شوق الظهور

ويصدع غصنه برعوم زهر

فيبسم للحياة من السرور

* * *

تقول فراشة من قبل خلق

أنلني لمحبة قلق الحياة

* * *

مزاح الزهر أعرف في يقين

وريح الورد في خلد الغصون

(١) المصدر السابق ص . (٣٦-٣٧).

وحببني إلى الأطييار أني
عرفت لها مقامات اللحون
دع الشيطان لا تركز إليها
ضعيف عنها جرس الحياة
عليك البحر صارع فيه موجا
حياة الخلد في نصب تواتي
وفي قصيدة «الربيع» يصور الشاعر الكون مهرجانا حافلا بالحياة، ويدعو
الناس إلى استجلاء هذه المشاهد، والتمتع بما خلق الله في كونه من نبات
وطيور، وأزهار وسبحان من خلق يقول:
دع الدروب واطلب فسيح البراري
وانظر إلى صفحات الجمال
على حافة الماء دون ملال
تأمل ترقرق ماء زلال
وحقق إلى نرجس ذي دلال
نبات نسيان ذات اختيال
وقبل عيوننا لها كاللآلئ
دع الدروب واطلب فسيح البراري
وانظر إلى صفحات الجمال^(١)

(١) انظر: كتاب «منهج الفن الإسلامي» محمد قطب ص ١٨٥ .

ثانياً، محمد بنعمارة وموقف الشاعر المسلم من الطبيعة رؤية وفناء:

تجربة الشاعر «محمد بنعمارة» في ديوانه «مملكة الروح ، ونشيد الغرباء» تعد تطبيقاً فنياً صادقاً لموقف الشاعر المسلم من الطبيعة ، إنه موقف فني إيماني . فكل أدوات الشاعر الفنية يوظفها لخدمة تجربته الإسلامية ، وعنوان الديوان نفسه هو «مملكة الروح» فالروح هي اختيار الشاعر ومناره الذي أبحر إليه طويلاً حتى شيد لنفسه هذه المملكة أو اهتدى إليها .

وللطبيعة في هذه المملكة شخوص تعد رموزاً لآفاق ومواقف لها تأثيرها في الحياة الإسلامية ، وقد جمعت هذه الشخوص عناصر الطبيعة بمستوياتها المتعددة الكونية والنباتية والحيوانية والجمادة ، وحاول الشاعر أن يوظف بعض هذه الرموز توظيفاً أسطورياً ، ومن شخوص الطبيعة وكائناتها التي وظفها الشاعر لإثراء تجربته العابقة بالرؤية الإسلامية .

(النخلة - الماء - الطين - الصحراء - الخضرة - النور - الكهف - البحر الغيم - النوارس - الشمس) . ونقف مع بعض هذه الرموز متأملين معطياتها الفنية في إطار رؤية الشاعر الإسلامية :

(أ) النخلة : وهي في التصور الإسلامي معادل موضوعي للخصب والعطاء : وفي سورة مريم تفسير هذا الرمز حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهَزَيْتُ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطَ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا . فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ (مريم ٢٥ - ٢٦) .

وفي الحديث النبوي الشريف يشبه المؤمن بالتمرة . طعمها حلو وليس لها رائحة . والنخيل في تجربة «بنعمارة» لا يحصر في رمز واحد بل تتعدد المعطيات الإيحائية له ، فالنخلة يرمز بها الشاعر إلى الروح الممتدة الباقية في مقابل الجسد الفاني المفعم بالشرور ، وهذا الرمز تفصح عنه قصيدة «سلاماً يانخل الصحراء»^(١) يقول :

(١) ديوان مملكة الروح ص [٢٤-٢٦] محمد بنعمارة .

جسدي خابية . . . والروح القطرة تنشر تسبيحي
إنهما اثنان . . . بينهما تنبت ذاتي كالنخلة
تستمطر غيم الصبوبات
وترقي في ليلة وحدتنا
أنت الجسد الموصول . . . وأنت الماء
أنت الرء وأنت الواو . . . وأنت الحاء
أنت النخلة في جسد الصحراء
أنت المؤمن بحديث المهدي الأول تحت جناح العذراء

والنخل في بعض التجارب التي خاضها «بنعمارة» يرمز إلى حلم
الإنسان ورغبته في عودة زمن الضياء . . . وذلك حين يسيطر على الشاعر
الشعور بالاعتراب الزماني فيحن إلى زمن غير زمانه ، وهذا الحلم المغترب له
ظلال تعذب الإنسان الكادح في سبيل تحقيق هذا الحلم وإحالته إلى واقع
مضيء .

يقول من قصيدة «هذا وقت تختار صلاتك فيه»:

أو تدري من أين ير اثنان . . .
. . . وبينهما شوق المشي الصاعد
إنهما يختفیان إذا طال السير
الأول يلج الوحشة
أما الثاني . . . فهو العاشق عذبه ظل النخل
فهز الجذع ليسقط زمن ضوئي^(١)

(١) المصدر السابق ص [١٨].

... وبنعمارة في رموزه الشعرية كثيراً ما يلجأ إلى «طرفي النقيض» أو التقابل بين الأضداد، الأزمنة والأمكنة، والمواقف والشخص، وكأنه بذلك يجسد تجربته وتحوله إلى القضية التي يدافع عنها دفاعاً فنياً... مع مواكبة أحدث المنجزات الأسلوبية، والتكنيكية في بناء القصيدة الحديثة.

والنخل في تجربة الشاعر يرمز أيضاً إلى الأمان والطمأنينة في رحاب الإيمان، يقول من قصيدة «باب الجسد... حرك أسرار الدنيا»^(١).

يوم تعلمت صلاتي... كان الضوء جليسا
والهـمـس نشـيـداً
والله قـريـباً... مولاي قـريـباً
ينبت ريشي تحت الإبطين...
فأكتب في أسفل هذا النخل اسمي... والحاء
... وتحتل الأرض حـروفي
ثم تصير دمًا ممزوجًا بدمي
هل للنخل يد تدفع عصف الرياح؟

والنخلة في رؤية الشاعر ترمز إلى البكارة والعذرية. والفطرة النقية الخالصة، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وحين تتبدل هذه الفطرة فإن الطبيعة الإنسانية ستفسد، وتغيب عن الروح ملامح الرؤية الإسلامية، ويرحل عن الوجدان ضوء الإيمان، وقد صور الشاعر هذا التحول المؤلم الذي أعطى لرمز النخلة بعداً سياسياً حيث ذكر قرطبة في وسط القصيدة. وقال في ختامها «وبلاد الشام تتوج واليهام الأموي» إنه يوازن كعادته بين صورتين متناقضتين... صورة التوهج، وصورة الانطفاء.

(١) انظر القصيدة كاملة بديوان «ملكة الروح» ص [٢٠].

يقول مصور الوجود الإسلامي :

كنت الأول في الحب . . . وحرفك ينهل من دمك الشعري

وكنت الأول في الحرب . . .

. . . وسيفك خيمة أيام . . .

. . . كنت أميراً بحرياً . . .

كان البحر . . . يبايع فيك رحيلاً بعد رحيلاً

والمشهد السابق يصور زمن المجد الذي كان، والسياق الشعري والشفرات الفنية تحيل الرؤية إلى تجربة فنية، فالزمن الماضي ومادة الكينونة، وتكرار هذه الكينونة الغاربة خمس مرات ممثلة في الصيغة الزمنية الماضية المقترنة بتاء الخطاب في أكثر حالاتها «كنت».

هذا النسيج الفني يجسد غروب ذلك الزمن/ المجد؛ ومقومات الحضارة المسلمة تنسجها هذه الخيوط المؤمنة (الحب/ الأول- الحرف/ الشريان- الحرب/ النصر- السيف/ الزمن- المأوى/ السكن- الأمير/ المنتصر- الرحيل/ الفتوحات).

وبعد هذا المشهد المصور لمسيرة المجد الإسلامي وملامح الشخصية الحضارية المؤمنة، يصور النقيض . . . ويرمز لكل هذا التآلق المنطقي بسقوط النخلة العذراء يقول :

جوهرتان/ ووجهه/ ومرايا

سقطت نخلتك العذراء

أأنت القاتل؟

أأنت المقتول؟

لأن المطلق بين يديك
فيا من نام مختفياً في الكلمات
استيقظ . . إن الغربية هاجسنا
وبلاد الشام تتوج واليهاموى^(١)

والطبيعة الكونية بمكوناتها المتعددة تعد منابع فنية لرؤية الشاعر وأخيلته
«فالماء» سر الحياة . . . وقد جعل الله تعالى منه كل شيء حي ، وهو كذلك في
رؤية الشاعر . . . ففي قصيدة «نجواك سقوطني وصعودي» نجد الشاعر يقابل
بين موقفين ، موقف السقوط وموقف الصعود ، والموقف الأول تجسيد
للهواجس النفسية التي تدفع بالإنسان إلى السقوط في وحل الشك والإثم
والريبة .

والموقف الثاني هو صوت الحقيقة والمعاناة والمقاومة لمغريات النفس الأمانة
بالسوء . يقول الشاعر موظفاً رمز الماء «بموجياته الإسلامية ، مازجاً بين الحواس
في تراسل فني دال مرح ، ففي جملة شعرية واحدة يخلط بين مدركات الحواس
الثلاث ، الذوق والبصر واللمس ، وهذا الخلط يفسر إيمان الشاعر في أن الماء
سر الحياة بما فيها من طعوم وألوان وماديات ومشاهدة ملموسة .

وهذه الرؤية لها سمة «الثبات» في وجدان الشاعر ، والثبات من خصائص
التصور الإسلامي ، وهذا الثبات تفسره لغة الشاعر وحسه اللغوي ، فقد اتكأ
على صيغة الزمن الماضي في رصد حركة النمو المتصاعد في تجربته ، حيث
توالى الأفعال الآتية : (ورأيت - وغرست - وناديت - أطفأت - نطق - قال)
ولنتأمل هذه اللوحة الشعرية . . .

«ورأيت الماء لوناً ناعماً

وغرست الحرف في الملح . . .

(١) السابق ص [٤٨-٤٩].

... وناديت حبيباً عاشقاً

ثم أطفأت حروفي

نطق الماء وقال

أنت كهف ... أنت طين

أنت نسل الماء إذ صار رماداً»

... والطين له في الوجدان الإنساني إichaؤه... فهو يرمز إلى التدني والتسفل في مقابل الروح التي توحى بالترفع والسمو ولكن يمكن أن يسمو الإنسان بنفسه وبكيانه إذا سما فوق الرغبات الدنيا- وهذا السمو بالجسد من خصائص الرؤية الإسلامية فالإسلام ينشد التوازن بين متطلبات الروح ورغائب الجسد، وخاصة التوازن من خصائص التصور الإسلامي^(١).

يقول: «بنعمارة»...

لا تسرع ... فالأرض عروسك لا تسرع

والطين غريق في مائه

إني أبحرت بلا معني

فشربت معاني أسمائه

وموقف الشاعر من «الطين» وموحياته لا يجعله ينكر أن الطين أصل خلقة الإنسان، ولكنه سلاله من طين أي خلاصة صافية كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢).

(١) انظر «خصائص التصور الإسلامي» لسيد قطب.

ولكتاب الدراسة تحليل أدبي لهذا الكتاب بعنوان «معالم التجربة الأدبية في ظل خصائص التصور الإسلامي». انظر الدراسة الأولى بهذا الكتاب.

يقول الشاعر :

كان الصاحب يبكي قبل الغزوات وبعد الفتح
أنسأل من أعلى أبراج النبض
ألا تبصر تحت شقائق طين الأرض أصول النطفة
فـيـك الأذنـى يوشـك أن يفنـي

ثم يصور الشاعر النفس البشرية في تردها بين السمو الروحي وبين الترددي
في سفوح الرغبات .

قبل الحسن تعود - كما كانت - عقرب أرض
تأمر في مجلس فرعون السحرة
- هذا مطلبكم
لا تنتظروا الصبح وكونوا قدرة هذا العصر
- أو لم تتبع صاحبة الحسن !!
... وأنت الصلصال . الفخار . المنكر أمام رحيق دواليها .

والمأمل في صياغة الشاعر الفنية لتجاربه يجد أن الشاعر يكثر من تعدد
الأصوات في داخل القصائد ، فهي قصائد حوارية يسيطر عليها الحس
الدرامي ، وتحفل بمحيات تراثية لها تأثيرها في وجدان المسلم ، مثل مجلس
فرعون والسحرة ، ومثل - الصلصال الفخار ، ويوسف والجب ، وهي خيوط
استمدتها من نسيج التراث الإسلامي .

وأيضاً يلجأ الشاعر إلى الصياغة الأسطورية المتأثرة بالتراث الشعبي .

ويتأثر الشاعر كثيراً بالتجارب الصوفية ، وتشيع في قصائده مفردات كثيرة
من المعجم الصوفي ، وكذلك يوظف كثيراً من الرموز الصوفية مثل رمز

«الكأس، والخمر، والمرأة، والبحر، والماء . . .» وهو برغم هذا التأثر يظل خارج دائرة التجربة الصوفية .

فالماء في التجارب الصوفية يرمز إلى المعرفة، والماء الجاري يرمز إلى البسط المستمر، والمرأة ترمز إلى النصر الإلهي والعشق الكامل، والبحر يرمز إلى عالم الوجود، والإخضرار يرمز إلى الكمال المطلق، والطائر يرمز إلى الروح، والبستان يرمز إلى العالم الروحاني، والسكر يرمز إلى الحيرة والوله^(١).

بـ البحر

والبحر في تجربة «بنعمارة» ورؤيته الإسلامية تتعدد مدلولاته ومحياته فهو يوظف رمز «البحر» في سياق تجسيده لقيمة الحرية التي تعلو من قيمة الإنسان وتسمو بمشاعره، وتناهى به عن الرغبات الدنيا .

يقول في لغة إيحائية رامزة يغلفها الغموض المشع .

يا سيد هذا الأمر البحري . . .

. . . تزوج ألوان الماء

. . . ليدخل هذا الأزرق أبواب القاني

ها أنت السفر الهادئ في المطلق

أنت البحر الغارق في الفاني

تملك لغة أعلى

إن الليل رفيقك في الحلم

. . . وترتيلك همس ضوئي . . .

(١) انظر كتاب «التصوف عند الفرس» د/ إبراهيم الدسوقي شتا وكتاب «الأدب الصوفي: اتجاهاته وخصائصه» لكاتب الدراسة .

يخترق سجون الدنيا»^(١)

وفي قصيدة «أسفار داخل إيقاع الموج» يصبح البحر رمزاً للتحول من رؤية إلى رؤية أو من قضية إلى قضية وربما كان للإبحار والترحال . . . ومحاولة العبور إلى الشاطئ والانتصار على عنف الأمواج أثر في اتخاذ الشاعر البحر رمزاً لهذا التحول الفكري .

فالشاعر والأديب والمفكر يمر بتجربة المخاض في لحظات التحول . . . ويعاني ويقاوم . . . ويصارع . . . إنه ملاح تهدده العواصف وتهاجمه الأمواج . . . وتكاد تفتك به الرياح، وقد رسم الشاعر مشاهد هذا التحول في هذه اللوحات الفنية مصوراً نقطة الحدود الحاسمة بين عهدين متناقضين مطلقاً العنان لظلال الألفاظ، وألوان العلاقات الخفية بين المعاني والتراكيب الدالة، والأصوات والخيالات، وكائنات الطبيعة البحرية .

يقول مستدعياً ذاكرة الماضي المرفوض ومستشرقاً الواقع / القضية .

تحت الظلال سنلتقي
وطن وأنثى ورجل
حزن ثلاثي بدأناه قديماً
... يحرس الأشباح والسفن المهاجرة التي
قد هربت من جلد هذا البرآلام العذارى
... أنت زهر سائك الأشكال يتبعني . . .
فابحث عن رفيق يمتطى وجه الفضاء . . .
... ويرتمي في حضن عاشقة المسافة . . .

(١) ديوان «مملكة الروح» ص [٤٦] محمد بنعمارة .

... ربما كان الزمان خرافياً
والحرب فيه سحابة
والصخر ينبت في السواحل
والصهيل البحري الممتد
يناجي ألوان وجـه الماء^(١)

... والنوارس:

في معجم الشاعر ورؤيته ترمز إلى جنود الإيمان «ولأنها تعانق البحر دائماً
فالبحر معادل موضوعي وشعوري لإرادة التحول والتغيير والثورة». .
والسواحل رمز للنجاة والوصول إلى الثمرة/ الحلم.

وفي اللوحة الشعرية التالية يصور الشاعر نبض الكفاح الإسلامي المعاصر
تصويراً فنياً ممزوجاً بمشاعر الإحباط... فالنوارس حزينة، ولكنها لم
تستسلم لأنها ما زالت تغني وتزف جرحها إلى عرس الشهادة.

يقول من قصيدة «غنائيات النوارس الحزينة»:

زفت نوارسك الحزينة جرحها
بالأمس عانقت السواحل غيمه
هل أمطرت؟
السرب يتبع مركبا
الموج ينتظر النجوم
البحر من دمه يرتل بدء ثورته

(١) المصدر السابق ص [٥١].

ولغة الشاعر وتشكيلات صورته تفصح عن إصراره على مواصلة طريق الكفاح . . . فالجرح في التجارب التقليدية مرتبط بالألم لكنه هنا قرين العرس والنوارس تزفه، والغيم في لغة الشاعر وفي رؤيته لا يحجب الضوء ولكنه يعانق السواحل . . . ويبشرها بالحياة، ولم يشأ أن يعلن ثمرة هذا العناق في صياغة خبرية تقريرية . . . بل ساقه في أسلوب إنشائي مثير للتساؤل والدهشة والانفعال «هل أمطرت» وأعلن اشتياق الموج إلى النجوم . . . وما المرج إلا حركة الحياة المتدفقة، . . . وما النجوم إلا الضوء المبدد ظلمات اليأس والجمود . . . ، والبحر في هذا المهرجان الإيماني يقدم دمه فداءً لجنود الإيمان، وإيحاء الترتيل يصبغ التجربة الثورية هنا بصبغة الإيمان، ويجعلها دائرة في فلك القرآن .

وفي قصيدة «الطريق إليك حزن أو جهاد» يكمل الشاعر اللوحة، ويوظف السحاب وهو من عناصر الطبيعة المعانقة للنوارس والبحر، فهي دائرة متكاملة، وهو في هذا التوظيف الفني يجعل السحاب رمزاً للأمل والعطاء، وليس رمزاً لاحتجاب الرؤية واختناق الضياء، والأمل فيه خصوبة الحياة وقوة العزيمة .

يقول الشاعر:

يارفـيق الاتجـاه فقـدت ذاكرتي
لكنني ما زلت أذكر كـربلاء
إذن هنا . . . وقفت خيول الفاتحين . . .
. . . قبل بداية الأشياء نجتاز السواحل كالسحاب . . .
. . . سحابتان . . . تضيع واحدة وتمطر ثانية
يا أيها المستضعفون . . . لنمتطي فرس الرهان

ثالثاً: التجربة التأملية وإضاءات الطبيعة في ديوان «مسافر إلى الله»:

والشاعر «أحمد فضل شبلول» يكتب ديواناً كاملاً أسماه «مسافر إلى الله» هذا العنوان يفسر تجربة الشاعر، ويصبغها بصبغة الرؤية الإسلامية، ودلالة ذلك أنه صدر الديوان بالآيات القرآنية التي وردت في آخر سورة الشعراء، وتوضح هذه الآيات موقف القرآن من الشعر والشعراء...، وهي تتجلى في قوله سبحانه:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء ٢٢٤-٢٢٧).

والإهداء... يحمل عقب الرؤية الشعرية الإسلامية. يقول الشاعر في إهدائه:

لا خلاص لإنسان هذا العصر
إلا بالرجوع إلى الله
والعودة إلى الدين
فإلى من ينكر وجود الله
وإلى من يشعر بوجود الله
وإلى من يؤمن بوجود الله
أهدي «مسافر إلى الله»

والحب الإلهي ذاق حلاوته الشعراء منذ انبثاق فجر الإسلام وبلغ ذروته وقمته من خاض هذه التجربة من الشعراء الفلاسفة والشعراء المتصوفين مثل

ابن سينا، وابن الفارض . وغيرهم من رواد الشعر السابح في سماوات الذات العلية^(١) .

وحين نتأمل آفاق التجربة في ديوان «مسافر إلى الله» نجد أن الشاعر فتح مشاعره على مشاهد الطبيعة، وتنقل بين هذه المشاهد بحسه الإيماني يتأمل قدرة الخلاق وجمال الكون، وقد صاغ هذه التأملات الإيمانية صياغة فنية تتكئ على فن القص والحوار وتعدد الأصوات، والتصوير الشعري المحلق، والطبيعة منبع فنه، ومصدر أدواته الفنية، ووسائله الجمالية، وتوظيف الطبيعة هنا ينأى عن الرمز وعن الغموض، فلم تغلف التجربة هنا بالغموض وبالرمز اللغوي الذي يميز تجربة «بنعمارة» في ديوانه «مملكة الروح» .

والطبيعة في تجربة «أحمد فضل شبلول» تتعدد أبعادها التأملية الإيمانية، وهي في كل هذه الأبعاد لوحة تشكيلية تتراءى فيها رؤى الشاعر المؤمنة عبر تصوير فني مبدع، تجسده مشاهد الطبيعة ومرائرها ومظاهرها الكونية - والنباتية - والحية . ومن هذه الأبعاد :

(أ) البحر قراءة في كتاب المستقبل؛

والبحر هنا يوظفه الشاعر بكل معطياته الدينية، وبكل موحياته في التصور الإسلامي، ويستوحى القصص القرآني وبخاصة قصة سيدنا موسى - عليه السلام - .

ولا يغيب في أحلام الاستدعاء بل يقرأ كتاب المستقبل، وشعوره مضاء بلحظة انتصار المؤمن المتمثل في «موسى ومن معه» على الوجود الكافر المتمثل في «فرعون وجنوده»، يقول الشاعر معلناً نبوءته بانتصار الإيمان :

«حين انزلق التابوت إلى أحضان البحر»

(١) انظر الموضوع بالتفصيل في كتابنا «الأدب الصوفي: اتجاهاته وخصائصه» دار المعارف القاهرة ١٩٨٤م .

كان هناك رضيع يتأرجح بين ظلال الموج
... ويحتضن الزبد النابض في الأعماق
لكن عند مجيء السفن
يصفع وجه الماء ... فينفلق البحر اثنين ...
... وتنشطر الأرض اثنين
ويسافر في قطرات الماء الصاعد نحو الشمس
حيث يصير رصاصة إيمان ...
... تنفجر عند بلوغ القرن الحادي والعشرين^(١)

(ب) الطبيعة مملكة اليقظة الإيمانية وفي مراياها تسافر الفطرة الإنسانية؛

وقد اتخذ الشاعر من الشمس والقمر معبراً للنفاذ إلى أسرار تجربته، ورمز
للفطرة الإنسانية بالطفل، وقد اتكأ على العنصر القصصي، ورسم للطفل
عدة مشاهد يتصاعد معها الرمز وتنمو التجربة، فالطفل يولد ... وبعد ذلك
يتساءل ... وبعد التساؤل لا يقع فريسة الحيرة والقلق بل يتحول التساؤل إلى
حركة وفعل.

فالطفل ...

«يجمع في كفيه حصاد الشمس ...

... أسرار الحرف ...

... وأحلام الماء

... وبعد الحركة والفعل تبدأ مرحلة العطاء ... فنراه

(١) ديوان «مسافر إلى الله» ص [٨] أحمد فضل شبلول.

يهدى للخبز وللعشب النار
أغنية من نور
وبعد مرحلة العطاء تبدأ مرحلة الهجرة والسفر إلى الحقول الجديدة . . .
لتبدأ الدورة من جديد

«ويهاجر في مملكة اليقظة نحو حقول الدهشة في الإنسان

طفل شال على الإبهام
جبل اليأس القتال
ورماه وراء بحار الظن
طفل في عينيه تبرعم كون
من خلف حجاب الضوء
ويعود شعاعاً ربانياً
يزرع في أعماق الدنيا

أشجار الرحمة . . . ، وشموس الحب^(١)

وتجوال الشاعر وسفره في مشاهد الطبيعة يجعل وجدانه متحداً بهذه
المشاهد فهو يصادقها ويتأمل فيها ويقتبس منها كثيراً من حالات الإيمان، وفي
قصيدة «صوفية الإسكندرية» تتكاثر مفردات الطبيعة مثل البحر والموج والرمل
والفجر والشمس والتابوت والحوت . . . ، وهي مفردات يستوحىها الشاعر
في كثير من قصائده هذا الديوان . . . وينوعها ويشكلها حسب لون
التجربة . . . يقول:

ماء البحر ترابي وشرابي في هذا الصبح المتجلي

(١) المصدر السابق ص [١٠].

فليفطر معي شعاع الشمس وعدة أخشاب من سفن غرقى
ولنتصا دق منـذ اللحظـة
هذا قلبي يا صوتاً من نور الرحمن
ولتـمنـحني أضـعـاقاً من فتـح وكلام
هذا عقلي قطعة شمس تحبـو في نور الأنوار
فلتأخذ عقلي يا سمعاً يرحل نحو سماء الله»^(١)

(ج) النجوم التائهة خلف الغيم والبحث عن الحقيقة:

وبحث الشاعر عن الطريق وهو في معاناة السفر يمتزج بخيال محلق . . .
يميل إلى عالم الأسطورة، فهو يحكي قصة الساري الذي لا يعبأ إلا بنجوم
تاهت، فكل ما حوله من مظاهر الحياة وصراعاها، وأشباح الرؤى وأوهامها،
وأشواق الروح وأحلامها، كل هذا يصور نفسيته وما تمور به من صراع
وقلق . . . ولكنه لا يعبأ إلا بنجوم تاهت خلف الغيم، فهو يرفض مغريات
الحياة، وينتصر على الفزع والحيرة والمعوقات التي تشده بعيداً عن غايته
الإيمانية، وهذه المغريات يكثفها الشاعر «أحمد فضل شبلول» في المشهد الأول
من قصيدته (الساري).

وتتمثل هذه المغريات في المشاهد الآتية:

(أسنان تصطك - شعر ثائر - أنف في لون النار - صخر يتراجع نحو الشاطئ)
وهذه الصور تجسيد للإغراء والفزع والحيرة.

والمشهد الثاني يصور تذبذب النفس الإنسانية بين زمينين: (زمن الغيم . . .
وزمن الصحو).

(١) المصدر السابق ص [١٢].

والغيم في رؤية الشاعر رمز لزمان التيه والضلال؛ والصحو رمز للهدى والإيمان.

والتجربة كما قلت: مغلفة بالخيال الأسطوري والنزعة الدرامية... والتنامي الشعوري، والحركة الداخلية في القصيدة: وقد كثف الشاعر التجربة كلها في مشهد داخل القصيدة... حيث يقول:

جلس الساري فوق السور الحجري
جاءته سيادة الموج
رقصت في عينيه الأحلام
جاءته سيادة الصحو
صغرت في عينيه الأكوان
جاء النورس
رفرف حول السيدتين
حط أمام الساري
نظر السّيَّ يعاتبني
لكني... كنت أحاول فك الطلسم...»^(١)

(د) الطبيعة الحية والسباحة في محيط الإيمان؛

والشاعر يستوحى هذه الرؤية من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَقْفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤).

وهذا المنظور الإيماني للطبيعة الحية يجسده الشاعر في قصيدة «النمل يصلي

(١) المصدر السابق ص [١٨-١٩].

ويبشر بالماء» ويوظف مشهداً من حياة الرعاة . . . ، وكذلك يوظف التراث الشعبي في إنجاح التجربة، ويحدث توازناً فنياً ومعادلة موضوعية بين جفاف البئر وجفاف القلب من الإيمان، وحين يجف القلب تيبس الحسوف؛ ومكونات الطبيعة التي وظفها الشاعر في تجربته هنا هي: الأغنام العطشى - الإبل العطشى - النمل - الحادي - الحبل المتدلى - الدلو المتأرجح - قوافل النمل - البئر تجف، وكل هذه المكونات تشكل مشهداً تصويرياً حركياً.

والقصيدة تتكون من ستة مشاهد . . . يختمها بهذا المشهد:

أغنام نفقت . . . وفتاة تبكي

قافلة رحلت . . . ورمال تشكو . . .

ودعاء يعلو تلو دعاء

. . . لكن النمل يصلي ويبشر بالماء

واختيار النمل فيه تأثر بما جاء في القرآن الكريم في قصة «سليمان»؛ وحديث النمل الهامس، وحذره من سليمان وجنوده؛ . . . فكل ما في الطبيعة يصاب بالعطب . . . والفتاة تبكي، والقافلة ترحل . . . والدعاء يتوالى . . . وأصغر ما في هذا الوجود . . . ما زال يصلي ويبشر بالأمل والخصب والحياة فسر الحياة يكمن في الماء صوت البشارة . . . واخضرار الوجود.

(هـ) إضاءات الوجود؛

ويوظف «أحمد فضل شبلول» ظواهر الطبيعة الكونية في صياغة تجاربه الشعرية . . . ؛ وكل ظاهرة كونية يشكل من موحياتها قصيدة مستقلة، وكأن الظاهرة تضيء طريق الإنسان الباحث عن المعرفة . . . ودروب الإيمان.

فقصيدة «إضاءة الجبل» يصدرها الشاعر بقوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا
الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١).
ويبدأ القصيدة بتأثره بالأسلوب القرآني في قوله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه
والطير﴾ فيقول:

جبل صلى للأسماء الحسنى

فانفلقت ذرة

وارتفعت صخرة

«نحو سماء الدنيا . . . وأضاء الجبل قرونا»^(١).

ويوظف الشاعر مكونات الجبل المادية وهي تتوارى أمام طغيان الآلة
مصوراً اصطدام فطرة الإيمان بمقومات الحضارة المادية الحديثة . . . حيث
يقول:

جاء المدفع

حط مكان الصخره

طارت من عينيه الطلقه

باتت فى أحشاء الطفل

فتراءى للجبل الظل

أشباحاً تسكن فى رثتيه^(٢)

وقصيدة «إضاءة الماء» يصدرها الشاعر بقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ
شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

(١) ديوان «مسافر إلى الله» ص [٢٦].

(٢) المصدر السابق ص [٢٧].

وإضاءة الماء تصور اتحاد الوجدان المؤمن بمشاهد الطبيعة، وتفصح عن الإذعان الكامل لقدرة الخالق؛ وصياغة التجربة هنا في القسم الأول، منها صياغة خبرية تعتمد على التوازن الأسلوبى، والتنغيم الشعرى، والتكرار الموحى بالتماثل والتوازن.

يقول الشاعر:

الماء خليلى منذ اليوم الأول من أيام الخلق
والموج رفيقى منذ دوائر تكوينات الأرض
والرمل صديقى منذ بداية ترسيمات الضوء
والشمس طريقي نحو الحب ونحو الدفاء ونحو الشوق

وتتوالى بعد ذلك إضاءات الشاعر، وهى متداخلة متشابكة . . . تلجأ أحياناً إلى الإسهاب وعدم التكثيف . . فالمفردات فى كل قصيدة تتكرر؛ فالموج والضوء والرمل والشمس وغيرها من ظواهر الوجود لبنات أساسية، وهذا التكرار الملح لمفردات المعجم الشعرى يصبح عبثاً على تجربة الشاعر، وقد حاول الإفلات من تهمة التكرار والثثرة . . فجاءت الصياغة فى تجاربه متنوعة، وفى إضاءة الجبل اتسمت الصياغة بالنزعة الوصفية القصصية، والأفعال تدفقت فى إطار حركة الزمن الماضى، وفى إضاءة «الماء» طغت النزعة الخبرية التى تؤكد واقع الشاعر، وجاءت الصياغة فى إطار الزمن الثابت حيث طغت الجملة الإسمية .

وفى القسم الثانى منها حينما أراد الشاعر أن يدفع بهذه الرفقة وذلك الصديق فى معانقته للطبيعة إلى مشارف التفاؤل لجأ إلى الصيغة المستقبلية . . . ليبت الخصبوبة والخضرة فى شرايين الصحراء . . . وفى إضاءة الضوء . . . كانت الصياغة مستقبلية . . لأن الضوء سائر بخطى الإنسان دائماً إلى اقتحام السدود، والانتصار على المعوقات؛ ولذلك جاءت أبيات الشاعر كلها تبدأ

بالفعل «وليكن» فكأن هذه الإشراقات الضوئية أمنيات يصوغها الشاعر في هذا القلب المستقبلي .

يقول :

فليكن الضوء طريقًا نعبر فوقه
كى نتلاقى يا روحى
وليكن الرمل صديقًا نجلس عنده
كى نتباهى بالماء وبالشفق الوردى
وليكن الموج رسولاً نسبح فى صوته
كيما نتسامى نحو الله

ثم يقول فى نهاية القصيدة : وليكن القلب مرايا للضوء وللحب وللقرآن .

وفى إضاءة «الموج» ينأى الشاعر عن التكرار وعن الإسهاب ، ويوظف الموج ليصبح معادلاً موضوعياً لحركة الحياة . . . فكائنات الطبيعة هنا تمتزج وتتداخل . . . وتصبح ظواهر الوجود متشابكة ويمكن أن نطلق على أى ظاهرة منها اسم ظاهرة أخرى فالموج شمس ، والرمل أقمار ، والبحر شباب ، والرمل ضياء .

والكون بهذا المزج الشعري دوائر متداخلة تتعاقب فيها العوالم الأرضية والعوالم السماوية ، والعوالم النباتية نجدتها ممتزجة بالعوالم الإنسانية .

وهذه الدوائر الكونية تشع بطاقات الإيمان ، وتتفجر من خلال تداخلاتها ينابيع الغفران . . . ، يقول الشاعر :

ويظل البحر شباباً . . . يدعو كل قصيد للشعراء
ويظل الرمل ضياء . . . يزهو فوق أهازيج الشيطان

وفى إضاءة «الرمل» تتكرر الرؤية المنبثقة من إضاءة الموج حيث الوحدة الكونية المجسدة لقدرة الخالق .

وفى إضاءة «الحب» تتكرر الرؤية . . . ولكن فى تصوير جديد . . يقول :

. . . ماذا لو أدركت . . . يا مبحرة القلب

أن الدنيا لو أشرقت . . .

. . . لو أحسبت

ستكون طريقًا نحو الدفء . . .

. . . ومعراجًا نحو الله . . .

وفى نهاية الرحلة يختم الشاعر ديوانه «مسافر إلى الله» بقصيدة الإيمان وكأنه يعلن أنه خلال رحلته الطويلة فى مشاهد الوجود وظواهر الكون . . . وصل إلى مبتغاه، وقطف ثمرة السفر، وأشرقت فى نفسه شمس الإيمان، والقصيدة لا تكتب مبتورة . . . بل لا بد من تسجيلها كلها . . . فهى مفتاح رؤية الشاعر، وهى نموذج جيد للرؤية الإسلامية فى شعرنا المعاصر .

وقد كثف الشاعر رموز الطبيعة فى هذه القصيدة، وجعلها تنطق بجمال الكون، وقدرة الخالق وصوت «الإيمان»^(١) .

أجىء الآن . . . بلا ضجة . . . بلا استئذان

أجىء الآن . . . فمن منكم . . . يغنى لى

ومن منكم . . . يعاديني

أنا المرئى فى الأسحار

فمن منكم يصاحبني

(١) انظر ديوان «مسافر إلى الله» (قصيدة الإيمان).

ومن منكم ينازلنى

أنا المنشور فوق الرمل فوق الماء فوق النار

فمن منكم يداعبنى

أنا المسموع فى الأحجار

تصادقنى قباب الفجر تحت النور . . .

تسامرنى شمس الأرض فوق الدور

ترافقنى مياه الحب نحو الجذر

فمن منكم يشاهدنى

أنا السباح فوق البحر

أنا المرسوم فى الراحة

أنا المبيذور عند النهـر

أنا المنقوش والمزروع فوق الصخر

أجىء الآن . . بلا ضجة . . بلا استئذان

أجىء الآن

لأسكن فى عيون الودق

وأمرح فى أيادى الرزق

فمن منكم يصادقنى

ومن منكم يرافقنى

أنا المكتوب فى القرآن

أنا الإيمان

وبعد:

فهذه الأبعاد الفكرية والجمالية للرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر ليست إلا إشارة البدء لارتداد آفاق التجربة الأدبية في ظل التصور الإسلامي، وهي تزداد تألقاً - وصدقاً . . . كلما كان الأديب صاحب رسالة، متمسكاً بالمنهج، وحريصاً على أن يظل قابضاً بكلتا يديه على شعلة الإبداع . . . مجتازاً دروب الفن العصبية، محققاً إسلامية الرؤية، وتوهج الأداء الفني، غير مبتور الصلة بقيم العصر ومنجزاته وأساليبه ورؤاه ولغته وأفاقه الفنية .

وديوان الشعر الحديث يعبق بالتجارب الإسلامية رؤية وأداء، وما على الأدباء والنقاد إلا أن ينقبوا جادين . . . فاحصين متأملين، وسيعودون بعد رحلة التنقيب في مفازات الأدب، ورياضه الغنّ وحدائقه الفيح بأثمن الكنوز وأسرى التجارب . . . ، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

من المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم؛

ثانياً: الدواوين الشعرية؛

- ١- ديوان أصداء الذكريات د/ محمد عبد المنعم خفاجي . نشر رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ١٩٨٩ م .
- ٢- أصداء وأنداء، د/ محمد بن سعد بن حسين . مطابع الفرزدق التجارية الرياض، السعودية ط ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م .
- ٣- الأمس الضائع، حسن عبد الله القرشي، دار المعارف بمصر ط ١٩٦٨ م .
- ٤- البيعة المشتعلة، محمد علي الرباوي . المطبعة المركزية - وجدة المغرب - ١٩٨٧ م .
- ٥- تموت العصفير لكن تبوح . جميل محمود عبد الرحمن . المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ١٩٨٢ م .
- ٦- ديوان الحمى، د/ غازي عبد الرحمن القصيبي، ط ٢ (جدة)، دار تهامة للنشر (الكتاب العربي السعودي ٥٣) .
- ٧- خاتمة اليروق، عبد الله بن سليم الرشيد، مطبوعات النادي الأدبي بالرياض ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

- ٨- الرحيل على جواد النار . د/ حسين علي محمد . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م .
- ٩- السفر في أنهار الظمأ ، د/ محمد أبو دومة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م .
- ١٠- شجرة الحلم ، د/ حسين علي محمد ، وزارة الثقافة بمصر - سلسلة مواهب - ١٩٨٠م .
- ١١- شلال قلب ، معيض البخيتان ، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض - السعودية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
- ١٢- ديوان [عمر أبو ريثة] «الأعمال الكاملة» ج ٢ - عمر أبو ريثة دار العودة - بيروت - ١٩٧١م .
- ١٣- ديوان [محمد بن علي السنوسي] الأعمال الكاملة محمد علي السنوسي منشورات نادي جازان الأدبي ١٤٠٣هـ .
- ١٤- ديوان لله وللرسول ، عبد العليم القباني ، دار لوران للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨١م .
- ١٥- مسافر إلى الله ، أحمد فضل شبلول إصدار جماعة قاروس (كتاب قاروس) بالإسكندرية ١٩٨١م .
- ١٦- مدائن الفجر ، د/ صابر عبد الدايم ، إصدار رابطة الأدب الإسلامي العالمية ١٩٩٤م .
- ١٧- المرايا وزهرة النار ، د/ صابر عبد الدايم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧م .
- ١٨- مملكة الروح ، محمد بنعمارة ، منشورات المشكاة بالمغرب ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

ثالثاً: أهم المراجع

- ١٩- الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي ، د/ محمد بن مريسي الحارثي ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي «الكتاب» ٦٤ ، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م .
- ٢٠- الأدب الإسلامي المقارن ، د/ الطاهر أحمد مكّي ، دار «عين» للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م .
- ٢١- دراسات في أدب الدعوة الإسلامية د/ محمود حسن زيني : مكتبة الخالجي بالقاهرة ، ١٩٨٢ م .
- ٢٢- البهائية «تاريخها وعقيدتها» عبد الرحمن الوكيل دار المدني للطباعة ، والنشر والتوزيع ، بجدة ١٤٠٧ هـ-١٩٨٦ م .
- ٢٣- تاريخ آداب العرب ج٢ مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان .
- ٢٤- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، طه أحمد إبراهيم ، دار الحكمة- بيروت لبنان .
- ٢٥- الرمز والرمزية في الشعر عند العرب ، د/ محمد فتوح أحمد ، دار المعارف بالقاهرة ، ط٣ / ١٩٨٤ م .
- ٢٦- القرآن ونظرية الفن ، د/ حسين علي محمد ، مطبعة حسان بالقاهرة . ١٩٩٤ م .

- ٢٧- محمد- صلى الله عليه وسلم- في الشعر الحديث د/ حلمي محمد القاعود دار الوفاء بالمنصورة ١٩٨٧ م .
- ٢٨- محمود حسن إسماعيل ، بين الأصالة والمعاصرة ، د/ صابر عبد الدايم دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤ م .
- ٢٩- النقد الإسلامي المعاصر ، د/ عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة- بيروت لبنان- ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م .
- ٣٠- منهج الفن الإسلامي ، محمد قطب ، دار الشروق ط ٨ ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م .
- ٣١- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د/ أحمد بسام ساعي ، دار المنارة بجدة ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م .
- ٣٢- الورد والهالوك ، د/ حلمي محمد القاعود، دار الأرقم بالزقازيق، مصر، ط ١ .

رابعاً، الدوريات :-

- ٣٣- جريدة «المدينة» ملحق الأربعاء- السعودية .
- ٣٤- جريدة «الندوة» [الملحق الأدبي] السعودية .
- ٣٥- مجلة «الأدب الإسلامي» العدد الثامن- ربيع الثاني ١٤١٦ هـ .
- ٣٦- مجلة «الأدب الإسلامي» العدد الحادي عشر ١٤١٧ هـ .

ثالثاً: أدب الطفولة في ضوء التصور الإسلامي (*)

(أ) الاهتمام بأدب الطفولة:

إن الاهتمام بأدب الطفولة في مجتمعنا العربي والإسلامي يجب أن لا ينفصل عن الاهتمام بتكوين الطفل وتنشئته تكويناً صحيحاً في ظل الأصول والمفاهيم الأخلاقية التي حددها الإسلام، حتى ينشأ الطفل المسلم ووجدانه مشبع بأنفاس الحضارة الإسلامية وعبقها، وكيانه مهياً لمعيشة واقع الحياة الإسلامية «سلوكاً وتعليماً وتربية ومشاركة مسؤولة في ميادين الحياة العملية»، وكل كتابة للأطفال لا تنطلق من هذا المنظور فهي كتابة تفتقد الرؤية الصحيحة، وتكتفي بالتسلية الوقفية للطفل، ولا تُعنى بصنع مستقبله ومستقبل أمته.

وحيث نتأمل موقف الإسلام من الطفولة نعثر على ملامح الرؤية المستقبلية لأدب الطفل فقط، ولكن حياة هذا الطفل المستقبلية بكل أبعادها ومكوناتها النفسية والشعورية والعقلية والحسية التي تنمي في الإنسان القدرات والمهارات المرتبطة بحركة الحياة.

فقد اهتم الإسلام بتكوين الطفل وعُني بمستقبله حتى وهو جنين، حيث حرّم الإسلام إسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه، ويعاقب من يسقطه بدفع الدية الشرعية وتسمى «الغرة».

(*) نشر جزء من هذه الدراسة: بمجلة الفيصل السعودية، ١٤١٢هـ ونشرت كاملة بالمجلة العلمية لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام ١٤٢١هـ.

وقد حُكِمَ اللهُ - عز وجل - على القاتل بالخسران والسفه والضلال فقال سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٠).

* وقد هيا التشريع الإسلامي للجنين كل سبل الرعاية والعناية، وهياً من حوله للحفاظ على هذه الحقوق بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلًا فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٦).

* ورعاية من الدين الإسلامي للجنين، نجد أن الحق سبحانه وتعالى وضع عن «الحبلى» الفرائض والقربات إذا كان في هذه الطاعات إضرار للجنين أو الطفل بعد الولادة، فوضع عن الحبلى والمرضع الصوم - ولو كان صوم فريضة - إن كان ذلك يؤذى الجنين أو الطفل أو الأم، وجعل قضاءه بعد زوال السبب؛ وبينه المصطفى - عليه الصلاة والسلام - إلى ضرورة الاختيار الصحيح للزوجة الصالحة؛ حرصاً على مستقبل الطفل ونشأته فيقول - عليه الصلاة والسلام -: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»، فهل هناك حرص على مستقبل الطفل وحياته أعظم من هذا التوجيه النبوى الراشد.

* وعناية من الإسلام بمستقبل الطفل أمر الآباء بحسن رعاية أبنائهم، والقيام على تربيتهم وفق مفاهيم الإسلام، وأرشد الآباء إلى ضرورة إكساب الطفل المهارات والقدرات التي تجعل منه رجلاً قوياً ثابتاً متزناً في مستقبله وفي عهد الشباب والفتوة، وكان المصطفى - عليه الصلاة والسلام - هو القدوة والنموذج في ذلك، حيث كانت طفولته في صورتها المضيئة إعداداً لمستقبل حافل بالمسئوليات الجسام، وللقيام بأعباء الدعوة الإسلامية، فقد أرسل إلى البادية ليتلقى اللغة العربية صافية من الشوائب واللكنات والتحريف، ويتعود على حياة الصحراء وما فيها من كفاح وتقشف وتحمل، ويتشرب تقاليداً التي تبرز قيم الصحراء ورحابتها والانطلاق فيها على فطرة الإنسان، وحيث يكون لكل فرد دور بناء يقوم به لخدمة نفسه ومجتمعه.

يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ، ونشأت في بني سعد بن بكر» .

ويقول «عمر بن الخطاب» علموا أولادكم السباحة والفروسية ، وأروهم ماسار من المثل وحسن من الشعر ، «ووصية» عمر تؤكد على تنمية الذوق الأدبي والمهارات اللغوية عند الأبناء ، وهذه رؤية مستقبلية لارتباط الأطفال بلغة أمتهم وتراثها ، ويحرص «الفاروق عمر» على منهج الانتقاء فيما يروى للطفل المسلم (الأمثال السائرة النافعة والمفيدة والمتعة ، وكذلك الشعر الحسن التربوي والأخلاقي .

ويقول هشام بن عبد الملك لمعلم ولده :

«وأول ما أوصيك به ، أن تأخذه بكتاب الله ، ثم أروه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به في أحياء العرب ، فخذ من «صالح شعرهم» وبصر بطرف من الحلال والحرام ، والخطب والمغازي» .

والمنهج التربوي السديد ، والرؤية المستقبلية المستنيرة في هذه الوصية الرائعة تقوم علي عدة أسس ؛ لتكوين مستقبل الطفل المسلم نفسياً وجسدياً وعقلياً وشعورياً ، وأدبياً وهي :

(أ) الاتكاء على التعاليم القرآنية في المنهج السلوكي للطفل ، وهذا ليس اختياراً ، ولكنه ضرورة وواجب ، والنص يؤكد ذلك أن يأخذه بكتاب الله والأخذ هو «الإلزام بالأمر» . والقرآن دستور المسلمين ، وسر حضارة الأمم .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على العناية بالولد ورعايته ، وآيات أخر تذكر لفظ الطفل صراحة ، وتنبه إلى ضرورة التكوين المستقبلي للطفل ، فقد أقسم الله تعالى «بالولد والوالد» في سورة البلد ، وذكر الطفل في سورة النور وسورة الحج ، ومن على الناس أن أمدهم بالبنين في أربع سور مباركات ،

وهي الإسراء والمؤمنون، ونوح والمدثر، وعدّ الأبناء زينة الحياة «الدنيا» في سورة الكهف، وهم «قرة أعين» في سورتَي «الفرقان والقصص».

(ب) تقويم لسان الطفل وتبصيره بتراث العرب المضيء، والنافع المفيد من الشعر العربي وهذا مدخل صحيح لتربية ملكة التذوق الأدبي عند الناشئة وأطفال المسلمين.

(ج) الترحل والتنقل ومشاهدة الآثار والاختلاط بأصحاب الخبرات الثقافية والعمرائية والتربوية من أسس أدب الطفولة، ومن أسس التكوين الوجداني المستقبلي للطفل، إذ يقول «هشام بن عبد الملك» مؤدب ولده:

ثم تخلل به في أحياء العرب، فخذ من «صالح شعرهم».

(د) الحرص على التربية الدينية السوية، والسلوك الإسلامي السديد، وهذا المنهج يكون في ظل مراعاة سن الطفل، ومدركاته وحاجاته، وإشارة هشام بن عبد الملك ولفتته التربوية الدقيقة بجلاء وذكاء في قوله «وبصر بطرف من الحلال والحرام، والخطب والمغازي».

فالهدف ليس التلقين ولكن «التبصير» والتوعية.

ومن وسائل التيسير وأدواته «الخطب والمغازي» وهما مدخلان قويان للدخول إلى مستقبل أدب الأطفال، أبناء الإسلام، وعلماء المستقبل وقادته، ويمكن أن تُعرض خطب الأقدمين الآن في صور مشوقة مشروحة مصحوبة بما يلائم العصر وما جد فيه من ظروف وملابسات، وكذلك أخبار «المغازي» والفتوحات الإسلامية، على امتداد التاريخ الإسلامي المشرق المجيد الزاخر بالبطولات الفريدة، رجالاً ونساءً وأطفالاً.

هذا التصور السديد، وهذا الاهتمام الرشيد بالتكوين الكلي للطفل في مبادئ ديننا الحنيف، وفي ضوء سلوك علمائنا وأولي الأمر وتوجيهاتهم في

الدولة الإسلامية يجعلنا أمام تأملات وتساؤلات كثيرة تحيط بواقعنا الأدبي بعامة، وبواقع أدب الطفل بخاصة في حركتنا الأدبية المعاصرة.

ولنتساءل ونحن نبحث عن ملامح مستقبلية لأدب الطفل.

أولاً: كيف نكتب للطفل الآن؟ وما سلبيات الظاهرة؟ وما إيجابياتها؟ وما الوسائل والأدوات المقترحة لتجاوز الأزمة: ويندرج تحت هذا التساؤل عدة ظواهر وممارسات لا بد من إثارتها، ومعالجتها في ميدان الكتابة للطفل أو عن الطفل، وهي:

(أ) ظاهرة قصص الأطفال بين الواقع الجميل والخيال العايب!

(ب) ظاهرة قصص التاريخ ومحاولات تشويه الذاكرة!

(ج) ظاهرة قصص الخيال العلمي وحتمية تقريب الحقائق العلمية وتعميقها بأسلوب واقعي مشوق بعيد عن الإسفاف والابتذال.

(د) البرامج التليفزيونية وخطورة ألعاب الكارتون على التكوين الإدراكي للطفل.

ثانياً: التراث العربي والإسلامي وخصوصيته في تنمية المهارات الأدبية لدى الطفل مع ضرورة الاطلاع على جهود الأمم الأخرى في مجال ثقافة الطفل وأدب الأطفال، وهذا التراث حافل بالمادة الغزيرة التي تثري عالم الطفولة، وتسمو بخيال الأطفال وتُجمل واقعهم، وتصبح بديلاً عن الألعاب الكرتونية القائمة على الحيل والحُدَع، والتي لا تؤدي إلا دور التسلية والمتعة الوقتية، وتسحر قلوب وعقول الأطفال بلا أية ثمرة واقعية تربوية توجههم إلى السلوك الإيجابي في الحياة، وإنما تدرّب الأطفال على العنف، وعلى الحيل الخادعة، والميول العدوانية، وتتنوع هذه المادة التراثية - كما يقول د/ نجيب الكيلاني - «وعلى كتاب أدب الطفل أن يصوغوا من هذه المادة التراثية ما يروونه ملائماً من وسائل التعبير، والمشاهد الدرامية، والبرامج الإذاعية

والتليفزيونية ، وهذه المادة تتكون من المنابع التراثية التي تتشكل من فيوضاتها حضارة الأمة العربية والإسلامية وهي :

١ - قصص الأخبار والمغازي والمثل وحكايات الأبرار والصالحين وهذا قصص واقعي تاريخي ووصية «هشام بن عبد الملك» لمؤدب ولده تشير إلى ذلك المصدر المهم .

٢ - ما ورد في القرآن الكريم من قصص وأمثال ، وتقديم هذه القصص يتم في إطار الالتزام بالمفاهيم الإسلامية ، والبعد عن التفاصيل التي لا سند لها من التاريخ ، والتي حفلت بها الأناجيل ، وجاءت في نصوص «التوراة» وهي نصوص بينها وبين النص الصحيح مسافات وزيادات وإضافات .

٣ - ما ورد في الأحاديث النبوية من قصص ، وهو يحمل المغزى الإصلاحي ، والتكوين الاجتماعي والنفسي .

٤ - قصص الفتوحات الإسلامية ، وقصص ، الشعوب الأخرى - غير العربية - التي تم فتحها ونشر الإسلام فيها ، والقصص الشعبي .

٥ - قصص الأسفار والتجار والرحلات .

٦ - بعض قصص الجن والملائكة والسحر ، وتعرض في أسلوب تربوي يبصر الطفل بهذه العوالم ، وينزع من نفسه الخوف التقليدي ، ويطرد عنه تراكمات الأشباح والأساطير التي ترسبت في الذاكرة الجماعية والشعبية من حكايات وخرافات .

٧ - قصص على ألسنة الحيوانات والطيور ، بل والحشرات أيضاً .

٨ - الأناشيد والأغاني والأشعار ، ويمكن تأليف ما يناسب الطفل في مراحل عمره المختلفة ، لغة ، وفكراً ، وإيقاعاً ، وخيالاً ، وسلوكاً .

٩ - تقديم ما يناسب الطفل من الحكم والأمثال والخطب .

١٠ - تقديم ما يناسب الطفل من الألبان المفيدة «شعرا ونثرا» .

ثالثاً : التكوين الوجداني والعقلاني للطفل . . كيف؟ وما الوسيلة إلى ذلك؟

وهذا التكوين الذي يمثل أهم ملمح من ملامح مستقبل أدب الطفولة تتضافر في الحفاظ عليه ، والإعلاء من صرحه ، وتعميق قضاياها المحاور الآتية :

(أ) ضرورة حفظ الأطفال للقرآن الكريم في سني عمرهم الأولى من سن «الرابعة» عن طريق «التلقين» أو سماع تسجيلات القراء .

(ب) إعادة كتابة سير علماء الإسلام وقادته القدامى والمعاصرين في صيغة ميسرة تلتمز بحقائق التاريخ ، وتصب في قالب أدبي مشوق .

(ج) تقديم منجزات علماء العربية والإسلام في مجال العلوم التجريبية ، إلى جوار منجزات علماء الغرب والشرق في العصر الحديث . في أسلوب ميسر ، ولغة أدبية حوارية مشرقة .

(د) إنشاء أقسام لأدب الطفل بكلليات الآداب والتربية ، واللغات والترجمة ، واللغة العربية .

(هـ) إنشاء مجلة متخصصة تُعنى بأدب الطفل نظيراً وتطبيقاً ؛ لأن معظم المجلات الموجودة في الساحة بمنأى عن الصيغة الأدبية الحقيقية لأدب الطفل ، وكثير منها يعتمد على الترجمة والاقتباس والتعريب ، ويلجأ إلى الصبغة التجارية .

(و) متابعة وتقييم البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تقدم للأطفال في جميع الدول العربية والإسلامية عن طريق هيئة متخصصة في هذا المجال تكون في كل بلد .

(ز) متابعة ما ينشر بالصحافة اليومية ، وكذلك المجلات والدوريات موجهة

للطفل عنه، وله، ومنه، وتقويم هذا النتاج وتعديل مساره والتنبيه إلى خطورة الفاسد منها.

(ح) المناهج الدراسية في مراحل التعليم الأولى: الحضانية، والابتدائي، والمتوسط، عليها العبء العلمي والتربوي والنفسي للتكوين الفكري والأدبي والعلمي للطفل والشاب المسلم.

وهذا يتطلب إخلاص خبراء التربية ومشاركة كبار المبدعين لهم في تقديم المنهج الملائم بعيداً عن ترجمة النظريات والطرق والمناهج، التي صيغت في بيئات لا تتفق مع مكوناتنا الروحية والنفسية والاجتماعية، ويبقى الطفل جوهره الواقع وكنز المستقبل، وهو هبة من الله العلي القدير، وأمانة في أعناقنا، حملناها طواعية وحباً، والمحافظة عليها واجب ديني، وخلق إنساني، وتمسك بالوجود المثمر المعطاء.

(ب) سمات النص الأدبي للأطفال:

وحيث نتأمل المعايير السابقة للنص الأدبي، ندرك الأهداف التي تدفعنا إلى دراسته، والثمار التي نجنحها من هذه الدراسة، وتعود بالنفع على الطالب في جميع المراحل، أما النص الشعري الذي يقدم للأطفال في المرحلة الأولى من التعليم. فله مقومات تناسب عقلية الطفل في هذه المرحلة. ومنها:

(أ) الاعتماد على التكرار، فتكرار الكلمات في شعر الأطفال يكشف عن معانيها ويهيئ لهم إجادة النطق بها، وفي هذا التكرار تخفيف من تزامم الألفاظ في الأبيات، ومن المعروف أن التكرار لغير سبب بلاغي في شعر الكبار يعد عيباً من عيوب الشعر، ولكنه في شعر الأطفال يعد ضرورة لا بد منها.

(ب) يشترط في أشعار الأطفال أن تكون بها حركة، تتجلى في الانتقالات

التي يحسها الطفل حينما يتنقل به الشاعر من شيء لآخر . فإن كان في هذه الأشعار من الحركات، ما يمكن تمثيلها في أثناء الأداء، كان ذلك أدعى؛ لتأثر الأطفال وانفعالهم .

وفي أثناء ذلك تتجلى الحركة واضحة، وفي الإمكان أن يقوم الأطفال بتمثيل الأفكار التي يشير إليها في الأداء .

(ج) لا بد أن يكون الشعر الذي يقدم للأطفال مناسباً لهم في أفكاره وفي مستواه اللغوي فلا تقدم لهم النصوص الصعبة في ألفاظها وأفكارها .

* وأما عن موضوعات الأناشيد التي تناسب فترة الطفولة فهي تدور حول المظاهر الآتية . . وفق الاتجاهات النفسية التي درست نفسية الطفل :

١ - موضوعات تصف له وسائل الانتقال في المدينة أو القرية؛ لأنه يراها ويستخدمها ويسعده أن تتحدث عنها الأناشيد التي يغنيها ويحفظها، وهذا هدف جميل من مدارس النصوص .

٢ - موضوعات تتحدث عن الأقارب والجيران ومن إليهم موضحة العلاقات الطيبة التي تربط بينهم، ويمثل ذلك هدفاً تربوياً من أهداف تدريس النصوص الأدبية .

٣ - موضوعات تدور حول مظاهر النشاط في المجتمع، فهي تتحدث عن رجال الشرطة والأطباء والعمال، والزراع، والصناع، والمرضات، والمرضين، والمدرسين، وهذا هدف اجتماعي من أهداف تدريس النصوص يُعرف التلميذ على أحوال مجتمعه .

٤ - الموضوعات التي تتصل بأعمال التلميذ نفسه في المدرسة والمنزل والشارع، وتتحدث عن الآداب التي يجب أن يتخلق بها ليعيش سعيداً، وهذا هدف آخر من أهداف تدريس النصوص يكسبه الثقة في نفسه .

٥ - موضوعات وصفية تتناول البيئة التي يعيش فيها الطفل كوصف الحداثق،
والحقول، والأنهار، ويحسن أن تساق هذه الأوصاف مساق القصص .

٦ - موضوعات وطنية تحبب الطفل في وطنه . . وتحقق هدفاً عظيماً من أهداف
تدريس النصوص وهو الشعور بالانتماء إلى الوطن، وتربية غريزة الدفاع
عنه في نفوس الناشئ.

٧ - تقوية خيال التلاميذ باختيار موضوعات تجري على ألسنة الحيوانات
والطيور، وتصاغ في ثوب قصصي . . مثل حكايات أمير الشعراء شوقي
على ألسنة الحيوانات والطيور، وكل حكاية لها هدف، وترمز إلى حكمة .
ومعنى جميل يؤثر في نفس التلميذ الناشئ.

٨ - موضوعات تصف البطولات الدينية والوطنية، وبطولات النجدة
والشهامة، وحماية المظلومين، وغيرها من البطولات الخلقية حتى ينشأ
الأبناء على حب الإيثار والكرم والتضحية . والتطلع إلى المثل الأعلى في
الفداء والعزة والكرامة .

٩ - وضع نماذج من البطولة لهم في مثل سنهم . . حتى لا يشعروا بالضعف
تجاه الأبطال الكبار . ومن ذلك قول شوقي في قصيدته «مدعى»:

وكان يلقي الرعب في القلوبِ

بكثرة السلاح في الجيوب

وكلماً مر هناك أو هنا

يصيح بالناس: أنا أنا أنا

وقد نئى حديثه إلى صبيِّ

صغير جسم بطل قسويِّ

لا يعرف الناس له الفتوة
وليس ممن يدعون القوة
فقال للقوم سأوريكم به
فتعلمون صدقه من كذبه
وسار نحو الهمشري في عجل
والناس مما سيكون في وجل
ومدّ نحوه يميناً قاسية
بضربة كادت تكون القاضيه
فلم يحرك ساكناً ولا ارتبك
ولا انتهى من زعمه ولا ترك
بل قال للغالب قولاً لينا
الآن صرنا اثنين . أنت وأنا

(ح) نماذج من التراث في أدب الطفولة،

أولاً: من أدب الوصايا،

(وصية الرشيد لمعلم ولده الأمين)، قال الرشيد: يا أحمد: إن أمير المؤمنين قد دفع إليكم مهجة نفسه وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطه، وطاعته لك واجبة، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين! أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه).

ثانياً: من عيون التراث الشعري:

١- المحاوراة أو المراجعة: يقول الصنوبري في محاوراة مع وحيدته ليلي:

يا ابنتى أين غـبـت عنـدُ

ي رمضان قد حضرُ

ولقد كُنْتُ أنسنا

في عشـاياـه والبُكرُ

ولقد كُنْتُ بعتُ نُوْ

م لياليه بالسهر

واعتكاف على الدعـا

ء أو الدرّس للـسُّورُ

فترد عليه ابنته:

يا أبـي لـيـس عنـد مـنْ

مات علم ولا خـبرُ

لا هلال الصيام يُرُ

عى ولا الفطر ينتظرُ

لا فطور ولا سـحـو

ر لنا إن دنا السحرُ

درست يا أبـي المحـا

سن وأمّحت الصـورُ

٢ - يقول ابن الرومي موضحا ومجسدا مكانة الأبناء في نفوس الآباء :

وأولادنا مثل الجوارح أيها

فقدناه كان الفاجع البين الفقد

لكل مكان لا يسد اختلاله

مكان أخيه من جزوع ولا جلد

هل العين بعد السمع تكفي مكانه

أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي؟!

٣ - يروي الأبشيهي في كتابه «المستطرف من كل فن مستظرف» مقطوعة

شعرية يتمنى فيها الأب موت ابنته قبله خوفا عليها من تقلبات الزمن وأحداث

الحياة، حيث يقول:

أحب بنيّتي ووددت أني

دفنت بُنيّتي في قاع لحد

ومابي أن تهون عليّ لكن

مخافة أن تذوق الذل بعدي

فإن زوجها رجلا فقيرا

أراها عنده والهم عندي

وإن زوجها رجلا غنيا

فيلطم خدّها ويسب جدي

سألت الله يأخذها قريبا

ولو كانت أحب الناس عندي (١)

٤- يقول حطان بن المعلى في تصوير منزلة الطفل والحنو عليه وحسن رعايته :

أنزلني الدهر على حُكْمِهِ
من شامخ عالٍ إلى خَفْضِ
وغالني الدهر بوفر الغنى
فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر وياربِّمَّا
أضحكني الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا
رُدْدُنْ من بعض إلى بعضِ
لكان لي مضطرب واسع
في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم

لا امتنعت عيني عن الغمضِ
(انظر شرح ديوان «الحماسة» للمرزوقي).

٥- يقول أبو خالد القنائي في الرد على «قطرى بن الفجاءة حين طلب منه الخروج للقتال ، ومن أسباب عدم خروجه خوفه على بناته الضعاف يقول :
مصوراً حبه لبناته وخوفه عليهن في عاطفة متوهجة صادقة ومشاعر قلقة على مستقبل بناته الضعاف :

لقد زاد الحياة إلى حُبِّها
بناتي إنهن من الضعافِ
أحاذر أن يذقن البؤس بعدي
وأن يشربن رنقاً بعد صافِ
وأن يعرّين إن كسى الجواري
فتنبو العين عن كُرمِ عجافِ
وأن يضطرهن الدهر بعدي
إلى جلف من الأعمام جافِ
ولولاهن قد سوّمت مهري
وفي الرحمن للضعفاء كافِ
تقول بنيّتي أوّص الموالِي
وكيف وصّاه من هو عنك خافِ
أبانا من لنا إن غبّبت عنا
وصار الحي بعدك في اختلافِ

(ديوان الخوارج ص ١٢-١٣)

٦- يقول ابن رشيق القيرواني معبراً عن ضرورة تعلم الأطفال الشعر؛ لأنه
دواء النفوس والقلوب .

الشعر شيء حسنٌ

ليس له من حرجِ

فعلموا أولادكم

عقار طب المهج

٧- يقول : أبو فرعون الساسي مصوراً البؤس الذي يعيشه أطفاله - وهو في فقر شديد :-

وصبية مثل صغار الذر

جاءهم البرد وهو بشر

بغير قميص وبغير أزر

وبعضهم ملتصق بصدري

وبعضهم ملتصق بظهري

وبعضهم منحجر بحجري . . . الخ

* * *

٨- الأراجيز وفن الشعر التعليمي:

أ- ولابن سينا أرجوزة طويلة تتكون من ألف وثلاثمائة وستة وعشرين بيتاً تعمق العادات المحمودة والآداب السليمة عند الطفل بأسلوب تعليمي موجه وهي تعبق بالنصائح المقصودة لتهديب الأبناء، وغرس الخصال الحميدة في نفوسهم: ومنها ما يشير إلى طريقة التحدث مع الطفل الصغير:

ناغبيه بالأصوات في تعلم

كيما تدر به على التكلم

وامنعه أن يقصد أو أن يسألاً

حتى تراه يفعه قد اعتلى

ب - نظم أبان بن عبد الحميد اللاهقي «كليلة ودمنة» شعراً في لغة موزونة سهلة توافق عقل الطفل وإدراكه - ويمكن أن تكون نموذجاً للشعر المقدم للأطفال والكبار: يقول في مطلع أرجوزته الطويلة قيل إنها تبلغ عدة آلاف من الأبيات .

هذا كتاب أدب ومحنة

وهو الذي يدعى كليلة ودمنة

فيه ضلالات وفيه رشد

وهو كتاب وضعته الهند

فوصفوا آداب كل عالم

حكاية عن ألسن البهائم

فالحكماء يعرفون فضله

والسخفاء يشتهون هزله

وهو على ذلك يسير الحفظ

لذَّ على اللسان عند اللفظ

وقد نظم كليلة ودمنة شعراً: الشاعر المصري القديم الأسعد بن ممت وكذلك ابن الهبارية وسمى مؤلفه نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة .

(أ) الطفل وأغاني الترقيص:

* كانت الشيماء أخت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الرضاعة ترقصه في مهده وتقول:

هذا أخ لي لم تلده أمي

وليس من نسل أبي وعمي
فأئمه الله فيما تُنمى

(المستطرف من كل فن مستطرف ج ١ ص ١٤ للأبشيهي)

وقال : الحسن البصري يرقص ابنه :

يا حبذا أرواحه ونَفْسُهُ
وحبذا نسمة وملمسه
والله يبقيه لنا ويحرسه
حتى يجر ثوبه ويلبسه

(الغناء للأطفال عند العرب د/ أحمد عيسى بك ص ١)

* ويروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل على عمه الزبير بن عبد المطلب وهو صبي فأقعده في حجره وقاله له :

محمد بن عبد م
عشت بعيش أنعم
ودولة ومغنم
في فرع عز أسنم
مكرم معظم

(طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١٠)

* وأنشد الزبير بن عبد المطلب يقول لأخيه العباس :

إن أخي عباس عف ذو كرم
فيه عن العوراء إن قيلت صمم

يرتاح للمجد ويوفي بالذم
أكرم بأعراقك من خال وعم
* وفي محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني هذه الترنيمة التي تروى
على لسان أعرابية ترقص ابنة لها فتقول :
وما علي أن تكون جارياً
تكنس بيتي وترد العارياً
تمشط رأسي وتكون الغاليه
وترفع الساقط من خمارياً
حتى إذا ما بلغت ثمانيه
رديتها ببردة يمانيه
زوجتها مروان أو معاويه
أمهار صدق ومهور غاليه
(محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ج ١ ، ص ١٥٦).

(د) نماذج من الشعر المعاصر:

يحفل ديوان الشعر المعاصر بعطاء ثري في ميدان شعر الأطفال فلا يكاد يخلو
بلد عربي من شعراء شاركوا في هذا الميدان : وشعر المعاصرين مقدم للطفل
وليس مكتوباً عن الطفل مثلما كان عند الشعراء الأقدمين في تراثنا العربي .
وفي كتاب جماليات النص الشعري للأطفال : يقدم أحمد فضل شبلول
(٢٢) اثنين وعشرين ديواناً تتضمن أكثر من (٥٢٥) خمسمائة وخمسة
وعشرين نصاً شعرياً للأطفال .

ويقول المؤلف : إنّ هذه الدراسة تنطلق من الرؤية الإسلامية الصافية التي تنمى في صغارنا الإحساس والتذوق الجمالي للكون وللحياة ، وتبث فيهم قيم الحق والخير والجمال والحرية ، ومن هذه النماذج :

(١) يقول د/ إبراهيم أبو عباة من ديوانه «شدو الطفولة» :

من ينبت الأشجارا وينزل الأمطارا ويملك الأعمارا؟

هذا هو الإله ليس له أشباه

ندعوه في علاه نقول يا الله

من يرزق الفقيرا ويجبر الكسيرا ويطعم الطيورا

من الذي يشفينا من فضله يعطينا من ناره ينجيننا

من يرزق العبادا ويحفظ البلادا ويمنح الأولادا

هذا هو الإله ليس له أشباه

ندعوه في علاه نقول يا الله

٢- يقول الشاعر/ عبد العليم القباني متأثرا بأحمد شوقي ومحمد عثمان جلال في قصيدته «العصفور والحية» وهي حكاية رمزية يختتمها بحكمة قد لاتناسب عقلية الطفل :

على الأغصان عصفورُ

صغير السن مغرورُ

رأى في الحية الرقطا

ء حسنا فهو مسرورُ

ومما يدري بأن السم

تحت الناب مستورُ

وأقبل نحوها يسعى
فنادته العصفافيرُ
تحذره من الأفعى
فإن حنانها زورُ
فلم يعبأ بما نصحت
وللأوهام تأثيرُ
وغنى حولها طربا
فأمسى وهو مقبورُ
ومن يفتربالأوها
م تصدمه المقاديرُ

٣- يقول الشاعران : محيي الدين سليمة وموفق سليمة في ديوانهما
«أغاريد الأطفال» وهما يستوحيان أحاديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم -
في كثير من التجارب الشعرية ومنها هذه التجربة :

ميسون تسأل أخاها الصغيرُ
وخصلة من شعرها تطيرُ
أراك تغسل اليدينُ
بالماء يا حسينُ

أجابها ، وبسمة تعلو محياه النضيرُ

محمد «صلى الله عليه وسلم» قد علمنى
وهكذا أدبني . . . أن أغسل اليدين

قبل الأكل ، ثم بعده ، كما ترين
وباليد اليمنى طعامي آكله
مما يليني ، جانبي لا أغفله
اللحم لا أجمعه من آخر الصحن
كأنه يقول لي : دعني

وحكمة لم أنسها للبطن
فثلثه لنفسي . . وثلثه لمأكلي . . وثلثه لمشربي
أدبتني وهكذا علمتني
صلى عليك الله يا خير نبي

* * *

٤ - يقول الشاعر / محمد السنهوتي من ديوانه «ظماً السحاب» وهو شعر
قصصي موجه إلى جميع الأجيال ولكنه يتجه إلى الأطفال في كثير من تجاربه
وموضوعاته .

يقول من قصيدة بعنوان «سر سعادته» :

بدا في الروض عصفور

يغني وهو مسرور

يصف اللحن ألوانا

فمنها الزهر والنور

ويمضي الموج رقراقا

ويصغي وهو مبهور

* * *

أجب يا طائري ماذا
وراء اللحن مستور
يغيب الصفوع عن عيني
وأنت العمر مسرور
فقال: الكون لي روض
ومالي دونه سور
ولا أشقى إذا غنى
معي في الأيك عصفور

* ويقول الشاعر «علي الشرقاوي» من البحرين مصوراً «المقلمة» على
لسان أحد التلاميذ وفي ذلك تعبير عن التحام الطفل بالأشياء والأدوات التي
يتعامل معها في حياته اليومية :

عندي يا أمي مقلمة
مثل أزاهير البستان
الأحمر يضحك للأخضر
والأزرق ينظر للأصفر
والبني الداكن يصحو . . ويكلمني :
ارسمني في لون بلادك
إن بلادك يا ابني أحلى البلدان
عندي يا أمي مقلمة
ما أجملها بالألوان

✽ والشاعر مصطفى عكرمة من سوريا يكتب قصيدة طفولية بعنوان «بابا»
يقول على لسان سلوى :

قالت سلوى هذا بابا

حمل الحلوي والألعابا

بابا رجل حَسَنُ الخُلُقِ

يطلب منا قول الصدقِ

بابا الغالي قد علّمنا

أنتم وأنا نبني الوطننا

ومن قصيدة له على لسان طفل بلغ سن السادسة يقول :

سِتُّ سِنينِ

أصبح عمري

صرتُ أسَوي

بيدي شعري

ألبس وحدي

دومًا ثوبي

أعرف كيف

أسَوي كتبتي

جئتُك وحدي

يا مدرستي

أهـدي زهـرا
لمعلمـتي
ست سنـين
أصبح عمري
لما اسـمَعُ
جرس الهـاتفِ
أرفع أسـأل
من ذا الهـاتفِ
ست سنـين
أصبح عمري
أكتب درسي
قبل النوم
أرضى مسامـا
طول اليـوم
ست سنـين
أصبح عُـمري

الهوامش والمراجع

- (١) انظر: الإسلام والطفل، د/ عبد الرزاق حسين - إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- (٢) الطفولة والأمّية، د/ أحمد زلط - سلسلة اقرأ، عدد ٥٧٧، دار المعارف القاهرة.
- (٣) انظر: أدب الأطفال في ضوء الإسلام، د/ نجيب الكيلاني.
- (٤) لمزيد من التفصيل حول أدب الطفولة في تراثنا العربي انظر:
- كتاب: أدب الطفولة «أصوله ومفاهيمه» رؤى تراثية، للدكتور أحمد زلط.
- كتاب: الغناء للأطفال عند العرب لأحمد عيسى بك.
- (٥) سمات النصّ الأدبي للأطفال . د/ سعد أبو الرضا - نشر رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- (٦) المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي.
- (٧) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي.
- (٨) ديوان الخوارج: جمع وتحقيق د/ نايف محمود معروف - دار السيرة: بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٩) الآفاق الموضوعية والفنية في شعر الخوارج : د/ صابر عبد الدايم ، دراسة
مستقلة من العدد العاشر من مجلة كلية اللغة العربية - بالمنوفية - جامعة
الأزهر ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

(١٠) العمدة : لابن رشيق .

(١١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني .

(١٢) جماليات النص الشعري للأطفال : أحمد فضل شبلول .

(١٣) ديوان : شدو الطفولة : د/ إبراهيم أبو عباه .

(١٤) ديوان : ظمأ السحاب : محمد السنهوتي .

(١٥) انظر جريدة : المدينة السعودية ، الصفحة الثقافية ، الأحد
١٤١٩/٧/١٩هـ .

رابعاً : يا أدباء الإسلام انتبهوا ...

هذه هي ملامح الواقعية المحزنة

يحلو لطائفة غير قليلة من الأدباء العرب فى العصر الحديث أن يتفاخروا بأنهم واقعيون ، وإذا ما لاحت فى خيال أحد الأدباء بارقة من خير ، أو توسطت أفقه سحابة من أمل ، اتهموه بالتخلف . . . والتوقع . . . والسذاجة ، وذلك لأن الواقعية التى تشربوها من غير أن يدركوا عناصرها . . . ترى الحياة من خلال منظار أسود ، وترى أن بذرة الحياة تكونت فى حقل الشرور . . . وأنبتت شجر اليأس ، وثمارها القلق والخوف والفرع والتمزق النفسى وفقدان الثقة فى الحياة وفى الأحياء .

وسيان فى المنظور للحياة - على خلاف فى التصور والأداء والنتيجة - الواقعية الأوروبية ، والواقعية الاشتراكية ، والطبيعية . . . والوجودية .

فالواقعية ممثلة فى «بلزاك» وفى الفيلسوف الإنجليزى «هوبز» وفى «فولتير» الذى مهد لها بقصائده المسماه «أحاديث عن الإنسان» وفى «أميل زولا» الذى يرى أن الإنسان حيوان تسييره غرائزه وحاجاته العضوية .

هذه الواقعية التى أغرت عقول المفكرين والأدباء العرب والمسلمين . فإذا بهم يهربون من تقليد التراث العربى إلى تقليد الواقع الغربى . . . وكانت عاقبة هذا التقليد أن رأيانهم يصطنعون فى أدبهم «شعراً ونثراً» صوراً لا تمت بصلة إلى أعرافنا الأدبية ، وتقاليدينا الإسلامية . . . ومنظور ديننا الحنيف إلى واقع الحياة .

لنتأمل معاً مبادئ هذه الواقعية المحزنة لنرى إلى أى مدى جرفتنا هذه المبادئ حتى أصبحت من البديهيات فى رؤيتنا للحياة . . . وابتعدنا باعتناقنا لهذه الرؤية الواقعية المستوردة . . . عن آفاق رؤيتنا الخاصة النابعة من تراثنا وحضارتنا وديننا وظروف بيئتنا . . . ولون حركتنا فى الحياة التى صبغت بصبغة الإسلام .

«ومن أحسن من الله صبغة»؛

هذه المبادئ يصوغها «بلزك» فى صورة حديث يتوجه به «فوتران» وهو مجرم عاتى فار من السجن . . . إلى «راستنيك» طالب الحقوق الشاب الذى تنمو فى وجدانه صورة خيرة عن العالم ؛ وتتجمع فى استعداداته خيوط الدفاع عن الحقوق الإنسانية .

«راستنيك» إذن صورة للخير القادم ، لوحة الضوء النابع من قلب جبال الظلام و«فوتران» صورة مكبرة للواقعية القاسية البائسة التى تدمر كل شيء!!!

ماذا قال «فوتران» «لراستنيك»؟

قال «أتدرى كيف يشق الناس سبيلهم فى هذه الدنيا؟ يشقونه ببريق العبقرية أو بالمهارة فى الخسة!!!» وبريق العبقرية لا ينكره إلا من به رمد فى العين ومرض فى القلب!! ولكن . . . ما معنى المهارة فى الخسة؟ وما ثمرتها؟ وما صورة المجتمع الذى تشيع فيه؟

ويرسم «فوتران» طريق الوصول للهدف فى الحياة من أقرب منحنى وبأسرع وسيلة . . . والهدف هو الثروة العاجلة . . . والمركز الكبير الذى يأكل الناس فى سبيله بعضهم البعض الآخر!!!

«كالعنكبوت الذى يجتمع فى زهرية واحدة»:

قال «يجب أن تسقط بين صفوف البشر كقنبلة أو أن تتسلل بينها كوباء .
أما الشرف فلا فائدة فيه»!!

وهكذا النجاح فى الحياة فى منظور الواقعيين صراع وخداع . . . ؛
جراد منتشر يأكل الأخضر واليابس ، أو غل يغزو الأنوف والعيون . . . لحظة
الغفوة!!!

ويتابع «فوتران» قائمة المبادئ أمام مخيلة «راستنيك» فيغريه بأن يكون
مخادعاً حتى يستطيع أن يكون ثرياً . . . يقول:

«إذا كنت تريد أن تثرى سريعاً فمن الواجب أن تملك شيئاً . . . أو تتظاهر
بأنك تملك شيئاً» .

ولا يكتفى بالخداع والتمويه بل يرشده إلى ممارسة الفعل فى غيبة عن
العيون اليقظى

«يجب عليك أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى ، ولكن يجب عليك أن
تعرف كيف تشطفهما بعد ذلك . ففى هذا جماع الأخلاق فى عصرنا!!!» .

ولنتساءل: أى متعة فى الحياة هذه التى تنبت فى أرض ملوثة . . . وتثمر ثمرًا
قاتلاً؟

أى سعادة فى الحياة وأى واقع . . . هذا الذى يتسلل بين الناس
كوباء يمتص أحاسيسهم ويوقعهم فى شرك الخداع؟

ثم يختم «فوتران» وصاياها إلى «راستنيك» وينصحه أن يكون «إمعه»
فيقول: «وإذا كانت لى نصيحة أهدىها إليك فهى ألا تثبت عند آرائك أكثر من
ثباتك عند أقوالك!!!

وعندما يسألك أحد عن رأى بعُه له!!

والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه هو أبله يعتقد أنه معصوم من الخطأ!!!

وليست هناك مبادئ . . . وإنما هناك ظروف!!!»

وبعد . . .

فهذه صورة للواقعية أعرضها أمام الشباب المسلم المفكر الغيور على قيمه وتراثه .

فليتأمل خطوطها العريضة . . . وألوانها المعقدة . . . وخيوطها المتشابكة ، ويحلل ما وراء كل كلمة وكل عبارة . . . وكل مبدأ . . . من هذه المبادئ التى ظن أصحابها أنهم قد سبروا غور الحياة .

وفى زعمهم أن أى تصور للحياة غير هذا زائف وساذج . . . وباطل!! وبئس ما زعموا . . .

وأول ما يجب أن يستيقظ له أدباء الإسلام هو موقف الواقعية من دور الدين فى تهذيب النفس البشرية وإصلاح المجتمع . . . فالدين فى منظورهم غير قادر على تغيير النفس التى انطوت على هذه القيم الفاسدة التى يقرها «فوتران» قائلاً «ولم يستطع الوعاظ تغييرها» .

والزواج الشرعى . . . وهو قيمة اجتماعية سامية شوه صورته الواقعيون انطلاقاً من مفهومهم الفاسد للحرية . . . ، يقول «بلزك» على لسان امرأة لم توفق فى حياتها الزوجية

«الزواج على نحو ما يطبق اليوم يبدو لى دعارة مشروعة تنبع منه كل آلامنا» و جوستاف فلوير» فى روايته (مدام بوفارى) يشوه صورة الدين ودور رجاله فى الحياة!!! و«ديدرو» فى قصة (الراهبة) ينظر إلى الدين من المنظور نفسه الذى يشكل رؤية الحضارة الحديثة وكذلك «موليير» فى مسرحيته

«المتزمت) و (طرطوف) وأيضًا «شوسر» فى قصة (صاحب الطاحون)
يتجهان إلى هذا المنحنى فى فهمهم المبتور لرسالة الدين فى الحياة!!!

وهذا الاتجاه الذى يشكل سمات الفكر الحديث منذ قيام النهضة العلمية فى
أوروبا . . . واتكاء الأدب على حقائق العلم بتوجيه من «أرنست رينان»
و«وتين» و «جاستون بارى» و «يرونتيبير» وغيرهم .

. . . يعد هذا الاتجاه أخطر قبلة توجهها الواقعية إلى مجتمعنا الإسلامى .
بل أشرس وباء يتسلل فى كيان الشخصية الإسلامية، ومن العجيب أن هذا
الوباء الفكرى والنفسى تزامن مع هجمة الاستعمار الشرسة على كيان الأمة
العربية والإسلامية!!!

فهل نعالج أنفسنا أم نستسلم للوباء؟ ونحيا كالعناكب يلتهم بعضها البعض
الأخر كما قال «فوتران»: «إننا فى فهمنا للواقع يجب أن نطلق من قيمة كبرى
أرساها الإسلام متمثلة فى قول الحق جل وعلا: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا
سَعَى. وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى﴾ (النجم: ٣٩، ٤٠).

ويجب أن نطلق من أمره الإلهى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢) . فالتكامل . . .
والتسامح . . . والعمل الصالح . . . والإخلاص . . . والإيمان . . . مصابيح
وهاجة فى طريق الحياة تضيء لنا زوايا الواقع وأفاقه . . . وتجمله . . . وتفتح
مغاليق النفوس والقلوب لتفكر فى صياغة المستقبل

حتى نغرس شجرة مكان التى اقتلعتها الريح العقيم . . . أو أكلتها السنون أو
قطعتها أيدي أعداء الحياة .

حتى نعمق مجرى النهر الذى تراكمت فيه الرمال والصخور . . .
وعششت فيه الطحالب . . .

حتى نحیی موات النفوس والأرض . . . بانفعالاتنا المسيطرة على ما تنفعل به . . . وبما تجود به من حب وسخاء وسمو . . . وتضحيات ، وبعرقنا الصادق فى إعادة البهجة والخضرة إلى وجه الحياة .

هذه هى واقعیتنا - نحن المسلمين - وما أبعدنا فى منهجنا عن هذه الواقعية الغربية التى ترى الشجاعة والاستهانة بالموت یأساً من الحياة!!!! وترى الكرم أثرة تأخذ مظهر المباهاة!!!

وترى المجد تكالبا على الحياة وإيهاماً بدوامها واستمرارها!!!!

وترى القيم الأخلاقية كلها أغلفة نحيلة لا تكاد تخفى الوحش الكامن فى الإنسان!!!!

إن هذه الواقعية المريضة ليست صورة صادقة لواقعنا الاجتماعى أو النفسى أو الأخلاقى . فكيف نشاهدها مجسمة فى آثارنا الأدبية من شعر وقصة ومسرح ورواية؟ .

وقد كادت تشعب بهذه المبادئ أفكار عامة الناس . وعقول الناشئة من شبابنا وذلك ما نشاهده فى المسلسلات - والمسرحيات . . . والأفلام التى راجت فى وطننا العربى والإسلامى!

إن الرؤية الأدبية تنبع من استقلال الشخصية . . .

فهل نلمس بصمات الشخصية الإسلامية والعربية فى أعمالنا الأدبية؟

هل نعيد صياغة فكرنا بما يتفق مع ملامح هذه الشخصية؟

حتى لا تفترسنا الواقعية المريضة المحزنة؟

خامساً: الأدب الإسلامي، آفاقه وحدوده (رؤية واقعية لمؤتمر الأدب الإسلامي بجامعة عين شمس)

إن الحركة الأدبية المعاصرة في حاجة إلى ترشيد، وإلى بحث عن منابع الهوية العربية والإسلامية التي تجعل من الأدب نبضاً حياً لواقع الأمة الإسلامية . . . كما أراد الله لها - خير أمة أخرجت للناس .

وإن «مؤتمر الأدب الإسلامي» الذي عقد بكلية الآداب جامعة عين شمس - في ربيع الثاني ١٤١٣ هـ (٢٣ - ٢٥) الموافق أكتوبر سنة ١٩٩٢ (٢٠ - ٢٢) يعد أهم الظواهر الحركية الثقافية الدافعة إلى إيجاد ملامح لهويتنا الأدبية في عالمتنا العربي والإسلامي .

فهوية الأديب المسلم في أي مكان على وجه المعمورة تتشكل وتنطلق من نبع إيمانه الفياض بالتسليم المطلق لخالق الكون جل وعلا، وهذه الانطلاقة الإيمانية تمتزج بالتأمل في مشاهد الكون، والنظر الثاقب في ملكوت السماوات والأرض، واستجلاء معالم القدرة الإلهية في صنعة هذا الكون البديع المتناسق، والأديب المسلم وهو في غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لا يكون بمعزل عن واقع الحياة، ومشاغل الإنسان وآماله وأحلامه، فهو في إيمانه يتأمل ما خفى من أسرار الكون .

وهو في تأملاته يستجلي أسرار الحياة، ويبحث عن منافذ الخلاص للإنسان عبر رؤية إسلامية متميزة تصاغ معالمها في قالب فني مؤثر^(١) .

(١) انظر ص ١٨ من هذا الكتاب [معالم التجربة الأدبية].

هذه بعض معالم الهوية التي حاول مؤتمر الأدب الإسلامى صياغتها وتشكيلها . . . وقد سبقته عدة مؤتمرات فى «الرياض» و«تركيا» و«الهند» قامت بتنظيمها «رابطة الأدب الإسلامى العالمية» بالتعاون مع «رابطة الجامعات الإسلامىة»

وقد دارت أبحاث «مؤتمر الأدب الإسلامى» حول عدة محاور وهى :

أولاً: آفاق الأدب الإسلامى وحدوده:

وقد قدم الباحثون (١٥) خمسة عشر بحثاً فى هذا المجال الخصب .

ثانياً: موقف الأدب الإسلامى من الاتجاهات الأدبية والنقدية المعاصرة:

وقدم الباحثون (١٤) أربعة عشر بحثاً فى هذا المجال المهم .

ثالثاً: آداب الشعوب الإسلامىة... الناطقة بغير العربىة:

وقدم الباحثون (١٤) أربعة عشر بحثاً فى هذا المجال الرائد والمهم .

رابعاً: دراسات فنية فى الأدب الإسلامى:

وقدم الباحثون (١٤) أربعة عشر بحثاً ضافياً رصدت علاقة الأدب الإسلامى بالبيان القرآنى، والقصة القرآنية، والبيان النبوى، وكذلك رصدت إبداعات الشعراء الإسلامىين القدامى والمعاصرين .

وقد ألقى الباحثون ما توصلوا إليه من فكر دقيق ورؤى أدبية ونقدية فى جو من الحوار العلمى المثمر الهادف بعيداً عن التعصب والهوى .

ومن أهم القضايا التي أثارها الجدل الطويل . . قضية العلاقة بين الأدب العربى والأدب الإسلامى . . حيث فجر الدكتور «مصطفى الشكعة» أستاذ

الأدب العربي بجامعة عين شمس هذه القضية حين قال: «إن الأدب العربي كله أدب إسلامي شعرا ونثرا. . وأثار هذا الرأي في صورته التعميمية ثائرة كثير من الحضور. . ، حيث لم يستثن الدكتور «الشكعة» إلا نماذج قليلة من «الخمريات»، وبالغ في موقفه حين دافع عن شعراء المجون والزندقة مثل «أبي نواس»، و«بشار بن برد»، و«أبي العلاء المعري».

وقام بمحاورته كاتب هذه السطور، ثم ناقشه في عنف وحمية وغيره على مسيرة الأدب الإسلامي د/ حسن بن فهد الهويمل من السعودية .

قد كان البحث الذى قدمه د/ محمد بن مريس الحارثي من السعودية خير رد منطقي وعلمي - على ما أثاره د/ الشكعة من لبس وحيرة وتعميم

والبحث يقع فى «٢٧» سبع وعشرين صفحة «فولسكاب» . . ويقول الباحث فى ثنايا بحثه محمدا ماهية الرؤية الإسلامية فى الأدب . . وبالتالي محمدا الآفاق التى يحلق فيها الأديب المسلم . . يقول بعد أن عرض القضايا الأدبية والفكرية التى أثرت فى مسيرة التوجهات الفكرية والأدبية العربية .

«ولما كان الأدب نشاطا إنسانيا مهما فى منظومة المشروع الحضارى العربى، فإن الاهتمام به قد نبع عند أصحاب الدعوة إلى تأصيل مذهب إسلامى فى الأدب من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، وهذا الالتزام بالتصور الإسلامى لهذه الحقائق الكبرى فى الوجود يختلف فى جوهره ومرجعياته المعرفية عن الالتزام الشيوعى والوجودى . . الذى سبقت الإشارة إلى طبيعتها - فى البحث - لأن الانتماء الإسلامى ليس انتماء إلزاميا، وإنما هو التزام إيماني بإرادة الفرد وحرية» ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

فهو تصور ينبثق فى الضمير، ويتفاعل مع المشاعر، ويتلبس بالحياة، وهو وشيجة حية بين الإنسان وخالق الوجود وهذا الانتماء الإيماني الروحي

يستتبعه تطبيق عملي لسنن الإسلام، والتزام بتأديتها على وجهها الصحيح، ومن هنا يصبح الالتزام في المفهوم الإسلامي التزاماً ذاتياً، إذ هو نتيجة طبيعية للانتماء الإسلامي والإيماني، هذا الانتماء الذي ربط القول أياً كان بالخيرية لقول - صلى الله عليه وسلم - في حديث البر بالضيف والجار «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» وفي رواية «أو ليسكت» (جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري).

ومن هنا يتضح أن الإسلام هو الذي كون روح المسلم وعقله بمادة الوحي الربانية وما دار حولها من حركة فكرية استمدت مقوماتها من ذلك المصدر الأساسي الذي يمثل مصدر المعرفة الحقيقية عند الأديب المسلم.

وقد أثار د/ محمد بن مريس الحارثي . . قضية نقدية وهي «التوفيق بين العقيدة واللغة» في الأدب الإسلامي وأثار إشكالية نقدية حين تساءل:

هل ينتمي الأدب الإسلامي إلى العقيدة الإسلامية بمفهومها الأخلاقي الواسع - أم إلى اللغة التي كتب بها؟ وهو يرى أننا إذا أردنا التوفيق في قضية الأدب الإسلامي . . فقد نطلق على آداب الشعوب المسلمة الناطقة بغير العربية «آداب الشعوب الإسلامية» أو «آداب الأمة الإسلامية» وبهذا نسمح للانتماء اللغوي أن يأخذ مكانه الذي لا ينبغي أن نغفله في قضية الانتماء الأدبي .

والحقيقة أنه لا إشكال في قضية التوفيق بين العقيدة واللغة . . فالعقيدة مصدرها واحد . . ومعالمها محددة في أي مكان وفي أي زمان «لا تبديل لكلمات الله» وأما كيفية التعبير عن التجارب الأدبية في ظل التصور الإسلامي فهي تختلف من لغة إلى أخرى . . معجماً وتراكيب . . وخيالاً وإيقاعاً . . فلكل لغة خصائصها الفنية ومعالمها الأسلوبية، ولكن الرؤية الإسلامية لا تتغير في مضمونها وإنما الذي يتغير هو الشكل الذي تصب فيه هذه الرؤية الدائرة في فلك التصور الإسلامي، ومن هنا أرى وهو الرأي الذي

ذهبت إليه حين ناقشت الباحث وحاورته عقب إلقاء بحثه - أن مسمى الأدب الإسلامي «هو الأنسب والأعم» وهو لا يلغى اللغة ولا يصادر آداب الأمم الأخرى التي تتكى على معالم الرؤية الإسلامية وأبعادها .

والباحث قد أشار إلى هذا حين تعرض للآفاق الزمانية والمكانية التي يتحرك في دائرتها الأدب الإسلامي فقال :

والآفاق الزمانية التي يتحرك في دائرتها الأدب الإسلامي آفاق رحبة تمتد من الحياة الدنيا إلى ما بعد الموت فتعطي بذلك للأديب مدى واسعاً يربط زمانياً بين الماضي والحاضر والمستقبل ربطاً متساوقاً، أما الحدود المكانية فإن منهج الإسلام الفكري قد أعطى الأديب حرية في حركته المكانية التي تمتد إلى آفاق الإنسانية الواسع ، فالأدب الإسلامي أدب موجه إلى الناس كافة ، وهو يحمل رسالة إنسانية مهمة هي رسالة الإسلام ، وعلى هذا فإنه يفترض في الأدب الإسلامي أن يكون مؤهلاً للتأثير والتأثر .

للتأثير في آداب الأمم الأخرى وفي سلوكيات شعوبها ومجتمعاتها لما يحمل من دعوة صادقة إلى الخير ، وللتأثر . . لآفاقه التي تستوعب التجارب الإنسانية السوية .

وفي المحور الأول «آفاق الأدب الإسلامي وحدوده»:

قدم الباحث الدكتور / «عبد القدوس أبو صالح» نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، بحثاً عالج فيه «قضية الأدب الإسلامي» قديماً وحديثاً . . . ومن أهم جوانب هذه القضية التي أثارها . . أن الأدب الإسلامي «أدب مضمون بالدرجة الأولى» . . فليس هناك - في رأيه - موضوع يحظر على الأديب الإسلامي أن يتناوله في قصيدة أو قصة أو مسرحية . وإنما الشرط الوحيد الذي يجعل المضمون إسلامياً هو أن ينطلق الأديب من التصور الإسلامي السليم للكون والحياة والإنسان .

وحتى لا يتهم الباحث بالبعد عن جماليات الفن الأدبي . يؤكد على ضرورة توشية العمل الأدبي بالمقومات الفنية فيقول :

«ليست إسلامية المضمون شفيعة للأديب المسلم أن يقصر في جمالية الشكل ولا في التجويد الفني» فذلك مما يزرى الأدب الإسلامي ويضره ، ويكون حجة عليه في يد خصومه ، بل إن الأديب المسلم مدعو أكثر من غيره إلى أن يبلغ قمة الروعة في الأداء الفني حتى يكون أدبه شرارة توقظ القلوب بحرارة التجربة ولهب الإبداع ، ونورا يسير على سناه المسلمون ليخرجوا من تيه الضياع .

ويرصد الباحث د/ عبد القدوس أبو صالح عدة خصائص للأدب الإسلامي - ويقول عنها إنها خصائص فنية - وهي في الحقيقة يمتزج فيها الفن بالموضوع . . فهي خصائص موضوعية . . أو توصيفية تميز الرؤية الإسلامية عن غيرها من الرؤى الفكرية والأدبية . . وتبقى الخصائص الفنية في قيمها الجمالية في حاجة إلى تجلية نقدية توضح موقف الأديب المسلم من الطبيعة ، ومن توظيف التراث ومن الصور الأدبية ، ومن الأشكال الفنية المستحدثة في الأدب المعاصرة ، فخصائص الرؤية الإسلامية التي تعد محور الأدب الإسلامي تتجلى في الآتي :

١- **الأدب الإسلامي** : أدب رباني يقوم على تصور عقدي ثابت هو التصور الإسلامي السليم .

٢- هو أدب ملتزم بالإسلام ، والتزام الأديب المسلم التزام طوعي . نابع من إيمانه وعقيدته ، ولذلك فهو بعيد عن الإلزام القسري الذي نجده في مذهب الواقعية الاشتراكية قيذا مفروضا على الأديب من الخارج ، مما يحد من حرية الأديب ويجعل أدبه مصطنعا زائفا .

٣- وهو أدب شمولي واسع الآفاق ، يستمد شموله من شمول الإسلام لكل شئون الحياة ولكل شئون المسلم .

٤- وهو أدب متوازن يستمد توازنه ووسطيته من وسطية الإسلام، فهو يوازن بين المضمون والشكل، وبين المثالية والواقعية، وبين أشواق الروح ونوازع المادة، وبين التراث المعاصر.

٥- وهو أدب إنساني بمقدار ما في الإسلام من إنسانية.

٦- وهو أدب عالمي ما دام أدبا إنساني النزعة ولأنه أدب الشعوب الإسلامية بمختلف أجناسها ولغاتها. ولأن خصائص هذا الأدب هي الخصائص المشتركة لأداب هذه الشعوب جميعا.

٧- وهو أدب متصل عبر القرون. فليس مذهباً عارضاً ولا بدعة مستحدثة.

٨- وهو أدب هادف: إذ يشكل قسم كبير منه ما يسمى بأدب الدعوة الإسلامية، وهو يهدف إلى صياغة الوجدان الإسلامي، وبناء الشخصية الإسلامية.

وفي هذا المحور الأول من محاور «الأدب الإسلامي» قدمت الأبحاث التالية:

- * مفهوم الأدب الإسلامي وخصائصه د/ حسن الأمrani - المغرب .
- * من سمات الأدب الإسلامي د/ مصطفى عبد الواحد - السعودية .
- * رؤية في آفاق الأدب الإسلامي وحدوده د/ محمد بن مريسي الحارثي - السعودية .
- * من سمات الأدب الإسلامي د/ جعفر ميرغني - السودان .
- * رواية الاستدعاء التاريخي عند نجيب الكيلاني د/ حلمي محمد القاعود - مصر .
- * قضية الأدب الإسلامي د/ عبد القدوس أبو صالح - سوريا .
- * آفاق الشعر الإسلامي وحدوده د/ عيد علي بليغ - مصر .

- * آفاق الأدب الإسلامي وحدوده د/ القاسم البيهقي المختار- النيجر .
- * آفاق الأدب الإسلامي وحدوده د/ عبد الرحمن طيب بفكر- اليمن .
- * إيقاع الشعر الإسلامي في عصر الانتفاضة د/ عبد الخالق محمد- فلسطين (غزة) .
- * مفهوم الأدب الإسلامي عند المستشرق الأمريكي «جروبنوم د/ عبده زايد- مصر .
- * مكانة الشعر الإسلامي في مسيرة الحياة الأدبية د/ حسن بشير- الإمارات العربية المتحدة .
- * ملاحم الأدب الإسلامي عبر العصور الأدبية د/ شوقي حمادة- مصر .
- * دور الأدب في تكامل إسلامية المعرفة د/ أحمد السيد أحمد- مصر .
- * سمات الأدب الإسلامي العامة د/ أحمد عبد ربه مبارك- مصر .

أما المحور الثاني من محاور قضايا الأدب الإسلامي:

فقد دارت أبحاثه حول «موقف الأدب الإسلامي من الاتجاهات الأدبية المعاصرة» .

وقد تناول الباحثون في هذا المحور . . الفنون الأدبية في ظل التصور الإسلامي . . فكتب د/ غازي طليمات في قضية «الإسلام والمسرح» وركز بحثه في قضية أدبية ملحة . . وهي «نحو منهج إسلامي في المسرح» .
ويقول الباحث موضحاً موقف الإسلام من المسرح . ومن الأدب المسرحي .

أما التأليف المسرحي أي كتابة المسرحيات نثراً أو نظماً فإنني لم أجد من يحرمه أو يستنكره ما دامت النصوص المنشورة صادقة في تصوير التاريخ

الإسلامي هادفة إلى تقريب مراميه السامية من القراء . . لأنه شكل من أشكال
القص .

ووضعا للحق في نصابه أقول إن معالي الأستاذ الدكتور «عبد الله بن
المحسن التركي» رئيس رابطة الجامعات الإسلامية» قد اتفق مع ما ذهب إليه
د/ غازي طليمات - وحث أدباء الإسلام على إبداع النصوص المسرحية الدائرة
في فلك التصور الإسلامي . . ورأى ألا يشغل الأدباء الإسلاميون أنفسهم
بإشكاليات التمثيل . . وغير ذلك . . فالأولى هو كتابة النصوص الجيدة
المؤثرة .

ويرى د/ غازي . . أن، وسيلة التعبير التي تصلح للمسرح الإسلامي -
كائنا ما كان الشكل الذي يهتدى إليه - هي الفصحى لا سواها . . لأسباب
كثيرة، أهمها ثروتها وغزارة مفرداتها، وتنوع أساليب القول فيها، وانتشارها
الواسع في العالم الإسلامي كله، وارتباطها بالقرآن الكريم والحديث
الشريف .

وعلى الرغم من جدية البحث وغزارته فإن الباحث لم يحدد موقفه من
النصوص المسرحية التي أبدعها الأدباء والشعراء المحدثون . . ومنها ما يوافق
التصور الإسلامي . . في بعض معالمه، ومنها ما يتصادم معه، وقد غلب
الحس التنظيري على الباحث . . وهذه سمة غالبية على كثير من بحوث هذا
المؤتمر .

وكتب د/ رجاء جبر . بحثا عن «منهج الأدب الإسلامي في القصة» .

وقدم د/ محمد رجب البيومي بحثا عن «منهج الأدب الإسلامي في السيرة
الذاتية» وهو بحث شائق يطمع فيه الباحث إلى كتابة السيرة الذاتية وفق
التصور الإسلامي بعيداً عن الإسفاف وتعرية الذات . . ويذهب الباحث إلى
أن هذا الإسفاف في كتابة السيرة الذاتية تقليداً للمنهج الغربي يجب تصحيحه

الصائب فيما يسنه الأدب الإسلامي من منهج صادق، يجعل السيرة الذاتية فنا رفيفا يرضى المشاعر النبيلة، ويرتفع بالأحاسيس البشرية إلى مستوى الطهر الإنساني!

وليس معنى ذلك - كما يقول الباحث - إننا نفترض المثالية في كل كاتب يتحدث عن نفسه، بل معناه أننا نفترض فيه أن يكون قاضيا عادلا، يرى الفضائل فيحبذها ويشيد بها، ويرى الرذائل فيعترف بخطئها، ويشرب إلى حياة كريمة تتجنبها.

ويقودنا د/ البيومي إلى منطقة تكاد تكون مجهولة في رؤى الأدباء وهي ما كتبه أعلام الفقهاء وأعلام المؤرخين العرب المسلمين عن أنفسهم في تراثنا يقول وإذا كان الأئمة الكبار من أمثال ابن حزم والغزالي وابن الجوزي من أعلام التشريع والجدل العلمي. فهم من كبار الأدباء بما سجلوه من تجاربهم الذاتية، حين تحدثوا عن أنفسهم حديث الصدق الكاشف، فأظهروا من خلجات الأفتدة، وهمسات الخواطر، ونبضات الأفكار ما يدل على استبطان ذاتي يصل إلى أبعد القرارات المستترة في شغاف القلوب، وما أسفوا في لفظ، وما انحدروا في تصوير، بل كان الأدب الإسلامي الرفيع يعصمهم من مهاوى التبذل، ومساقط الإسفاف.

وعن (الوسطية الإسلامية والمذاهب الأدبية) كتب د/ عبد الحميد إبراهيم، بحثه الذي أكد فيه أن «الوسطية الإسلامية ليست تليفقية أو حتى توفيقية تكتفى بدور الوسيط ولكنها كما يشرحها ابن الجوزية - تجرى وراء الحق من هنا وهناك، لتخرج في النهاية بموقف وسطى فإذا كانت اليهودية - والمثال أورده ابن الجوزية - تمثل الجلال، وإذا كانت المسيحية تمثل الجمال، فإن الإسلام يجمع بينهما ليخرج في النهاية بما يسميه ابن الجوزية بمقام الكمال.

ويقرر د/ عبد الحميد إبراهيم أن «كل المذاهب الأوروبية تتصادم مضمونا

وشكلا مع الوسطية» كمذهب أدبي له خصوصية حضارية، سواء كانت تلك الخصوصية في الموقف أو في وسائل التعبير .

ويتفق د/ هدارة مع الباحث في أن جذور المذاهب الأدبية الأوروبية المعاصرة تتصادم مع الواقع الإسلامي والرؤية الإسلامية، لأن التيار الوجودي كان المضمون الفلسفي لحركة الحداثة، وكانت العودة إلى الذات وتأليه الإنسان ذروة الإحساس بالتجاوب مع الفلسفة الوجودية، وهذا المنحى يؤكد تصادم الأدب الإسلامي مع المذاهب الأدبية المعاصرة .

والمحور الثالث: يدور حول آداب لغات الشعوب الإسلامية؛

وهذا المحور يعد من أهم محاور مؤتمر الأدب الإسلامي - لأنه يوسع دائرة هذا الأدب . . . ويصبغه بصبغة العالمية، ويفتح الآفاق الرحبة أمام أدباء الإسلام ليتجاوبوا مع آمال وآلام هذه الشعوب الإسلامية التي تعيش في غربة دائمة . . . ، وحين تنشط حركة الترجمة من لغات هذه الشعوب وإليها . . . ستنهال أسوار هذه الغربة المكانية والزمانية والنفسية واللغوية . . . ، وقدم د/ عبد الرازق بركات بحثا عن «الغربة في الشعر التركي العثماني» .

كما قدم د/ محمد السعيد عبد المؤمن بحثا عن «الأدب الطاجيكي بين التوجه الشيوعي والحس الإسلامي» .

كما قدم د/ محمد هريدي بحثا عن «الأندلس في الآداب الإسلامية» .

وقدم د/ إبراهيم الدسوقي شتا بحثا عن «بدايات التغريب وأصداؤها في الآداب الإسلامية» .

وكل بحث من هذه البحوث يحتاج إلى رصد فني متأن ومحاورة علمية هادفة وآمل أن يتسع الوقت والمقام لذلك الحوار العلمي المحبب الحميم .

المحور الرابع: يدور حول دراسات فنية في الأدب الإسلامي:

الباحثون في دراساتهم الفنية اتكأوا على معلمين أساسيين من معالم الرؤية الإسلامية وهما «القرآن الكريم» والحديث النبوي الشريف، لأنهما المنبع والمصب - فيما تتجه إليه تجارب الأدباء الإسلاميين .

وقدم الباحثون ثمانية أبحاث في هذا المجال الممتد الصافي الرحيب وهي:

- * أهم الملامح الفنية للقصة القرآنية د/ إبراهيم عوضين - مصر .
- * سمات القصة في القرآن د/ ناصر سعد الرشيد - السعودية .
- * الصور الفنية في القرآن الكريم د/ وائل على السيد - مصر .
- * أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي د/ محمد حسين الزير - السعودية .
- * أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي د/ نور الدين عتر - سوريا .
- * أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي د/ صابر عبد الدايم - مصر .
- * أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي د/ إمتياز أحمد - باكستان .
- * الأفضوصة في البيان النبوي د/ متولي البساطي - مصر .

وهذه البحوث . . تعد تأصيلا لمعالم الأدب الإسلامي . . ، وكذلك يأتي في دائرة التطبيق بحثان قدمهما الباحثان د/ حسن الهويل . عن البناء اللغوي في ديوان «مع الله» للشاعر «عمر بهاء الدين الأميري»، ود/ محمد بن سعد الدبل «عن» الصور الفنية في شعر «أحمد عقيلان» .

وما زال الأدب الإسلامي في حاجة إلى مؤازرة الجهود المخلصة والمواهب الأدبية الكبيرة التي تقف في وجه الأعاصير . . لتنصر الإسلام في كل مكان على وجه الأرض ، حتى يغمرها السلام ، وتشرق عليها شمس اليقين .

القسم الثاني

دراسات نصية تطبيقية

ويتضمن ثمانى دراسات:

أولاً - من أسرار البيان النبوى فى خطبة حجة الوداع.

ثانياً - غزوة الخندق بين شاعرين.

ثالثاً - معالم الرؤية الإسلامية فى شعر/ محمود غنيم.

رابعاً - معالم التجربة الشعرية فى ديوان «نسمات إيمانية» للشاعر الدكتور/ أحمد عمر هاشم.

خامساً - ضلال الرؤية الإسلامية فى شعر هاشم الرفاعى.

سادساً - استدعاء الشخصيات الإسلامية فى ديوان «حدائق الصوت».

سابعاً - أبعاد التجربة فى شعر «محمد السنهوتى».

ثامناً - معالم التجربة فى قصة «إبراهيم الخليل».

أولاً: من أسرار البيان النبوي

في خطبة حجة الوداع

إن البيان النبوي يعد النموذج الأعلى للبلاغة العربية بعد البيان القرآني الكريم، فهو قبس من أضواء الذكر الحكيم، ونموذج سام للبيان العربي الدال المفيد.

وكان الصحابة يدركون تفوق النبي - صلى الله عليه وسلم - في بيانه، ومعرفته بلهجات العرب، وبغريب مصطلحاتهم وألفاظهم، ودقائق معانيهم وأفكارهم، يقول أبو بكر لمحمد - صلى الله عليه وسلم - لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك . فمن أدبك؟ «أى من علمك» فقال عليه الصلاة والسلام «أدبنى ربي فأحسن تأديبي» .

وصدق الحق سبحانه إذ يقول:

﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ١ - ٤).

وقد وصف الرافعي بلاغة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وصفاً دقيقاً سبر فيه أغوار أسرارها التعبيرية وارتاد بعض آفاقها الفكرية والنفسية ولا غرو فهو أديب متمكن يدرك أسرار العربية، ويعرف قيمة الكلمة المؤثرة، وبلاغة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بلغت من الجودة مبلغاً لا تسمو إليها بلاغة

بشرية مهما بلغت رقيًا وكمالاً، حيث ابتعد بيان النبوة عن التكلف، ونأى عن الصنعة التي كثيراً ما يلجأ إليها المفتونون في أصول البيان، والمبدعون في ساحات الكلمة بغية ارتقاء أساليبهم، وأملًا في سمو أفكارهم، فإذا بهم إلى السفح مرتدون، لأنهم خالفوا الفطرة النقية، وابتعدت بهم أساليبهم عن ارتياد آفاقها الصافية .

أما ألفاظ النبوة ومعانيها فمنبعها القلب المتصل بجلال خالقه، فهي لا تصدر إلا عن صدق ويقين، لا يشوبها زيف ولا يكدرها رياء، إنها صورة سوية لنفس صاحبها - صلى الله عليه وسلم - .

يقول الرافعي : «هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهي من الأحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة، ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه . فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها دليل فقد كانت هي من دليله، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في «اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها مظهر من خواطره - صلى الله عليه وسلم -» .

وفي خطبة «حجة الوداع» تتجلى معالم البيان النبوي، وتتألق أبعاده، فالخطابة فن أدبي كاد يندثر في عصرنا الحديث، وما أحوجنا إلى تأمل النماذج العليا من هذا الفن الأدبي الراقى، إنه فن الإلقاء، وفن صياغة الكلمة صياغة أسرة تؤثر في المتلقى، وتأسر أحاسيسه، وتثير انفعالاته، وتمتع عقله، وتشبع عاطفته !!

وحين نتأمل هذه الخطبة - نجدها كنزاً من الأساليب المضيئة بالإيمان، والناطقة بأدق أسرار لغتنا العربية الفصحى لغة القرآن الكريم .
والخطبة تبدأ بمقدمة حرص الرسول على ذكرها كثيراً في افتتاح خطبه،

وهذه المقدمة تعد صورة صادقة لمكونات الشخصية الإسلامية، وتبياناً لعلاقة المسلم بالله والكون والإنسان، ومن هنا تنأى المقدمة في «الخطبة الإسلامية» عن الترف اللفظي، والحشو الزائف فما ورد في المقدمة يعد من أدق صفات وسلوكيات المسلم.

فالمقدمة تعلن عن خمسة مبادئ إسلامية تحدد علاقة المسلم بربه وهي: الحمد - الاستعانة - الاستغفار - التوبة - الاستعاذة.

وقد وردت هذه المبادئ في صيغة الجمع المتكلم . . . لتوحي بأنها حالة شعورية صافية يوج بها الوجدان الإسلامي كله؛ وإعلانه عن علاقة ثابتة بين المسلم وربه في إطار هذه المبادئ، وزمن هذه المبادئ - حين نتأمل البنية اللغوية - نراه قد صيغ في قالب المضارعية، وفي ذلك إحياء بتجدد هذا الشعور واستمراره فهو هتاف المؤمنين في كل زمان ومكان، يقول المصطفى - عليه الصلاة والسلام -: «الحمد لله»، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا».

والإقرار بالتوحيد يأتي في ختام المقدمة ليصبح سمة من سمات الخطابة في الإسلام، ولتمييزها عن الخطابة الجاهلية. فشهادة التوحيد هي مفتاح الجنة، وبرهان الإيمان.

والخطبة دستور إسلامي متكامل بين فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - موقف الإسلام من التقاليد والعادات الجاهلية وهو موقف الرفض ما عدا خدمة الكعبة وسقاية الحجيج.

ثم يبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - . . . الأحكام التشريعية بتنظيم المجتمع الإسلامي فيما يتعلق بالحقوق والواجبات.

ثم يحدد العلاقة بين الرجل والمرأة. ويوحي بضرورة تحقيق المساواة وتآزر المسلمين، والعمل على تحقيق الأخوة فيما بينهم، ومعيار هذه الأخوة هو

العدالة والحفاظ على حدود الله، ويخص النبي - عليه الصلاة والسلام - الميراث بذلك لأنه باب التناحر والشقاق حين يخالف الناس فيه شرع الله - عز وجل - .

وهذه القيم الإسلامية يصوغها الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى أسلوب سهل واضح مبين لا عوج فيه ولا التواء؛ إنه كما قال الجاحظ: «كلام قد حُفَّ بالعصمة، وشد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام» .

وقد فاضت هذه الخطبة بالأسرار التعبيرية والقيم الجمالية والأساليب الموحية ومنها:

أولاً: النداء؛

وقد تكرر النداء فى الخطبة ثمانى مرات . ويتمثل هذا الأسلوب فى قوله - صلى الله عليه وسلم - «أيها الناس»؛ والنداء هنا يكشف عن حرص المصطفى - صلى الله عليه وسلم - على هداية العالمين جميعاً . . ولذلك جاء التعبير بلفظ «الناس» فالإسلام دين البشرية جمعاء، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) . . وبين كل نداء ونداء يبث السراج المنير شعاعاً من نور الحق ليضيء به دروب النفوس التى أظلمت قروناً عديدة، ويظل النداء سارياً فى ضمير الأجيال المؤمنة عبر القرون المتعاقبة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثانياً: التكرار؛

ويمتزج التكرار بالنداء فى قوله «أيها الناس» كى يوقظ الحواس الغافية، والقلوب الغفل، والآذان الصم .

ويمتزج التكرار بالتوكيد فى قوله - صلى الله عليه وسلم - «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا

فى بلدكم هذا» . وتكرار اسم الإشارة يفسر لنا حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على حرمة الأماكن المقدسة؛ وثمره ذلك الحرص المحافظة على أمن البلد الأمين واستقراره بما فيه من أناس وطير وشجر وحيوان فكلها من خلق الله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك : ١٤) .

ويتكرر اسم الإشارة فى موضع آخر للدلالة على التعظيم والتحديد وأيضاً لتنبية المخاطبين إلى اكتمال الرسالة . . . وبلوغها الدرجة المثلى . . . وكأنها تهيئة نفسية للمسلمين من أجل ألا يفزعوا حين يلقى المصطفى ربه . راضياً مرضياً . . إنه يقول «اسمعوا منى أبين لكم . لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا» .

ويكرر المصطفى - عليه الصلاة والسلام - قوله «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد» ست مرات فى خطبته الرائعة . وهو بهذا التكرار يلقى على المسلمين عبء المسئولية ، ويشهد عليهم الحق سبحانه وهو خير الشاهدين ، وهذا التكرار يأتى فى قالب الاستفهام المثير للانتباه، والراصد للمشاعر المؤمنة، التى لن تجيب إلا بالقبول والإقرار، ومن هنا تكون الحجة على المخالفين المعاندين قال تعالى : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة : ١٢٩) .

ثالثاً: التأكيد:

ويتكرر التأكيد فى الخطبة تسع عشرة مرة، والمؤكدات هنا أدواتها حرف «إن» أو «أن» وكثرة التأكيد له علاقة بمدى أهمية الأمر المؤكد، وأى أهمية أكبر من إقامة المجتمع الإسلامى على دعائم الحق والخير والعدالة والمساواة والتأخى، فقوله - عليه الصلاة والسلام -:

«إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم» تأكيد للمحافظة على النفس والمال، وقوله: «إن ربا الجاهلية موضوع» تأكيد لرفض السياسة

الجاهلية الاقتصادية مهما كان زمنها . وقوله : «إن دماء الجاهلية موضوعة» تأكيد لرفض التصور الجاهلي للمحافظة على النفس أو الثأر لها، وقوله : «إن مآثر الجاهلية موضوعة» تأكيد لرفض التصور الجاهلي لأسس التفاضل بين الناس ، وقوله : «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه تأكيد لوجوب مقاومة الشيطان بكل مغرياته وموحياته ، وقوله : «إن لنسائكم عليكم حقًا ، ولكم عليهن حق» تأكيد لإقامة البنيان الأسرى على أسس عادلة ثابتة ، وقوله : «إنما المؤمنون إخوة» تأكيد لاستمرار حيثيات الأخوة وترجمتها إلى سلوك إسلامي ، وقوله : «فإني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنتي» تأكيد لوجوب الحرص على العمل بالكتاب والسنة حتى تكون النجاة من تيه الضلال وعماية الفساد .

إن القيم السابقة تعد معالم أساسية في حياة المسلم . وهي من جوامع كلمه - صلى الله عليه وسلم - ولن تفقد معناها وخصائصها حين تنفصل عن كيان الخطبة الكلى ، ومن هنا يختلف البيان النبوي عن غيره من بيان الخطباء والبلغاء والأدباء ، فالحقائق توشيه ، والجمال يغشاه من جميع جوانبه ، وهو كما قال هند بن أبى هالة حين سأله «الحسن بن على» عن منطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «يتكلم بجوامع الكلم فضلاً لا فضول فيه ولا تقصير» .

رابعاً: أسلوب الشرط والجواب:

ويتكرر هذا الأسلوب في الخطبة ثمانى مرات ؛ ومواقع ورود هذه الأساليب تشير إلى منهج الإسلام فى الثواب والعقاب ، فالجزاء من جنس العمل ، فلكل عمل صالح ثواب ، ولكل عمل مخالف عقاب . فالسمع شرط البيان فى قوله - عليه الصلاة والسلام - «اسمعوا منى أبين لكم» . والأمانة من أخص صفات المسلم ولذلك يقول - عليه الصلاة والسلام - : «فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها» . وجواب القسم هنا جاء فى صيغة الطلب إعلاناً عن حتمية الأداء وعدم التهاون والتقصير فى هذا الشأن .

وقد حسم الرسول - صلى الله عليه وسلم - قضية «التبني» في الإسلام حين قال: «من دُعيَ إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه . . . فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل».

ومجيء هذه القضية في أسلوب الشرط والجواب يرشد إلى عظم الفرية، ويفسر التركيب اللغوي تفاقم خطرهما في خلط الأنساب، وتشويه صورة المجتمع الإسلامي، ولذلك جاء الجواب في أسلوب القصر، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

خامساً: التوازن؛

وهذه الخاصية من سمات الأدب النبوي فهو يخاطب العاطفة قدر ما يخاطب العقل، ولا يجور فيه الخيال على الحقيقة، ولا يطغى فيه المحسوس على المعقول، ولا يتجه إلى قوم دون آخرين، ولا يخضع لمؤثرات بيئية، ولا لحيشات زمنية، إنه خطاب شامل للبشرية جمعاء وهي تستظل بظلال الإسلام في كل زمان . . . وفي كل مكان، مهما اختلفت اللغات، ومهما تباينت الأجناس، وتعددت البيئات، فالشعور الإيماني هو الدائرة التي يتحركون في فلکها، وهو المنبع والمجرى والمصب، منبع العقيدة، ومجرى السلوك، ومصب الرؤى والإشراقات.

والتوازن في هذه الخطبة يتألق في مبانيها وفي معانيها . . . عبارة وفكراً وأداءً جمالياً مشرقاً؛ . . . وتناسق التراكيب من سمات ذلك التوازن. فالعبارات متناسقة متوازنة كأنها صورة لنفس المسلم في توازنها. وتناسقها السوي، ففي مجال رفض قيم المجتمع الجاهلي المتطرفة التي تأتي عن التوازن بكل أبعاده يقول المصطفى - صلى الله عليه وسلم -:

إن ربا الجاهلية موضوع . . . وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب.

وإن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب .

وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية .

فالتصور الإسلامي لقيم العصر الجاهلي محدد وواضح . . . ولذلك جاء التعبير عن ذلك التصور في بيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - متناسقاً في عباراته ، متزناً في مبانيه ، فصياغة الأحكام ومتعلقاتها جاءت في صور متشابهة من حيث البناء اللغوي ، وقد اتحد خبر إن في الأحكام الثلاث وهو لفظ «موضوع» ومعناه «ساقط ومحرم» ودلالة هذا اللفظ تخالف ما تعاهد عليه المتحدثون بالعربية في العصر الحديث ، وتوافق ما تعارف عليه رواة الحديث والشعر في قضية «الوضع والانتحال» فيقولون : هذا حديث موضوع ، وهذا شعر موضوع ، أي غير صحيح النسبة إلى قائله .

. . . ومن سمات التوازن في الأدب النبوي مطابقة الكلام للحقيقة ، فهو ليس استعراضاً أسلوبياً ، وليس زخرفة لفظية ، وليس تهوياً في أودية الخيال ، ومسابع الظنون ، بل هو حقائق تلبس أردية الجمال . وأحكام تناصر فيها الأفعال الأقوال ، فالمصطفى - صلى الله عليه وسلم - يقول : «إن ربا الجاهلية موضوع» ثم يوازن بين الحكم - القول - وبين القدوة «الفعل» فيبدأ بربا عمه العباس . فيسقط عن رقاب المدينين له ربا ، وحين قال «إن دماء الجاهلية» بدأ بعشيرته وأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

فأي عدالة حاسمة بعد هذا؟ وأي توازن نفسي واجتماعي وسلوكي بعد هذا؟ وأي قدوة حسنة مضيئة مشرقة بعد هذا الذي أعلنه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - .

إن نكبة المسلمين في العصر الحديث تفاقمت أخطارها بسبب انفصال المسلمين عن واقع دينهم المحكم ، فأصيبت شخصيتهم بالانفصام

والازدواجية، وفقدوا خاصية «التوازن» فنصوص الكتاب والسنة في واد، وهم في واد آخر، قدوتهم في سلوك أعدائهم!!! ودواؤهم في مكمّن داءهم!!! ورجاؤهم مقطوع الأسباب، وطريقهم موغل في التيه بلا إياب!

وكان المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يشاهد واقع المسلمين اليوم، فيوصيهم بالتأخي والوثام والبعد عن التناحر والخصام، ويناديهم في لحظة الوداع. نداء من بالمؤمنين رءوف رحيم «أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة... ولا يحل لا مرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه... ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فلا ترجعن بعدي كفاراً... يضرب بعضكم رقاب بعض».

إن هذه الوصايا المحمدية تشخص الداء وتعطي الدواء الناجع المفيد؛ وهي تمثل حالات متعددة يمكن أن تجثم على واقع الوجود الإسلامي... ولذلك تنوعت أساليبها وتأزرت تراكيبها اللغوية... فهنا أسلوب النداء... وبعده يأتي أسلوب القصر ليؤكد الأخوة الإيمانية الثابتة، وثباتها نطقت به اسمية الجملة «إنما المؤمنون إخوة»، ويأتي النفي مقرونًا بالفعل المضارع في قوله «لا يحل» إشارة إلى تجدد ذلك النفي واستمراره... حيث يظل المال في منطقة الحرمة لا يعتدي عليه سارق أو مغتصب أو مختلس أو محتال، ويأتي الاستفهام مقيمًا الحجة على السامعين والمخاطبين في كل زمان وفي كل مكان، ويأتي الدعاء وطلب الشهادة من الله، بعثًا للرغبة في النفوس التي يطوف بها الإثم، وتمكينًا للطمأنينة في النفوس المؤمنة المفعمة بزاد التقوى وبرد اليقين.

ويرشد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - المسلمين إلى أفق الرجاء، وباب النجاة، فيقول مؤكداً قوله الذي صاغه في أسلوب الشرط والجواب:

«فإنني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً. كتاب الله وسنتي».

فهل يدرك المسلمون أسباب النجاة؟ هل يعودون إلى مشرق الأمل ومنارة التوحيد؟

هل يتواصون بالحق وبالصبر . . . ويبلغ الشاهد الغائب؟
هل يجعلون من وقفة «عرفات» موسمًا للذكر والمكاشفة والتناصح
والتآلف؟

فهم في حاضرهم كما قال شوقي يضرع إلى ربه في يوم عرفة :
شعوبك في شرق البلاد وغربها
إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا . . . فلا الأنسابُ فيها تفاوتُ
لديك . . . ولا الأقدار مختلفات
بأيمانهم نوران : ذكْرٌ وسُنَّةٌ

فما بالهم في حالك الظلمات !!!

وبعد . . . فهذه بعض الأسرار التعبيرية في خطبة حجة الوداع ، وأعظم سر
في بيان المصطفى - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يزل مشرقًا بالمعاني الوضيئة
والألفاظ المبينة ، ولم تزل النفوس الظمأى تجد فيه ربيها ، والقلوب الحيري تجد
فيه هديها ، ولله در «الجاحظ» حين قال لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ،
ولا أصدق لفظًا ، ولا أعدل وزنًا ، ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ،
ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه - صلى الله عليه وسلم - .

نص خطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم-

في حجة الوداع

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «الحمد لله . نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله .

أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير .

أما بعد أيها الناس !! اسمعوا مني أبين لكم ، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب^(١) ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة

(١) يقول ابن هشام في السيرة النبوية : وكان مسترضعاً في بني ليث . فقتلته هذيل . فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

والسقاية^(١) والعمد قود^(٢)، وشبهه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : «إنما النسيء^(٣) زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله» .

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات وواحد فرد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان^(٤) ألا هل بلغت؟ . اللهم فاشهد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وإنما النساء عندكم عوان^(٥) لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد .

(١) السدانة : خدمة الكعبة، والسقاية : سقاية الحجاج .

(٢) العمد : القتل العمد، والقود : قتل القاتل بمن قتل .

(٣) النسيء : شهر المحرم . . كانوا يحرمونه عاماً ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة فيقولون إنه بعد شهر صفر .

(٤) في رواية ابن هشام عن ابن إسحاق «ورجب مضر» وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك كما ورد في هامش «السيرة النبوية» لأن ربيعة كانت تحرم شهر رمضان وتسميه رجباً من رجيت الرجل ورجبته . إذا عظمته، فبين - صلى الله عليه وسلم - أنه رجب مضر لا رجب ربيعة .

(٥) عوان : أسيرات أي عندكم بمنزلة الأسيرات .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد ، فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده :
كتاب الله ، ألا هل بلغت؟ الله اشهد .

أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب .
أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد ، قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر^(١) .

من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢) .

(١) للفراش : أي لصاحبه ، وللعاهر أي أن هذا مقضى به رغم أنها .

(٢) في رواية ابن هشام جاء في آخر الخطبة هذا النص :

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوا تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم . . . اللهم هل بلغت؟

ثانياً: غزوة الخندق بين شاعرين (حسان بن ثابت وعبد الله بن الزبير)

الشعر في ظلال الإسلام قد أدى دوراً لا ينكر في مسيرة الدعوة الإسلامية حين واكب الفتوحات الإسلامية، وناصح شعراء الإسلام عن حياض الدعوة، بكل ما أوتوا من فصاحة وقدرات بيانية ولغوية، وبما استقر في نفوسهم وقلوبهم من أضواء اليقين، وإشراقات الإيمان.

ومواقف المصطفى - صلى الله عليه وسلم - من شعراء الإسلام دفعت بهم إلى شحذ ملكاتهم وصقل مواهبهم، والوقوف في وجه أعداء الإسلام بالكلمة المؤمنة المشحونة بكل طاقات الانفعال الإيمانية التي تزلزل الجبال وتهز الرواسي.

فقد روى أن نابغة بني جعدة أنشد النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا البيت :
بلغنا السما مجدداً وجوداً وسؤدداً

وإننا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال : إلى الجنة بك يارسول الله قال : نعم إن شاء الله فلما أنشده :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له

بوادر تحمي صفوه أن يكدرها

ولا خير في جهل ذالم يكن له

حليم إذا ما أورد الأمر أصدرًا

قال له النبي - صلى الله عليه وسلم -: لا فض الله فاك :

«ويروي أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي أن بني جعدة يزعمون أنه كان إذا سقطت له سن نبتت مكانها أخرى؛ وغيرهم يزعم أنه عاش ثلاثمائة عام ولم تسقط له سن حتى مات»^(١).

وغزوة الخندق من الغزوات الكبرى في الإسلام التي تجلّى فيها نصر الله لرسوله والذين معه من كتائب الإيمان . . . من المهاجرين والأنصار، وسورة الأحزاب تصور وقائع هذه الغزوة وأحداثها تصويراً دقيقاً يجعل المؤمنين في يقين دائم من نصر الله لهم . . . وما أحوجنا في هذا العصر إلى ذلك الوهج الإيماني الذي يحيى موات القلوب، ويوقظ ما خمد في نفوسنا من ومضات اليقين . . . قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧).

وفي هذه الغزوات حدثت عدة نقائص شعرية بين شعراء الإسلام وشعراء المشركين في ذلك الوقت، وقد أورد بعض هذه النقائص الشعرية د/ حسن الكبير في كتابه القيم «النقائص في عهد البعثة المحمدية» جمع ودراسة وموازنة^(٢).

ومن هذه النقائص ما دار بين عمرو بن ود . . . وعلي بن أبي طالب . حين تحدى عمرو بن ود «المسلمين ونادى: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها . . . أفلا تبرزون إلى رجلاً؟ وقال أبياتا يعلن بها ذلك التحدي،

(١) انظر جمهرة أشعار العرب ص (٣٣).

(٢) الكتاب يقع في ٢٩٤ (مائتين وأربع وتسعين صفحة من القطع المتوسط ط ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م) القاهرة.

ثم رد عليه علي بن أبي طالب ردًا قوليا وعمليا حيث رد عليه أبياته بأروع منها وأصدق، وصرعه بعد مبارزة عنيدة قوية، واستجاب الحق سبحانه لضراعة حبيبه ونبيه محمد- صلى الله عليه وسلم- قائلاً وهو يشهد المبارزة بين الحق والباطل «اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم علي علياً، رب لا تدرني فرداً وأنت خير الوارثين»^(١).

وقال «ضرار بن الخطاب بن مرداس» قصيدة في الإشادة بجيش المشركين في غزوة الخندق، ورد عليه «كعب بن مالك» ردًا مفحماً.

وبين «عبد الله بن الزبيري السهمي» و«حسان بن ثابت» دارت مناقضة شعرية في هذه الغزوة. «وهي موضع هذه الدراسة». فابن الزبيري يمثل العصبة الجاهلية، ويدافع عن أحزاب الشرك، وحسان بن ثابت يدافع عن راية الإسلام، ويشيد بنصر الله للمؤمنين المجاهدين الصابرين.

والنماذج الآتية تصور عنف هذه المعارك الشعرية في ذلك العهد.

قال عبد الله بن الزبيري السهمي يبكي قتلى بدر، وتروي للأعشى بن زرارة بن النباس أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم. . حليف بني نوفل بن عبد مناف وقيل حليف بني عبد الدار كما قال ابن إسحاق.

يقول عبد الله بن الزبيري^(٢) من قصيدة تتكون من سبعة أبيات:

ماذا على بدر وماذا حوله

من فستية بيض الوجوه كرام

تركوا نبيها خلفهم ومنبها

وابني ربيعة خير خصم فثام^(٣)

(١) النقائض في عهد البعثة المحمدية. د/ حسن الكبير.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج٢، المجلد الأول ت/ محمد فهمي السرجاني.

(٣) فثام: الجماعات من الناس.

والحارث الفياض يبرق وجهه

كالبدر جلى ليلة الإظلام

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

ابك . . بكت عينك ثم تبادرت

بدم تعل غروبها سجام^(١)

ماذا بكيت به الذين تتابعوا

هلا ذكرت مكارم الأقسام

وذكرت منا ما جذاً ذاهمة

سمح الخلائق صادق الإقدام

أعني النبي أخا المكارم والندی

وأبر من يولى على الإقسام^(٢)

فلمثله . . ولمثل ما يدعو له

كان الممدح ثم غير كهام

وقال «حسان» أيضاً من قصيدة له على نفس الوزن والقافية في الإشادة
بأبطال غزوة بدر والسخرية من هزيمة المشركين .

طحتهم . . . والله ينفذ أمره

حرب يشب سعيها بضرام

لولا الإله وجريها لتركنه

جزر السباع ودسنه بحوامي

(١) تعل : مأخوذ من العلل وهو الشرب مرة بعد أخرى، غروبها : مجاري الدمع .

(٢) يولي : يحلف، كهام : الضعيف .

من بين مآثور يشد وثاقه
صقر إذا لاقى الأسنة حامى
ومجدل لا يستجيب لدعوة
حتى تزول شوامخ الأعلام
وفي غزوة أحد يروي ابن هشام عن ابن إسحاق أن عبد الله بن الزبيري
قال في يوم أحد من قصيدة تبلغ ١٦ ستة عشر بيتاً^(١) .
يا غراب البين أسمعت فقل
إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشر مدى
وكلا ذلك وجه وقيل
أبلغت حسان عني آية
فقريض الشعر يشفي ذا الغلل
كم ترى بالجر من جمجمة
وأكف قد أتت ورجل^(٢)
وسراويل حسان سربت
عن كمة أهل كوا في المنتزل
فأجابه حسان بن ثابت بقوله :
ذهبت يا ابن الزبيري وقعة
كان منا الفضل فيها لو عدل

(١) انظر «السيرة النبوية لابن هشام» ج٣ مجلد ٢ ص (٧٠-٧١-٧٢).

(٢) أتت : قطعت .

ولقد نلتهم ونلتنا منكم
وكذاك الحرب أحياناً دول
نضع الأسياف في أكتافكم
حيث نهوى عللاً بعد نهل
إذ تولون على أعقابكم
عرباً في الشعب أشباه الرسل^(١)
إذ شددنا شدة صادقة
فأجأناكم إلى سفح الجبل^(٢)
بخناطيل كأمذاق الملا
من يلاقوه من الناس يهل^(٣)
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه
وملأنا الفرط منا والرجل^(٤)
برجال لستم أمثالهم
أيدوا جببريل نصراً فنزل^(٥)

(١) الرسل : الإبل المرسله وراء بعضها .

(٢) فأجأناكم : ألقأناكم .

(٣) الخناطيل : الجماعات من كل شيء .

(٤) الفرط : سفح الجبل ، والرجل : المطمئن من الأرض .

(٥) أي أيدوا جببريل .

قصيدة حسان بن ثابت:

قال حسان بن ثابت : يرد على «عبد الله بن الزبيري» .

١ - هل رَسَمَ دارسة المقام يباب

متكلمٌ لمحاوٍر بجواب^(١)

٢ - ولقد رأيت بها الحلول يزينهم

بيض الوجوه ثواقب الأحساب^(٢)

٣ - فدع الديار وذكر كل خريدة

بيضاء أنسة الحديث كعاب^(٣)

٤ - واشك الهموم إلى الإله وما ترى

من معشر متألّبين غضاب^(٤)

٥ - أمّوا بغزوهم الرسول وألبسوا

أهل القرى وبوادي الأعراب^(٥)

* هذا النص ورد في شرح ديوان حسان بن ثابت ، وضعه وصححه «عبد الرحمن البرقوقي» - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

المفردات والتراكيب:

(١) البيان : الذي ليس فيه أحد ، المحاوٍر : من يجادل في الكلام ويحاوٍر ويعد البيت الأول ورد في السيرة النبوية لابن هشام هذا البيت .

قفر عفارهم السحاب رسومه وهبوب كل مطلة مريباب

(٢) ثواقب الأحساب : أي أحسابهم نبرة مشرقة متوقدة ، والحسب ما يعده الإنسان من مفاخر آياته .

(٣) الخريدة من النساء : البكر التي لم تمس قط ، وقيل الحبيبة الطويلة السكوت ، والكعاب هي التي نهد نديها .

(٤) متألّبين : مجتمعين .

(٥) أمّوا : قصدوا ، ألبسوا : أي خلطوا وشبهوا . أي شكوا أضعاف القلوب في أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

- ٦- جيش : عيبنة وابن حرب فيهم
متخمطين بحلبة الأحزاب^(١)
- ٧- حتى إذا وردوا والمدينة وارتجوا
قتل النبي ومغنم الأسلاب^(٢)
- ٨- وغدوا علينا قادرين بأيدهم
ردوا بغیظهم على الأعقاب^(٣)
- ٩- بهبوب معصفة تفرق جمعهم
وجنود ربك سيد الأرباب
- ١٠- وكفى الإله المؤمنین قتالهم
وأثابهم في الأجر خير ثواب
- ١١- من بعد ما قنطوا ففرج عنهم
تنزيل نص مليكنا الوهاب^(٤).
- ١٢- وأقر عين محمد وصحابه
وأذل كل مكذب مرتاب

(١) عيبنة : هو عيبنة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، كان يقود غطفان في غزوة الخندق ، وابن حرب هو أبو سفيان بن حرب وكان قائد قريش في غزوة الخندق ، متخمطين أي شداد الغضب ، حلبة : الخيل المعدة للسباق .

(٢) الأسلاب : جمع سلب وهو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه .

(٣) الأيد : القوة .

(٤) قنطوا : يشبوا .

١٣- مستشعر للكفر دون ثيابه

والكفر ليس بطاهر الأثواب^(١)

١٤- علق الشقاء بقلبه فأرانه

في الكفر آخر هذه الأحقاب^(٢)

(١) مستشعر للكفر: صفة أخرى للكذب: ومن المجاز استشعر الخوف والهم، والشعار في اللغة ما ولي شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب.
(٢) الرين: ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب.

قصيدة « عبد الله بن الزبير السهمي » يوم الخندق - رواها ابن هشام:

- ١ - حيى الديار محاً معارف رسمها
- طول البلى وتراوح الأحقاب (١)
- ٢ - فكأنما كتب اليهود رسوماها
- إلا الكنيف ومعقد الأطناب (٢)
- ٣ - قفراً كأنك لم تكن تلهو بها
- في نعمة بأوانس أتراب (٣)
- ٤ - فاترك تذكر ما مضى من عيشة
- ومحلة خلق المقام يباب (٤)
- ٥ - واذكر بلاء معاشروا شكرهم
- ساروا بأجمعهم من الأنصاب (٥)
- ٦ - أنصاف مكة عامدين ليثرب
- في ذي غياطل جحفل جبجاب (٦)
- ٧ - يدع الحزون مناهجاً معلومة
- في كل نشر ظاهر وشعاب (٧)

(١) ورد هذا البيت في سيرة ابن هشام مصدراً بلفظ حتى .

(٢) الكنيف : حظيرة الماشية ، المعقد : الودد ، والأطناب : التي تشد بها الخيام .

(٣) الأتراب : جمع ترب وهو المائل في السن وأكثر ما يستعمل في المؤنث .

(٤) يباب : ليس فيه أحد .

(٥) الأنصاب : الأوثان .

(٦) الغياطل : الأصوات ، جبجاب : كثير الأرض .

(٧) الحزون : مفردا حزن وهو ما غلظ من الأرض ، المناهج : الطرق الواضحة ، النشر : ما ارتفع من

الأرض ، الشعاب ما انخفض من الأرض .

- ٨- فيها الجياد شواذب مجنوبة
- ٩- من كل سلهبة وأجرد سلهب
- ١٠- جيش : عينية قاصد بلوائه
- ١١- قرمان كالبدرين أصبح فيهما
- ١٢- حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا
- ١٣- شهراً وعشراً قاهرين محمداً
- ١٤- نادوا برحلتهم صبيحة قلت
- ١٥- لولا الخنادق غادروا من جمعهم
- ١- قب البطون لواحق الأقرب (١)
- ٢- كالسيّد بادر غفلة الرقاب (٢)
- ٣- فيه وصخر قائد الأحزاب (٣)
- ٤- غيث الفقير ومعقل الهراب (٤)
- ٥- للموت كل مجرب قضاب (٥)
- ٦- قتل لطيّر سغب وذئاب (٦)

(١) الشواذب والقب: معناهما: الضوامر، الأقرب: الخواصر.
(٢) السهلب: الطويل، بعامة: وقيل هو الطويل من الخيل والناس، ويقال: فرس سلهب وسلهبة للدكر إذا عظم وطال.
(٣) عينة وصخر: قائدا جيش الأحزاب.
(٤) قرمان: مثنى قرم وهو السيد، ومعقل الهراب: الملبأ.
(٥) تضاب: قطاع، ورد في لسان العرب قوله: سيف قاضب وقضاب أي قطاع.
(٦) سغب أي جماعة.

الموازنة بين القصيدتين:

قصيدة «حسان بن ثابت» تبلغ أربعة عشر بيتاً، وقصيدة ابن الزبيري تبلغ خمسة عشر بيتاً؛ وقصيدة «حسان» جاءت رداً على ابن الزبيري . . . حيث نقض معانيه . . . وأفكاره معنى معنى، وفكرة فكرة^(١).

وفي رصد الرؤية الفكرية الجمالية لهذين النصين سأركز على قصيدة حسان ثم أوازن بينها وبين قصيدة ابن الزبيري . . . لأن مبتغانا هو الوصول إلى النص الإسلامي الفني الفياض بالرؤية الإسلامية فكراً وفناً.

أولاً: البناء الهيكلي والتباعد الفكري هي قصيدة «حسان بن ثابت»:

القصيدة في بنائها الشكلي لم تخرج عن الإطار التقليدي للقصيدة العربية في العصر الجاهلي حيث تبدأ بوصف الأطلال، وتذكر أهل الديار الدارسة بما فيهم من رجال أشداء بيض الوجوه، ثواقب الأحساب، وكذلك من فتيات ناعمات أسرات بيض كواعب.

يقول:

هل رسم دارسة المقام يباب

متكلم لمحاور بجواب

ولقد رأيت بها الحلول يزينهم

بيض الوجوه ثواقب الأحساب

وفي هذه المقدمة الطللية نرى الشاعر ما زال أسير بعض التصورات الجاهلية

(١) انظر نص قصيدة حسان في ديوان «حسان بن ثابت الأنصاري» شرح عبد الرحمن البرقوقي . . . دار الكتاب العربي - بيروت.

وانظر نص قصيدة ابن الزبيري في كتاب «النقائض في عهد البعثة المحمدية د/ حسن الكبير والبداية والنهاية لابن كثير.

مثل الافتخار بالحسب والنسب، ولكن برغم ذلك نلمح ظلالة إسلامية في تقويمه للشخصية الإنسانية، وذلك ما يوحى به وصفه للرجال بأنهم «ثواقب الأحساب» فالحسب الثاقب هو «النير المشرق المتوقد»، أي ليس فيه ما يعيبه، ولا يشينه، وإنما هو صاف صفاء الضوء؛ وكلمة «ثاقب» توحى بنفاذ ذلك الحسب وتحدى كل المعوقات، وتمزيق كل الاتهامات ووصفه للقوم بأنهم «بيض الوجوه» ليس وصفًا خارجيًا للون البشرة، ولكن بياض الوجه يوحى بالمروءة والشرف والبعد عن المثالب، كما جاء في الحديث الشريف .

«بيض الله وجهك كما بيضتني» وفي القرآن الكريم يقول سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضُ وَجُوهُهُمْ فَبِئْسَ فِيهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٧).

وينتقل الشاعر إلى المحور الأساسي في القصيدة رافضًا البكاء على الأطلال ورافضًا التعلق بالفتيات الكواعب، وكأن ذلك عهد قد مضى أو تقليد فني لا يساير البيئة الجديدة .

«فدع الديار وذكر كل خريدة

بيضاء أنسة الحديث كعاب»

وينتقل الشاعر إلى رصد حركة جيش الأحزاب في صورة شكوى مؤمنة إلى الحق سبحانه فيقول :

«واشك الهموم إلى الإله وما ترى

من معشر متألين غضاب»

وراء كلمة «الهموم» إichاءات كثيرة وتتفجر بانفعالات تجسم معاناة الشاعر وتصور شعوره الأسيان في هذه اللحظات الحرجة، حيث تكاثفت قوى الشرك من قريش وغطفان وبني قريظة، وتحزبوا ضد رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - وأرادوا أن يهزموا المسلمين في عقر دارهم : وقد وصف
«حسان» هؤلاء الأحزاب بعدة صفات من شأنها أن تشكل صورة كريهة لهم
وتجعلهم في دائرة الرفض من كل من يدرك هذه الصفات أو يسمع بها أو يراها
فهم «متألبون - غزاة - يريدون القضاء على الإسلام - يثيرون التشكيك في
نفوس الناس من أهل القرى وأهل الحضر - وهم ناثرون غاضبون لهم هياج
وصراخ - متحزون ضد رسول الله - صلى الله عليه وسلم» .

ثم ينتقل الشاعر في أسلوب قصصي إلى تصوير عاقبة هؤلاء
الأحزاب . . . قاتلاً :

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا

قتل النبي ومغنم الأسلاب

وغدوا علينا قادرين بأيدهم

ردوا بغیظهم على الأعقاب

والتعبير بلفظ «حتى» يوحي بالحركة والسباق ، ولكن هذه الحركة المصاحبة
المائجة . . . تنتهي بالخيبة والفشل فيقول الشاعر «ردوا بغیظهم على
الأعقاب» .

والتعبير بالفعل «ردوا» وبنائوه للمجهول ، يجسم لنا أن هزيمة المشركين
جاءتهم من كل حدب وصوب ، فلم يعرفوا من أي الجهات تأتيهم النذر
والهزائم .

وإذا كان المشركون يجهلون أسباب هزيمتهم فإن المسلمين يذكرون نعمة الله
عليهم ويدركون أن الله وعدهم بالنصر المبين ، فأرسل على المشركين رياحاً
عاصفة ، وبعث الله عليهم صيباً بارداً كما يقول «الزمخشري» .

«في ليلة شاتية فأحصرتهم وسفت التراب في وجوههم . وأمر الملائكة

فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة في جنات عسكرهم، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجا . النجا . . فانهمزوا وكفى الله المؤمنين شر القتال»^(١).

ثم ينتقل الشاعر إلى تصوير مشاعر النصر لدى المؤمنين وإحساسهم بالعزة والفخر بعد اليأس والقنوط، . . . وفي آخر النص يمزج الشاعر رؤى المشهدين . مشهد النصر . ومشهد الهزيمة، فالمسلمون قرت عيونهم بالنصر، والمشركون أذلهم الله فهزموا ومزقوا شر ممزق، ومن خلال تصوير المشهدين المتضادين نعثر على حقيقة الصراع الدائر بين حزب الرحمن وحزب الشيطان . . . وهو صراع لم يزل يشتد أواره بين الحين والآخر . . . وقد أذل الله الكفار وأعز المؤمنين . . . فإنه الأمر من قبل ومن بعد، ويده الحول والطول؛ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨).

وقد أثر الشاعر أن يختم قصيدته بالصور القائمة التي ترسم صفات المهزمين، وكأنه يضع مبررات هزيمتهم المتمثلة في السلوكيات والأبعاد النفسية التالية (الكذب - الارتياب - الكفر المخالط للحم والدم - الشقاء الذي غطى على القلوب طيلة الدهر . وهو بهذه القائمة يجعل من هزيمة الأحزاب قصة تحكى إيلاًماً لنفوسهم . . . ورغبة في إيقاظ عزائم المسلمين حتى يحافظوا على هذا النصر . . . ويجاهدوا أعداء الله حتى تتوالى الهزائم عليهم، فلا تعلق لهم راية ولا يستقر لهم سلطان .

يقول حسان:

(١) انظر شرح ديوان «حسان بن ثابت الأنصاري» ص (٦٦).

وأقر عين محمد وصحابه
وأذل كل مكذب مرتاب
مستشعر للكفر دون ثيابه
والكفر ليس بطاهر الأثواب
علق الشقاء بقلبه فأرانه
في الكفر آخر هذه الأحقاب

ثانياً، ظواهر فنية وأسلوبية:

(أ) الاستفهام في البيت الأول يجسد حيرة الشاعر وصراعه النفسي بين عهدين . . . وقد يكون هذا الاستفهام إنكاراً من الشاعر لذلك العهد القديم أو اعتراضاً على صورته القائمة، ومقاييسه الفاسدة، ومعاييره الفنية المرفوضة من البيئة الجديدة .

(ب) الحنين إلى ماضى هذه الديار المتمثل في جانبه المشرق . . . حيث الرجال الكرام، ثواقب الأحساب . . . يشكله أسلوب الشاعر واستعمالاته اللغوية في قوله «ولقد رأيت بها الحلول يزينهم» فالواو تشعر بالقسم، واللام للتأكيد، وقد للتحقيق، ولفظ «الحلول» يوحى بالحل والإقامة، ولا يخفى - كما أوضحت سابقاً - ما في وصفه لهم «بيض الوجوه» «ثواقب الأحساب» من إحياءات مشرقة .

(ج) التمسك بالواقع الإسلامي الجديد، والحرص على معالم البيئة الجديدة يفصح عنه تعامل الشاعر مع الزمن اللغوي . . . ومع الدلالة اللغوية لهذا الزمن، ويتضح هذا التعامل في اتكاء الشاعر على استقبالية الزمن في الفعل «دع» في قوله: فدع الديار، وهذا الترك موصول بارتباط أكثر أماناً بزمن جديد إنه زمن الإيمان، والدعاء الصاعد من واقع الشاعر إلى ربه مع دلالة ذلك الدعاء المتمثل في الشكوى . والذي صورته الصياغة الزمنية

للفعل «واشك» هذا الدعاء . . . يعطى ثمرة التحول فى حياة الشاعر فقد أصبح يستمد قوته وعزته من الحق سبحانه وتعالى ، وليس من القبيلة أو العشيرة .

(د) تخصيص الرسول بالغزو فى قوله «أموا بغزوهم الرسول» فيه إثارة لمشاعر المسلمين ورسم صورة قبيحة للغزاة تتناقلها الأجيال وترويتها الأزمان ، لأنهم لم يكونوا يقصدون سوى القضاء على محمد- صلى الله عليه وسلم.. وكان جزاؤهم الخسران المبين .

(هـ) تحديد الشخصيات ووصفهم مثل «عينه بن حصن ، وأبى سفيان بن حرب» يحدد موقف حسان من زعماء الغزاة فهم قوة لا يستهان بها ، ومن هنا يجب الوقوف أمامهم بكل بأس وقوة ، ولفظ «متخمطين» فى قوله «متخمطين بحلبة الأحزاب» يرسم بالكلمة والوظيفة النحوية حال هؤلاء الغزاة . فهم فى كل لحظاتهم هائجون . . . صارخون . . . غاضبون . . . متحزبون ضد الرسول وأصحابه ، والتعبير «بحتى» كما قلت يوحى بالغائية والسفر وانتظار الغنائم والفعل «وردوا» فى قوله «حتى إذا وردوا المدينة» يصور ما فى نفوس الغزاة من ظمأ لدماء المسلمين ، فالورد فى الأصل اللغوى هو الذهاب للسقى من آبار المياه- فهم يردون المدينة ليطفئوا ظمأهم من دماء المسلمين!!! وقد صرح «حسان» بذلك فى الشطر الثانى فأوضح أن مقصدهم كان قتل النبى وإحراز الغنائم!!!

(و) التأثر بالبيان القرآنى العظيم وتأصيل المعجم الشعرى الإسلامى . . . وحين نتأمل شعر حسان نرى معجمه الشعرى يمثل المعجم الإسلامى أصدق تمثيل . . . فى هذه القصيدة نرى الشاعر يقتبس كثيراً من الألفاظ والمعانى القرآنية ، وتصويره لهزيمة الأحزاب مقتبس من سورة الأحزاب ، ولنتأمل هذه التعبيرات لنندرك عمق التأثر بالقرآن الكريم أسلوباً ومعنى .

«واشك الهموم إلى الإله - حتى إذا وردوا المدينة - ردوا بغیظهم على الأعداب» والأبیات التالية اقتباس من الذكر الحكيم . . .

بهبوب معصفة تفرق جمعهم

وجنود ربك سيد الأرباب

وكفى الإله المؤمنین قتالهم

وأثابهم فی الأجر خیر ثواب

من بعد ما قنطوا ففرج عنهم

تنزیل نص ملیکنا الوهاب

والشاعر برغم تأثره بالبيان القرآني السامق لم يستطع أن يرصد أبعاد الانتصار وثماره وكذلك لم يتأمل دلالات الهزيمة وآثارها . . . وإنما سيطر عليه الانفعال ، وشغل بالرد على ابن الزبعرى رداً عفويًا سريعاً نأى به عن تأمل الموقف بكل أبعاده وآفاقه .

(ز) والقصيدة تخلو من الصور الشعرية الجزئية . . . ولا يطفى عليها الخيال البدوى وما فى البيئة من معالم ومشاهد ، ولم يسهب الشاعر فى الوصف ، ولم يستغرقه التأمل فى الحدث ، وإنما جاءت قصيدته - كما قلت - رصداً مباشراً لما حدث من تطورات فى غزوة الخندق بدافع الإيمان والخوف على مستقبل الجماعة المسلمة ، أما الصنعة الفنية المتقنة فلم تكن غرض الشاعر أو غايته ، وبرغم عدم تصنعه فإننا نرى أن صدق التجربة عنده أكسب الألفاظ والتعابير طاقات إيحائية تفسر المواقف . . . وتتفتح عن آفاق من المعانى والصور الدالة ، وتلك سمة الفطرة الشعرية الخالصة .

ثالثاً: الموازنة بين قصيدة حسان وقصيدة ابن الزبيرى «رؤية وفنا» (*):

(أ) القصيدتان قيلتا فى غزوة الخندق، ولكن الرؤية الشعرية فى كل منهما تصادم الأخرى، فقصيدة «حسان» تنطلق من رؤية إيمانية تدافع عن عقيدة الإسلام وجيش المسلمين وقصيدة «ابن الزبيرى» تنطلق من رؤية وثنية مشرقة تدافع عن مقومات الحياة الجاهلية وعن عقائد الجاهليين.

(ب) البداية فى القصيدتين متفقة فنياً حيث الوقوف على الأطلال وتذكر الأهل والأحباب، ولكن بداية حسان الاستفهامية توحى بتشككه فى هذه الوسيلة الفنية، وكذلك توحى بتشككه فى زمن هذه الديار الذى ولى وأدبر، وكذلك قال: فدع الديار وذكر كل خريدة، أما بداية ابن الزبيرى فتنبئ عن حبه لهذه الأطلال زماناً وأناساً، ولذلك يبدأ بقوله «حى الديار محارفاً رسمها طول البلى وتراوح الأحقاب»، وحينما ينتقل إلى الغرض الأصلى يقول «فاترك تذكر ما مضى من عيشة» ولم يقل كما قال حسان «فدع الديار»، ولذلك كان الانتقال إلى الغرض الأصلى لدى الشاعرين متفقاً فى الوسيلة مختلفاً فى الرؤية، فحسان يجعل الأطلال فى دائرة الترك والرفض وابن الزبيرى يجعلها فى دائرة التذكر والحنين.

(ج) تفوق ابن الزبيرى فنياً على حسان فى وصفه لجيش الأحزاب، بينما لم يصف حسان جيش المسلمين واكتفى بالشكوى إلى الإله ووصف عتو المشركين وطغيانهم، ولا ضير على حسان فى ذلك فجيش المسلمين كان محاصراً بالمدينة وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً، وكان نصر الله لعباده المؤمنين ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

(*) بعد فتح مكة أسلم ابن الزبيرى وحسن إسلامه وقال شعراً يعتذر فيه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما بدر منه فى عهد الضلال. وكذلك أسلم «ضرار بن الخطاب بعد فتح مكة».

(د) تصوير «حسان» لنتيجة المعركة كان أكثر إيجاء . وأصدق إحساساً بنعمة النصر، ونشوة التفوق من تصوير ابن الزبير، حيث لم يذكر الأخير من نتيجة المعركة شيئاً سوى ما يوحي بالحسرة والإحساس بلذع الهزيمة . . حيث يقول فى أسى «لولا الخنادق لجعلنا المسلمين طعاماً للطيور والذئب، وأداة الشرط لولا . . . ودلالاتها اللغوية تؤكد الإحساس بمرارة الهزيمة وفشل النهاية .

(و) معجم البيئة البدوية وصورها يسيطر على نص «ابن الزبير» فالبداية طليية . ووصفه لمسيرة الأحزاب مصبوغ بالصبغة البدوية لفظاً وصوراً ومعنى وخيالاً، ورؤية وثنية .

يقول ابن الزبير

واذكر بلاء معاشر واشكرهمو

ساروا بأجمعهم من الأنصاب

أنصاب مكة عامدين ليثرب

فى ذى غياطل جحفل جيجاب

يدع الحزون مناهجاً معلومة

فى كل نشر ظاهر وشعاب

أما معجم حسان الشعرى فهو مزيج من موحيات البيئة البدوية وموحيات الجو الإسلامى، وينفرد حسان عن ابن الزبير فى هذا النص بتأثره بالبيان القرآنى الكريم، ورؤيته الشعرية الإسلامية .

وبعد

فقد نصر الله جنده، وهزم الأحزاب وحده، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً . . . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

ثالثاً: معالم الرؤية الإسلامية

فى شعر «محمود غنيم»^(*)

* إن الشاعر «محمود غنيم» يُعد فى الطليعة من أولئك الشعراء الكلاسيكيين الكبار . . الذين أخلصوا الفن الشعر . . وهو فن العربية الأول . . وهو ديوان العرب . . وسجل أمجادهم ، ومناط فخارهم ، ولقد كان الشاعر «محمود غنيم» ، وسيظل كما يقول الأديب الكبير يوسف السباعى فى طليعة من أحببتهم مصر من شعراء العربية وأدبائها فحولة وأصالة وصدقاً والتزاماً ، فقد تميز شعره ، بغزارة الفكر والثقافة الواسعة والصيغة المحبوكة لمعرفته بأصول اللغة العربية ، وأسرارها ، وحلاوة الإيقاع لحسه المرفه وشاعريته الأصلية .

* وتمثل الرؤية الإسلامية فى شعر محمود غنيم تياراً رئيساً فى رحلته الشعرية الخصبية الممتدة ، وآية ذلك أن ديوانه الأخير الذى أعده وبَّوه . . ثم طُبِع بعد وفاته جعل عنوانه «مع الإسلام والعروبة» .

* وكأنه يعلن أن الرؤية الإسلامية من خلال التصور الإسلامى للكون والإنسان والحياة هى المنهج الذى ارتضاه سلوكاً . . وتعبيراً فنياً . . يقدم من خلاله خطاباً الأدبى للناس . . . ، وهو على يقين أن الرؤية الإسلامية فى الشعر المعاصر لا تقتصر على الشعر الدينى المباشر المتمثل فى شعر المناجاة

(*) نشرت هذه الدراسة بمجلة البيان «التي تصدر عن المنتدى الإسلامى بلندن ، ونشرت كذلك بالمجلة العلمية لكلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالقازيق .

والتفرع ، وشعر الوعظ . . ولكنها - أى الرؤية الإسلامية - فى تجارب شعراء الإسلام تتمثل روح الإسلام ، وتستجيب لأثره الفعال فى تغيير الوجدان ، وفى تغيير رؤية الإنسان للأشياء ، وفى تشذيب المعجم الشعري ، والتراكيب الدالة على ما وراءها من أسرار روحية ، وكذلك تستوحى هذه الرؤية جوَّ الحضارة الإسلامية فى مواقفه وشخصه ، وأماكنه وأزمته ، ولا تروى هذه الرؤية الشعرية الإسلامية فى صياغتها الفنية التاريخ فى صورة سردية تقديرية ، بل تمتزج بروح ذلك التاريخ ، وتشكل منه واقعاً حضارياً له شخصيته ونفاذه وتأثيره .

* وحين نرصد أبعاد الرؤية الإسلامية فى شعر الشاعر / محمود غنيم ندرك أنه يخصص جانباً من دواوينه . . ويجعله تحت هذا المسمى «إسلاميات» . . وأرى أن هذا التخصيص يفرض حصاراً على رؤية الشاعر الإسلامية . . ويُقيِّدها . . لأن الشاعر مهما تعددت أغراض الشعر لديه فى دواوينه . . فهى تدور حول محور الإسلام . . منه تنطلق ، وإليه تعود ، ونشأة الشاعر فى بيئة دينية محافظة ، وتعلمه فى الأزهر الشريف . . وفى مدرسة القضاء الشرعى ، وفى دار العلوم

* هذه البيئات كان لها أثرها العميق فى توجه الشاعر الإسلامى ، وفى اتساع آفاق الرؤية الإسلامية وتأثيرها فى شاعريته الكبيرة ، وهو يصور هذه المعالم الرئيسة فى تكوين وجدانه ، وصقل مواهبه فيقول منوها بقريته «مليج» ، وبالمعاهد العلمية التى تلقى فيها العلم

* سلام عليها فى «مليج» «مثابة»

حفظت بها السبع القصص المثنيا

سلام على «طنطا» ومعهدا الذى

نظمتُ به قبل البلوغ القوافيا

سلام على «دار القضاء» وأهلها
وربّع من العرفان أصبح خاويا
لقد وأدوها منذ خمسين حجة
وما زال قلبي غائر الجرح داميا
سلام على «دار العلوم» وعهدها
وهيئات هذا العهد يرجع ثانيا
مغان غرقت العلم من غرفاتها
وأودعت فيها بضعة من شبابيا
أروح إليها كل يوم وأغتدى
إلى العلم عطشاننا من العلم راويا
* ورؤية «محمود غنيم» الشعرية الدائرة في فلك التصور الإسلامي يمكن أن
تحدد بعض معالمها في الظواهر الآتية :

أولاً: الرؤية الحضارية للمد الإسلامي:

* وهذه الرؤية الحضارية للوجود الإسلامي في بعض تجاربه الشعرية يبثها
من وحي زيارته للأراضى المقدسة حين قام بأداء فريضة الحج - فهو يبث المكان
أشجانه ويشتاق إلى المشاعر المقدسة، وفي الوقت ذاته لا ينسى واقع المسلمين
فيدعوهم أن يكونوا على قلب رجل واحد، وأن يكونوا أمة واحدة كما أراد
لهم الله عز وجل - : يقول : «محمود غنيم» :

دار النبوة دُنِّي عنك أبعدنِي

وحسن ظنِّي برَّبِّي منك أدنَانِي

ما غبت عني وإن لم يمتلي بصرى
من أهلك الصيد أو من ربك الفانى
قد كنت ألقاك فى لوحى وفى كُتُبى
وفى سطور أحاديثى وقرآنى
ما زلت رسمًا جميلًا فى مخيلتى
حتى كأننا التقينا منذ أزمان
* ثم يشيد الشاعر بفضل رسالة الإسلام التى انطلقت من مكة المكرمة ومن
المدينة المنورة . . ويصور ذلك متأثرًا بمهنته فى رحاب التربية والتعليم .
هنا بنى المصلح الأُمى جامعة
على أساسين من علم وعرفان
ربى العتيق أبا بكر بها وأبا
حفص وربى عليًا، وابن عَفَّانِ
طُلابُها فى ربوع العالم انتشروا
مبشرين بإصلاح وعُمران
ساسوا الشعوب بأحكام الكتاب فما

أحسَّ شعب بجور أو بطغيانِ
«ديوان «مع الإسلام والعروبة» ص ١٥- ١٦»

* وتمتاز هذه الرؤية الحضارية لدور الإسلام الفاعل والمؤثر فى حركة الحياة
بمشاعر التضرع والمناجاة . . والاعتراف بفضل الله عز وجل ، ففى نهاية

قصيدة «فى أرض النبوة» يتأثر الشاعر بمعاني القرآن الكريم . . . فى أسلوب
مشرق واضح . . . ويناجى ربه فى تضرع وخشوع .
يارب قد عشت فى دنياى مغترباً
ويلاه إن أعترب فى العالم الثانى
أستغفر الله من كفران نعمته
بل فوق ما أستحق . . . الله أعطانى
ألم يجدنى أخا غى فأرشدنى؟
وهائما غير ذى مأوى فأوانى؟
ألم يجدنى أخا جهل فعلمنى؟
وعائلا غير ذى وجد فأغنانى
لبيك ملء فمى . . . لبيك ملء فمى
يارب يارب من قلبى ووجدانى
إليك شفعت من تُرجى شفاعته
يارب إن خفَّ يوم الحشر ميزانى

* ثانياً: الأحداث والمواقف الإسلامية؛

* وحين نتأمل هذا المعلم من معالم رؤية الشاعر الإسلامية نجد أنه لم يُعن
بتسجيل الأحداث التاريخية الإسلامية عناية كبيرة حيث لم يسجل
المناسبات الإسلامية التى ألف الشعراء أن ينظموا فى ظرفها الزمنى
قصائدهم كلما حان موعد المناسبة، وكأن الشاعر/ محمود غنيم - يعلن
بهذا المسلك الفنى أن التاريخ الإسلامى ليس أحداثاً تُروى، ولا أطلالاً

نوح عليها . . بل يتجاوز التاريخ هذه الأحداث إلى التغلغل في صميم الحياة الإسلامية الناطقة بالوجه الحضارى للإسلام .

* ولتأمل تصويره الرائع فى قصيدته «الركب المقدس» وهو يتابع الهجرة المباركة من مكة إلى المدينة المنورة . . ويرصد آثار ذلك الحدث الإسلامى الكبير . . حيث يتساءل فى زهو وإيمان وعزة وخيلاء .

أى دين ذلك الدين الذى

حوّل الأفكار عن كل اتجاه

صَهَرَ الأنفس حتى لم تعد

تدرك الأنفس شيئاً ما عداه

كم أبٍ خاصم فى الله ابنه

وأخ حارب فى الله أخاه!!!

باسمه أمسى يسوس الأرض من

يحلب النوق ومن يرعى الشياه

ويجوب البحر من لم يره

غير طيف من خيال فى كراه

ناشراً من فوقه أعلامه

تفزع العقبان منها والبزاه

ثالثاً: امتزاج الحس الوطنى بالحس الإسلامى:

* وعنوان الديوان «مع الإسلام والعروبة» يجسم هذا الامتزاج بين العاطفة الدينية والعاطفة القومية والوطنية .

* وفي قصيدة «تحية وقضية» يتجلى هذا الامتزاج الحميم . . فالدين هو الوطن والوطن هو الدين ، ولا ينسى الشاعر في خضم مشاعره الروحية وهو في رحلة الحج . أن يُعرج على قضية العرب والمسلمين التي استثارت مشاعرهم . وهي قضية فلسطين . . مهد الرسالات . . ، مسرى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يقول الشاعر / محمود غنيم .

المؤمنون بكل أرض إخوة

وَيَنْصَرِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ

إن كان حاضرهم تجهم حقة

فلهم بفضل الوحدة المستقبل

سيسود آخرنا بفضل وقوفنا

صفا كما سار الرعيل الأول

* عن ثالث الحرمين ندفع عصابة

دخلته كالميكروب إذ يتسلل

هم أشعلوا في المسجد الأقصى اللظى

فليحترق بشواظها من أشعلوا

* سل أرض يثرب عن يهود قريظة

وبنى النضير يجبك كيف استؤصلوا

عرف اليهود محمد فأبادهم

ما ضر لو بمحمد نتمثل

ولسوف نسأل عن تراث محمد

ماذا يكون جوابنا إذ نسأل؟

إنى لأطلقها بمكة صَرْخَةً
مشبوبة في المشرقين تُجْلجلُ
حَمْلُ السلاح اليوم صار فريضةً
والزَّحْفُ للدين الحنيف مُكْمَلُ

* ومن مظاهر هذا التمازج بين العاطفة الوطنية القومية والعاطفة الدينية افتتاح الشاعر بعض قصائده بأبيات متأثرة بالجو الإسلامي والمعجم الديني . . . وتاريخ الصراع بين الإسلام وأعدائه ويتجلى ذلك في قصيدته «انتصار الجزائر» حيث يؤكد الشاعر أن الإسلام دين السلام . . . لادين الاستسلام، فيقول محيياً شعب الجزائر بعد انتصار الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسي .

قم ناد حيَّ على الفلاحُ
الفجر فجر السلم لاحُ
ولكل غاشية مدى
ولكل داجية صباحُ
جند الصليبيين في
أوراس هادتهم صلاحُ
إن يصدقوا فالسلم أو
فالسيف إن كذبت سجاحُ
* وهذا الإيقاع الحادُّ السريع الذي صاغه الشاعر في قالب البحر الكامل

المجزوء . . . يترجم صدق إحساس الشاعر . . . وصدق تفاعله مع قضيته التي امتزج فيها حسُّه الوطني والقومي بعاطفته الدينية المؤثرة .

* ولكن هذه العاطفة الدينية وتوظيف الرموز الإسلامية في التجارب الوطنية الحماسية تدفع بالشاعر أحيانا إلى دائرة المبالغة . . . وإقحام الألفاظ والرؤى الخاصة بالمشاعر والفرائض الإسلامية في غير مكانها ولا سياقها مثل تصويره الرحلة إلى الجزائر بأنها زيارةٌ للبقيع ، وإقامةٌ لشعائر الحج ، ويعن الشاعر في مبالغته فيصور أرض الجزائر بأنها مثل «الطور» . . . وإنه خلع نعليه فوق ترابها .

* ومثل هذه المبالغات تبتعد بالشاعر عن آفاق الرؤية الإسلامية الصافية فعلى الرغم من أنها تنبئ عن التكوين الوجداني المشبَّع بالعاطفة الإسلامية لدى الشاعر . . . لكنَّها تظل بمنأى عن سلامة التصور الصحيح لصياغة الرؤية الإسلامية ، وتوظيف الرموز الإسلامية في إطارها الفني الصحيح يقول الشاعر في مطلع قصيدته «في مهرجان الجزائر» .

زار البقيع وحجَّ زائرُ

شدَّ الرحال إلى الجزائرُ

لبَّيتُ حين نزلتُها

وأقمتُ للحج الشعائرُ!!!

ونضوتُ أثوابي بها

واعترضت عنها بالمأزرُ

وخلعتُ نعلِي فوق تُرُ

بِ مثل تُرب الطور طاهرُ!!

شَدُّ الرِّحَالِ إِلَيْكُمْ

لِلذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ غَافِرًا!!

* والمبالغة نفسها تتكرر في سياق تقدير الشاعر/ محمود غنيم لقيمة العقاد . .
وقيمة «أسوان» التي يسكنها العقاد . . حيث يشبه أسوان بالكعبة . . وهو -
أي الشاعر - من حُجَّاجِهَا!!! حيث يقول:

أسوان، والعقاد فيها «كعبة»

سمح الزمان فكنت من حُجَّاجِهَا

قد كنت أبصرها برأس حاسر

واليوم قد أبصرتها في تاجها

* وفي قصيدة «تحية الكويت» يخفف الشاعر من وقع المبالغة، ويتعد عن
الجزم . . ويجعل تقديسه للمكان في دائرة الاحتمال . . وذلك بذكرى الفعل
«كدت»، ولكنه قبل ذلك صور الكويت بأنها «جنات الخلد» ويصورها بأنها
كالواد المقدس «طوى» يخلع عندها نعليه . . ولنضع إلى تحية الشاعر
للكويت:

حيّ الكويت وقل لها . . يادرة بين الرمال

ياواحة قد خطها الرحمن في وسط التلال

«جنات خلد» في لظى الصحراء وارفة الظلال

قد كدت أخلع إذ نزلت بقدس واديها نعالى

* كما يبالغ الشاعر في رؤيته للأماكن المرتبطة بوجدانه ارتباطاً قومياً ودينياً
ونفسياً . . نراه يبالغ مدفوعاً بعاطفته الدينية، وثقافته الإسلامية - في تقدير

بعض الزعماء والقواد، وهو في هذه المبالغة التي جاءت عن طريق توظيف الرموز التاريخية الإسلامية، والقصص القرآني، والشعائر الإسلامية؛ إنَّه يبالغ في وصف السدِّ العالي وفي تقدير الزعيم «جمال عبد الناصر» مبالغةً يجسِّدُها الامتزاج الأسلوبي الفني بين الحس الوطني . . والحس الإسلامي . . إذ يقول من قصيدته «معجزة السد»:

فلق اليمَّ ناصرٌ بعصاه

وعصاه ليست من الحَيَّاتِ

بل عصا ناصرٍ إذا مسَّت الصَّخْرَ

أحالتْهُ أغصنا وارفاتِ

* أنت يامصر من قديم الليالي

كعبة السائحين والسائحاتِ

أو لم يُهرعوا إليك وفوداً

ليزوروا آثارك الخالداتِ

* أيها القوم طوفوا حول مصر

اليومَ في زيِّ محرمين حُفاةِ

وقفوا خلف سدِّها في خشوعِ

وقفة المسلمين في عرفاتِ

ها هنا الفن قام يروِي حديث الـ

مجَّد عنا والفنُّ خير الرواةِ

ها هنا معبد الفنون لمن رام

صلاة فكبروا للصلاة !!!

رابعاً: النزعة التأملية في ظلال الرؤية الإسلامية:

* إن التأمل في شعر محمود غنيم لا يمثل تياراً رئيساً، فشعره ينزع إلى تجسيد العاطفة، وإذكاء المشاعر، ولا يقحم تجربته في شعاب الفكر . . بحيث تخبو العاطفة . . ويعلو صوت الذهن، وإيقاع الفكر . . وشاعريته لم تبتعد كثيراً عن آفاق التجربة التأملية ولكن التأمل في شعر محمود غنيم ممتزج بالعواطف الحارة، والمشاعر الإنسانية الدافئة، ولا يلقى التأمل بعيداً عن ظلال الرؤية الإسلامية .

* وأهم جوانب التأمل النابع من رؤية الشاعر الإسلامية . . ما يلي:

(أ) التأمل الشعري ورحلات الفضاء:

* وللشاعر مطولات في هذا الاتجاه، وهو يتأمل هذه الظاهرة العلمية، ويحلّق في آفاق الفضاء، ولكنه يظل مرتبطاً بالأرض، حريصاً على رخاء البشرية، متمسكاً بحبل الله المتين .

يقول الشاعر بعد تأمل حدث الصعود إلى القمر:

تعالى الله إن العلم نور

سناه من سناه مستعارُ

أفوق الأرض يضمن ليت شعري

بهذا الكشف للعلم انتشارُ؟

ويُرْسَى للسلام به أساس

ويكتب للحضارة الازدهارُ؟

أمان تلك إن هي أخطأنا

فلا نصرُ هناك بل اندحارُ

* ثم يتساءل الشاعر ويتأمل ثمار هذه الرحلات الفضائية . . قائلاً :

سلوا الأفلاك إذ طرتم إليها
أكان لها من الضحك انفجارُ
وقبلكم بني هامانُ صرحًا
فكاد النجم يدركه انهيارُ
أضعتم في الهواء كنوز مال
وملء الأرض بؤس وافتقار
وحول القدس من جوع وعُري
ألوف تستجير فلا تُجارُ
وقد فتكت بنا الأمراض فتكًا .
وأيدى الطب عاجزةٌ قصارُ

* ثم ينتهي الشاعر من تأملاته إلى الاحتماء بمظلة الإيمان ، ودائرة التوحيد ولم تنته به التأملات إلى القلق أو الشك وإنما لأنه شاعر مسلم تنطلق تجاربه من نبع إيمانه الفياض بالتسليم المطلق لخالق الكون . . نجده يقول :

تعالوا نبتكر عهداً جديداً
يعمُّ الخير فيه واليسارُ
شهدت بأن لله اقتداراً
وغير الله ليس له اقتدارُ
وأن الجهل للإنسان مَهْمَا
يزدُّ علمًا ومعرفة - شعارُ

وأن وراء هذا الكون ربًّا

له فى الكون أسرارٌ كُبارُ

(ب) تأمل الطبيعة وتوظيفها فى تشكيل التجربة الشعرية:

والطبيعة فى تجربة «محمود غنيم» الشعرية التأملية تظل عاملاً خارجياً أو تصل فى بعض تجاربه إلى مرتبة «الاشترك» مثل تجارب الرومانسيين . . ولا تتجاوز الطبيعة هاتين المرتين إلى مرتبة الفناء الوجدانى فى مشاهد الطبيعة ومراثيها . . واتخاذها معادلاً موضوعياً . . أو بديلاً عن الذات . . شأن الرمزىن الذين تتحد ذواتهم بكائنات الطبيعة ومشاهدها وظواهرها المتعددة وفى قصيدة «نيسان» يتجوّل الشاعر فى عوالم الطبيعة؛ ويبدع فى وصف مغانيها ومجانيها، ويتأمل مراثيها ومراميها، وهو يبدع أيما إبداع فى هذا الجانب الوصفى المحلّق . . وفى نهاية القصيدة يرسم لوحة إيمانية تأملية مستمدة إيقاعها العذب من أجواء الرؤية الإسلامية، ولتأمل هذه النفثات الشعرية الإيمانية الصادقة .

سبحان من صوّر الدنيا فأبدعها

فقل لربِّك ربُّ العرش سبحانُ

آيات ربِّك تترى فى الوجود فهل

للمرء عين؟ وهل للمرء وجدانُ؟

كل البقاع محارِب له صنعت

وكل ما تسمع الأذان قرآنُ

* والشاعر يعلن بهذه التأمّلات الإيمانية أن الكون - فى المنظور الإيمانى - مسرح التأمّلات، وإشراق الرّوى، وهو سرّ إبداع الصور المبتكرة المؤثرة؛ والشاعر

يعود من رحلة التأملات بزاد روحى عميق وزاد أدبى مؤثر ناضج
بخصائص التجربة الإسلامية، وهذه التأملات لا تقود الأديب المسلم إلى
الهروب والارتقاء فى أحضان الطبيعة، ولا تجعل من الطبيعة إلها يعبد
الأدباء، ولا تتخذ من الغاب فردوس الشاعر المفقود، ومهاجره الآمن،
ومستقر أحلامه، هرباً من عالم الناس ودنيا الواقع، بل تصبح هذه الطبيعة
مرآة مجلوة يرى فيها الأديب نفسه وأمانيه وأحلامه، من جبالها يستمد
مفردات الشموخ والإباء، ومن بحارها يستلهم مشاعر الحب والنقاء،
والصفاء، ويتلقى دروس السمو والعطاء، ومن تقلبات فصولها يرسم
للنفس طريق رؤاها، فهى صورة من وهج الصيف، ودفء الربيع، وجذب
الخريف، وخصب الشتاء؛ انظر^(١).

* وللشاعر «محمود غنيم» مع الطبيعة تجارب تأملية عديدة. فهو ابن الريف
الأصيل، وهو عاشق الريف، وشاعر الجمال الموهوب وعاشقه، وللبحر
صدقة وألفة ووجود فى عالم الشاعر الأثير... ومن خلاله يستجلى
معالم القدرة الإلهية... ويتأمل بديع صنعة الخالق، وجلال آثاره.

* ولنصغ إلى هذه التأملات الشعرية الممزوجة بسوانح الفكر وعمق العلم: إنه
يخاطب البحر... فى لغة شعرية شفيفة وحوار مقنع جذاب، وصور شعرية
مبتكرة.

قالوا عليك: أجاجُ الماء، قلتُ لهم

بل ماؤك العذب سيال بكل فمٍ

ألم يحوّل شعاع الشمس ماءك من

ملح أجاجٍ إلى عذبٍ من الدِّيم؟

(١) انظر «القسم الأول من هذا الكتاب [مبحث «الطبيعة وتشكيل التجربة»].

لولاه ما هطلت وطفاءُ أو هدلت
ورقاءُ أو قبَّلتُ كأس شفاه ظمى
لم ينتسب شجر إلا إليك أبا
ولا انتسمى زهرًا إلا إليك نُمى
سريتَ فى طبقات الأرض منسربًا
فكيف أصبَحْتَ تيجانًا من القمم؟
وكيف طرتَ بلا ريش وأجنحة
فى حائقِ الجوّ كالعقبان والرخم؟
* قل لى بربك . . كهل أنت أم هرمٌ
أم لا تزال غلامًا بالغ الحُلم؟
* إن كنت يا بحرٌ عملاقا، فأنت وما
تحويه فى ملكوت الله كالقزمِ
وما أنا لك فى شعري بمنقصة
يكفيك أن خصك الرحمن بالقسم
إذا تسمَّعتُ خلت الموج فىك شدا
بذكرٍ من كَوْنِ الأكوان من عَدَمِ
* ويواصل الشاعر هذه التأمّلات الإيمانية فى رحاب الطبيعة الكونية .
* وفى أرجوزته الملحمية التى تربو على (١٢٠) مائة وعشرين بيتًا، يواصل
العزف التأملى على هذا الوتر الإيمانى العميق . . فيقول:

جَلَّ جلال الخالق الوهَّاب
مقدَّس الصفات والألقاب
كم همسة فصيحة الإغدا ب
للموج تطرى الله فى إسهاب
تشرح سر الكون للطلاب
* يا بحر، كم وصلت من أسباب
بينى وبين الغافر التواب
* يا بحر قد أصبحت من أصحابى
أكاد أشتكى إليك ما بى
كأنما تشفى من الأوصاب
أو تفهم المقصود من خطابى
* يا بحر دقت ساعة الإياب
وهكذا العمر إلى ذهاب

* * *

* ومن عيون قصائده وتجاربه الشعرية قصيدة «راهب الحقل» وهى مزيج من التأملات الفكرية والروحية . . مع عاطفة رومانسية دافئة ونزعة واقعية إيجابية تنزع إلى جماليات الكون، وإضفاء ظلال الرؤية الإسلامية المشعة ببريق الصفاء والنقاء .

إن الشاعر «محمود غنيم» يصور فى براعة واقتدار «الفلاح» تصويراً تأملياً إيجابياً بلغ فيه ذروة الفن الشعرى - يقول فى لغة رقيقة هامسة .

راهبٌ خَطَّ في القرى محرابه
بين شط الغدير والبلابيه
عاش للحقل والنبات فكانا
دينه في حياته وكتابه
عرف الله فطرة لا اكتساباً
فرجا عفوهُ وخاف عقابه
ما احتواه في الله شكٌ ولا طو
ل التحري عنه أثار ارتيابه
حسبه أن كل شيء بهذا الـ
كون يُومى إليه بالسببائه
عرف الله في الطبيعة عطفاً
وحناناً وقوة غلابه
ملء محرابه صلاة ونسك
في وقار يحفنه ومهابه
راكع قوائم على الأرض جاث
فوقها في تبتل وإنابه
صلوات تحول الترب تبراً
أجزل الله للمصلئ ثوابه

ويعد:

* فالشاعر الكبير . . ما يزال صوته الشعري يدوي في عالم الشعر والشعراء
بآثاره الشعرية العظيمة، وشاعريته الخصبه العميقة المحلقة .

رابعاً : من معالم التجربة الشعرية
في ديوان «نسمات إيمانية»
للشاعر الدكتور/ أحمد عمر هاشم (*)

إن شاعرية د/ أحمد عمر هاشم لا تخفى على كل من له به أدنى صلة ،
فمنذ أن كان طالبا أصدر مسرحيته الشعرية «أصحاب الجنة» وهي تنبئ عن
نضج الشاعرية في ذلك الوقت المبكر ، وتعلن عن تأصل الرؤية الإسلامية في
شعره وفي منهجه الحياتي ، وهي نابعة من التشبع بالنص القرآني والبيان
النبوي فكراً وأسلوباً وسلوكاً ، وموقفاً من الكون والإنسان والحياة ؛ وفي شعر
د/ أحمد عمر هاشم تمتزج معالم شخصيتين : شخصية الداعية الملتزم ،
وشخصية الشاعر المحلق الصادق مع توجهه رؤية وفنا ، وقد غدا الشعر لديه
وسيلة فنية من وسائل الدعوة ، وسلاحاً من أسلحتها ، وفي ديوانه «نسمات
إيمانية» يتجسد هذا التوجه ، فالديوان يجسد النهج الإيماني ويصوره تصويراً
دقيقاً صادقاً مع الوضوح والتنويع في الأداء والأوزان والأشكال الشعرية ؛
فالشاعر يقدم القصائد الطويلة ذات القافية الموحدة والصياغة الكلاسيكية ذات
النهج العربي التراثي الأصيل ، ويقدم الرباعيات والمقطعات الشعرية ،
والأناشيد الموجهة للطفل المسلم وعلى لسانه كذلك ، ويقدم كذلك قصائد من
البحور المجزوءة والكاملة ، وفي هذا الديوان تجربة شعرية طريفة جديدة وهي
يوميات صائم ، وقد بدأها بقصيدة «أشرق شمس الرسالة» وهو يصور فيها

(*) نشرت هذه الدراسة بجريدة «صوت الأزهر» ٢٣/١١/٢٠٠١م - ٨ من رمضان ١٤٢٢م .

ارتباط نزول الوحي برمضان وبزوغ شمس رسالة الإسلام : يقول في مطلع هذه القصيدة :

أخذ الوحي مجاله
وهنا حظ رحاله
وحراء بداره
صار بالأنوار هاله
ورسول الله فيه
عاكف يذكى وصاله
رمضان الخير فيه
أشرقت شمس الرسالة

وهذه اليوميات من التجارب التعليمية الصادقة في ميدان توظيف الشعر لخدمة الدعوة الإسلامية، وقدمها د/ أحمد عمر هاشم في صياغة واضحة، وأسلوب سهل، وصور شعرية مألوفة يفهمها سامعها وقارئها وهي أقرب إلى الشعر الهادف ذي النزعة التعليمية التربوية مع الاحتفاظ بوهج المشاعر، وصدق الأحاسيس، وفنية الأداء.

وحين ترصد محاور الرؤية الشعرية في هذه النسمات الإيمانية نرى أنها تتمثل في الآتي :

- (أ) الابتهاج والتضرع إلى الله .
- (ب) الشخصية المحمدية وأفاق الحب النبوي .
- (ج) الذكريات الإسلامية وارتباطها بالأحداث المعاصرة .
- (د) في رحاب رمضان .

(هـ) أناشيد الطفولة والرؤية التربوية الإسلامية .

ولنرصد هذه المحاور في إيجاز :

(أ) الابتهاال والتضرع إلى الله:

وقد وفق الشاعر الداعية حين جعل الابتهاال والتضرع في البدء والختام، وكأنه تحديد للمنهج الدعوى والشعري، حيث يبدأ الديوان بقصيدة مناجاة ويختمه بقصيدة «في طريق المحبة الإلهية» يقول من قصيدة «مناجاة»:

يا خـالقي قلبي رآك

وبكل خاطرة دعائكُ

بأنينه . . . وحنينه

وخشوعه الباكي رجائكُ

يارب دنيا الناس ما

فتئتت تزاخم في هلاكُ

وحياتهم ضربت علي

أرواحهم أقسى شركاكُ

لو أنهم ذاقوا المحببة

وانتششوا بسني سنالكُ

ما بعثروا في هذه الدنيا

ولا نصبوا الشركاكُ

بل سبحوك . . . وكبروك

وما رأوا شيئاً عدكُ

* والمناجاة في شعر د/ أحمد عمر هاشم تمتزج بالعاطفة الإنسانية النبيلة، والمشاعر الوطنية المتدفقة، فالشاعر ملتحم بقضايا أمته العربية والإسلامية؛ وقصيدته التي ختم بها ديوانه جعلها رحلة وجدانية، وأنشودة إسلامية في طريق المحبة الإلهية، وهي تربو على (٥٥) خمسة وخمسين بيتاً.

* وفيها يتوحد الشاعر مع الطبيعة الكونية، ويتخذ من مظاهرها دلائل ناطقة بقدرة الخالق عزَّ وجل، فالطبيعة كتاب مفتوح نقرأ فيه أسرار الكون، ونستشف منه جمال الحياة، ونتلقى من ظواهر هذه الآيات الكونية دروس السمو والعطاء، والتسامح والوفاء، والخصب والإباء، والوضوح والنقاء، لأنها كلها شرايين إيمانية، وألسنة نورانية تسبح الرحيم الرحمن، وتنطق بحكمة الواحد الديان، يقول الشاعر في تأمل إيماني، وتصوير شعوري، وصدق شعوري:

قد جئت بابك أضرعُ

والى رحابك أفزعُ

ومحبتني تنهل بين سني سنك فتسطعُ

لني أحبك والمحبة في الحشا ترعرعُ

وعلى مناخ الشوق آيات الهدي تتضوعُ

الوجد برعم أيها

والشمس فيها تطلع

فالشمس حين تطل تهتف: أنت أنت المبدع

والكوكب السيار إن ناديت لا يسترجع

لا الليل يستبق النهار ولا النهار يودع

والبدر حين يلوح فهو بنور وجهك يسطع
والغصن حين يميل فهو لنور قدسك يركع
والطير في أوكارها بين الغصون تُرجعُ
هي ذي بحمدك سبحت وبأي فضلك تصدع

(ب) آفاق الحب النبوي؛

وأغلب التجارب الشعرية في هذه النسمات الإيمانية تتكون من شرايين
الحب النبوي الصادق، ومن أشعة الشخصية المحمدية المتوهجة، وفي قصيدة
«فطرة الإنسان والذكرى والأمل» يصور الشاعر في دقة وصدق ابتهاج الكون
منذ نشأته الأولى بإشعاع النور المحمدي وفطرة الإسلام الخالصة، وهما
تجربتان مفعمتان بالصور الشعرية، والأخيلة المجنحة واللغة الشاعرية الموحية
الدالة، مع إدانة لواقع العالم المعاصر وهو في صدام مع هذه الفطرة الإنسانية
الصافية يقول د/ أحمد عمر هاشم:

سلوا النور المشع العبقريا

تهادى في الدنا فجرانقيا

يطارح ليلة المنغوم لحنا

رقيق الخطو ميادا حيا

ويصحو البدر مرتعش الحنايا

يُنقَلُ في السما ضوءا سنيا

حبيبي يا رسول الله هذا

ضياؤك مشرق في مقلتي

وقلبي لاهب الآهات ينعي
على الدنيا ظلاما عنجهيا
وليلا تائه النجمات غامت
به آفاقه تهمني عليا
وقفت حيالها والظلم عات
يدمدم يخنق النور البهيا

(ج) استدعاء الذكريات الإسلامية:

وهي في هذا الديوان ليست رؤية تسجيلية أو سردا لأحداث تاريخية مجردة . ولكن يقدمها الشاعر في إطار الرؤية الخاصة والدلالة العصرية المرتبطة بقضايا الأمة ومفردات الواقع السياسي والاجتماعي والديني ، إنه يصور معجزة الإسراء والمعراج . . . وفي إطار استدعاء وتصوير أحداث هذه المعجزة يستحث الأمة ويستنهضها لتصحو من غفلتها وتنهض من سباتها ، ويرصد هلال المحرم ويستوحي أحداث الهجرة النبوية ، وكذلك غزوة بدر ، وغزوة الفتح وغيرها من الذكريات والأحداث الجليلة التي تعبق بنسائم المجد والعز والإيمان والخلود: يقول الشاعر مصورا واقع المسجد الأقصى - وما حل به وبما حوله وبأهله من ضياع ودمار وتخريب :

هذا مكان أم فيه المصطفى رسل الهدى
أترى بقاع مثل هذي تستكين لمن عدا
قسما بمسجدها الذي أسرى له هادي الهدى
للرُّوح . . والدم . . والبنون . . وكل ما بيدي فدا
فأخي هناك لن يعيش على متاهات الردى

ما بين فوهة الفناء . . وبين زلزلة العدا

❖ «وفتح مكة» يعد الفتح الأكبر في تاريخ الإسلام، لأنه أعاد شمس الرسالة إلى مشرقها من جديد، فهو تاج الفتوحات وقمة الانتصارات، وفي قلب هذا الوهج يتضوأ صوت الشاعر د/ أحمد عمر هاشم، ويتناص إيقاعه الشعري، وصورته الفنية مع صوت «أمير الشعراء» أحمد شوقي في همزيتة «النبوية» التي يشرق مطلعها بهذا البيت الذائع القسامات والنعلمات .

ولد الهدي فالكائنات ضياء

وفسم الزمان تبسم وثناء

ويستهل شاعرنا همزيتة «يوم الفتح» بهذه الأبيات الرائقة التي تصور موكب الفاتحين يوم مكة، يتقدمهم نور المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يقول في زهو وخيلاء بالماضي المجيد، وإيحاء مشع بحتمية توحد الأمة حتى تستعيد حضارتها:

يوم له في العالمين ضياء

وعليه من فيض السما أنداء

فتح مبين قد أطل صباحه

فتهللت بصباحه الأرجاء

شقت كتابه الطريق وحولها

جند السماء لنصرها قد جاءوا

قد وحدت كل القلوب عقيدة

دينية، وشريعة غراء

بالحب والإخلاص كانوا أمة

لا حقد بينهم ولا أهواء

وإذا رأيت الحق وحد أمة

فازت كتائبها وعز لواءُ

* والأداء الأسلوبى ، يكشف عن الإيحاء الذي يصور حرص الشاعر على بث روح اليقظة والصمود في وجدان الأمة ، وربط الماضي بالحاضر في تمازج وتواصل لأن المعالم ثابتة ، والهوية ملامحها واضحة ، فتأكيد الشاعر في قوله «قد وحدث كل القلوب عقيدة» يجسد رؤيته الإيمانية والحضارية التي تستشرف وحدة الأمة وتجمعها حول العقيدة الإسلامية الصافية من كل الشوائب والشبهات .

ومجىء هذا التصور في صيغة الماضي ، ينبىء ويوحى بأن الوحدة حقيقة مستقرة في الماضي والحاضر والمستقبل ، ولكن مجىء فعل الكينونة في إطار الزمن الماضي (بالحب والإخلاص كانوا أمة) ، يوحى بإدانة الشاعر لواقع الأمة المعاصر . . حيث التفرق والأهواء- والفتن والمؤامرات .

* ويحشد الشاعر كل طاقاته الانفعالية ، ويكثف رؤيته ، ويجسد مشاعره في هذا البيت الذي يجري مجرى الحكمة- وهو ملتحم بنسيج التجربة الشعرية ، وغير منفصل عن سربها ، وليس بطائر في غير فضائها ، والبيت هو :

وإذا رأيت الحق وحد أمة

فازت كتائبها وعز لواء

* «وإذا» هنا تعلن عن تحقق الوحدة والفوز حين ينطلقان من آفاق الحق ، وينبعان من فيوضاته ، والشرط وهو وحدة الأمة حين يعلن عن وجوده في حضرة الحق . . يكون الفوز هو المصير ، والعزة هي اللواء .

(د) في رحاب رمضان،

ويحتل «رمضان» الجزء الأوفى من الديوان . . ففيه عشر قصائد من وحي رمضان ثم ثلاثون قصيدة، وهي يوميات صائم - كل يوم قصيدة مستقلة .

و حين نتأمل هذه اليوميات نجد أن الشاعر ربط بينها وبين قراءة القرآن على التوالي وهذه نزعة دعوية تربوية تنحو نحو ربط المسلم بالقرآن في رمضان وفي كل وقت من الزمن ، وحين نتأمل القوالب العروضية لهذه اليوميات نجدها متنوعة الأوزان والقوافي ، وهذا الصنيع الفني أبعدها عن الرتابة والتكلف وآفات الضعف التي تصاحب مثل هذه التجارب أحياناً، والشاهد على ذلك أن د/ أحمد عمر هاشم قدم عدة تجارب من البحور المجزوءة مثل «الرمل والوافر، والكامل، وقدم تجارب من البحور المركبة مثل الطويل والخفيف والبسيط، وقدم قصائد من البحور الصافية مثل الكامل والمتدارك والوافر، ويختم الشاعر ديوانه بقصيدتين هما نداء من بيت المقدس، والفجر الموعود، وفيهما تأكيد على ارتباط الشاعر بقضايا أمته، وحتمية الدفاع عن مقوماتها، ومقدساتها السلبية»، يقول الشاعر في مطلع اليوم الثامن من رمضان :

شهر الصيام بك الفضائل تشرق

وبك الهداية في الدنا تتسدفق

ناجيت ربي في الدجى متضرعا

يارب شر بالبرية يحددق

يارب إن عدونا متربص

وعلى العداوة والضلالة يطبق

فانصر عبادك واهداهم لرشادهم

فرجاؤنا بك دائماً يتعلق

* ومن فيوضات رمضان المبارك ، ومن أنواره ونسماته الإيمانية يقتبس
الشاعر هذا النداء الضارع المستغيث ، ويصور المسجد الأقصى تصويراً فنياً
وروحياً وهو يصرخ ويستنجد في عزة وإباء كل عزمات المسلمين . .
وقواهم . . حتى ينهضوا لتحريره من الغاصبين الأشرار يقول الشاعر :

أنا القبيلة الأولى ومهد العبادات

أنا المسجد الأقصى وبيت النبوات

لقد بارك الرحمن حولي بآية

فهل صنتم وحى ، وسرتم بآياتي ؟

هنا صخرتي ثكلى هنا قبلتي بكت

فقد دنس الشذاذ أرضي وساحاتي

فقد أحرقوا عرشي ، وقد أهرقوا دمي

وكم أطفأوا نوري ، وداسوا قداساتي

فيا أمستي إن لم تذودوا وتدفعوا

فلا كنتمو أهلاً لتلك الرسالات

ألا فاقروا التاريخ يا أمة وعت

مجادتها . . لم تغدُ بين المتاهات

سلوا تلكموا الأيام والنصر مشرق

بكف صلاح الدين رمز الكفاحات

(هـ) أناشيد الطفولة والرؤية التربوية الإسلامية:

* ومن معالم التجربة الشعرية في ديوان «نسمات إيمانية» النزعة التربوية في ظلال الرؤية الإسلامية لعالم الطفل وواقعه ومستقبله ، وتكوينه النفسي والعقلي والشعوري ، وهو تكوين لا ينفصل عن التصور الإسلامي لعالم الطفولة تنشئة وتربية وسلوكا .

* وفي الديوان «عشرة أناشيد» صاغها الشاعر في قالب إيقاعي مؤثر جذاب ، وفي لغة عذبة سلسلة ميسرة ، وموشاة بخيال شعري قريب إلى وجدان الطفل المسلم ، وبعيد عن الألغاز والتمويه والخيال الأسطوري العاثر الذي يشتت ذهن الطفل ويشوه ذاكرته ، ويفقده الطمأنينة والسكينة التي يحرص عليها الإسلام في تربية الطفل وتنشئته ، ومن هنا كان توجه د/ أحمد عمر هاشم إلى غرس اليقين والأمان والأمل ، والتغني بأمجاد الإسلام في وجدان الأطفال ، وهذه الأناشيد بما تنطوي عليه من قيم سامية نبيلة تغذي وجدان الشباب كذلك وتأسره ، لأنها قريبة المعاني سهلة الألفاظ ، تنطوي على دروس وإيحاءات إيجابية عميقة .

* ومن الأناشيد الجميلة المؤثرة نشيد «أبتى أحببتك يا أبتى» وهو يجسد قضية اجتماعية ذات شأن مؤثر ، وعاطفة إنسانية صادقة يقول الشاعر :

أبتى أحببتك يا أبتى

هذا اسمك يحلو في شفتي

فلكم عانيت لمصلحتي

يارائد أول مدرسة

أبتى أحببتك يا أبتى

كافحت فلم تلق العسره
ونهضت بأعباء الأسرة
فأدم يارب لهم يُسره
فيه مسعاي ومكرمتي
أبتى أحببتك يا أبتى
قد قلت: الحفظ مع الصغر
يبقى كالنقش على الحجر
فوعينا آيات السور
حفظا في أول مرحلة
أبتى أحببتك يا أبتى
كم كنت تلقنا قيما
غراء لكي نرقى القمما
وتزيد مساعينا همما
للحق بنفس مؤمنة
أبتى أحببتك يا أبتى
يا أرحم قلب ألقاه
مدت لحياتي كفاه
بالخير سيجزيك الله
يا أصل هداي ومرحمتي

أبتى أحببتك ياأبتى

* وفي نشيد «عام الطفولة» يجسد الشاعر رؤيته وتصوره لعالم الطفل المسلم . . فيكتب على لسان «الأطفال» هذه المشاعر الصادقة المسكونة بأنفاس البراءة والطموح، والموشاة بزخارف المجد . . والتاريخ، والسابحة في فضاء العقيدة الرحب الصافي المتوهج، يقول:

عامنا عام الطفولة

عامنا عام الطفولة

وغدا تُبدي البطولة

في ميادين الرجولة

عامنا عام الطفولة

قد أهل العام فينا

يرتضى الإسلام ديننا

نبتني عزا مكيانا

كم ترقبنا وصوله

عامنا عام الطفولة

نحن في ظل الشريعة

أنفس تحيا مطيعة

نحن نمضي في الطليعة

في لقاءات ظليله

عامنا عام الطفولة

قد رأينا العلم نورا
يملأ الصدر حـبورا
يصقل القلب الغيورا
ينفح الدنيا عقوله
عامنا عام الطفولة
ديننا أعظم دين
فيه عز كل حين
بهدي الذكر المبين
أرسل الله رسوله
عامنا عام الطفولة

* وبعد: فإن النسمات الإيمانية موجات شعرية مناسبة عذبة تتدفق من وجدان شاعر داعية حدد طريقه ومنهجه وهو نشر الدعوة الإسلامية بكل الوسائل الدعوية المتاحة . . والشعر في مقدمة هذه الوسائل المؤثرة، ولذلك نأى الشاعر عن غرابة الألفاظ ووعورتها، وابتعد عن تكلف الصور، وتعتمد الأخيلة والمحسنات، لأن الوضوح غايته، والبيان هدفه، والإقناع سبيله، وأدب الدعوة هذا نهجه، وتلك سماته، وهي تنبع من قول المصطفى صلى الله عليه وسلم:

«إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة».

خامساً: استدعاء الشخصية الإسلامية

في ديوان حدائق الصوت(*)

ديوان «حدائق الصوت» هو الديوان السابع للشاعر د/ حسين علي محمد . . وهو من الشعراء المتميزين بالعطاء الإبداعي والنقدي الثر الدائر في فلك التصور الإسلامي .

والشاعر يمتلك أدوات فنية عالية تمكنه من السيطرة على فنية التجربة الشعرية ، وينأى بها عن السطحية والتقريبية والمباشرة . وقد سخر حسين علي محمد هذه الأدوات الجمالية الفنية المعاصرة لثراء تجاربه في حقل «الأدب الإسلامي» الخصب . وديوانه حدائق الصوت يتضمن أكثر من مائة قصيدة . . فهو عدة دواوين أثر الشاعر أن يجعلها حدائق توضع بالعبير الإنساني ، والشذا الإيماني . . لتتجمع في صوت واحد . . هو صوت الشاعر المسلم الباحث عن الوجود الإيماني القوى الفعال . وحين نتأمل التجارب التي اتكأت على توظيف الشخصيات الإسلامية في إكساب التجربة أبعاداً فنية رامية ، نجد أن الشعراء يتفاوتون فيما بينهم في التعامل الفني مع هذه الشخصيات في حالتها: الوجه والقناع . فالشخصية الإسلامية في النسيج الشعري ليست تاريخاً يروي ، وليست سيرة يحللها الشاعر وإنما استدعاؤها يأتي في إطار شعري غير محدد بأسوار التاريخ ، وغير خاضع لمنطقه المحكم .

(١) نشرت هذه الدراسة بمجلة «البلد الأمين» التي تصدر عن النادي الثقافي والأدبي بمكة المكرمة : رمضان ١٤١٧هـ/ ديسمبر ١٩٩٦م .

وهذا الاستدعاء الفني يسلط الشعور الناقد أو الراض أو المتعاطف مع حركة الحياة المعاصرة . وقد يقتصر هذا الاستدعاء على بعد واحد من أبعاد الشخصية ، وقد يتجاوز الشاعر البعد الواحد إلى الرؤية الشمولية للشخصية كلها . . فينظر إليها من منظور عقدي ووجدانه يموج بوهج الإيمان والشوق إلى انتصار الوجود الإسلامي ، وعودته إلى تسنم ذروة المجد وقمة الحضارة^(١) .

استدعاء وفق منظور إسلامي:

والشاعر حسين علي محمد في ديوان «حدائق الصوت» يستدعي الشخصية الإسلامية وفق منظور التصور الإسلامي وأحياناً يمزج همومه الذاتية المعاصرة بأحداث ومعالم الشخصية التي يستدعيها . . ولكنه في أكثر تجاربه يستوحي مواقف البطولة والرؤى الحضارية التي يأمل أن تعود إلى الواقع الإسلامي المعاصر . . . وقصيدته محمد - صلى الله عليه وسلم - تعد أمودجاً جيداً لرصد ملامح شخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وأثرها في إسعاد البشرية وهدايتها وفق تعاليم القرآن الكريم .

والقصيدة تبتعد عن الرصد المباشر للسيرة النبوية العطرة وتوغل في حقل المحبة والدلالة الشعورية والتأثيرية للدعوة الإصلاحية حاضراً ومستقبلاً .

إن هذه الملامح الحضارية التي يتطلع إليها الشاعر ويأمل أن تمتزج بالوجود الإسلامي المعاصر . . تظل مقترنة بحتمية وجود الكتاب ، وسنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - في حياة الناس وفي حركة الحياة . . . وفي تكرار الشاعر لمادة المجيء في صيغتها الآنية والمستقبلية ، وكذلك صياغته الزمنية لتصوراته المستقبلية . . . حيث الأفعال المضارعة التي تعلن عن «الآني والمستقبلي» وارتباط هذه الأفعال في مسيرتها بحرف العطف الفاء الدال على المتابعة وسرعة الإيقاع ، كل ذلك يجسم لهفة الشاعر ورغبته القوية . . . في انتصار الكيان الإسلامي المعاصر .

(١) انظر القسم الأول من هذا الكتاب «مبحث وأبعاد توظيف الشخصيات التراثية» .

وشخصية عمرو بن العاص يشكل الشاعر من ملامحها التاريخية أبعاد تجربته في قصيدته «التحديق في وجه الشمس» أو من إشراقات «عمرو بن العاص» وهي قصيدة ملحمية تتكون من عشرة مشاهد وهي أقرب إلى الدراما الشعرية .

العصافير والسنابل:

وشخصية عمرو بن العاص في وجدان الشاعر وفي رؤيته مرتبطة بفتح مصر وإنقاذها من الاضطهاد الروماني .

وقد أوما الشاعر إلى ذلك في بارقة مضيئة في اللوحة العاشرة من هذه القصيدة . . . بعد أن أفرغ كل مواجيده وهمومه وآلامه الخاصة والعامه . وهذه البارقة ينبع شعاعها من كلمة «الفسطاط» وهو مرتبط بشخصية عمرو بن العاص والفتح الإسلامي المبين لمصر . . . يقول الشاعر في مشهد «العصافير والسنابل» .

وفسطاطنا

أراه نخيلا من البرق يمطرنا بالثمار العجيبة

تنبت في ساعدك العناقيد

تجرى العيون بكفيك لؤلؤة . .

تتعانق والموج

جئت من البدو

أحمل رؤيا السماء إلى الأرض والنهر

هل تتلاشى الفواصل

هل تختفي في الجراح

وفي داخلي غضبٌ كاسرٌ وحوائط
أرقب إشراقة النهر والسنبلة
وهأنذا في المدائن أرقبها
هل تمتطى صهوة الريح ثانية
هل سنحلم . .

نخرج من أسر أحلامنا المثقلة؟

وهذا المشهد يعد صورة من رؤية الشاعر الحضارية الإسلامية «الفسطاط»
الجديد الذي يستعيد المجد الإسلامي . إن ملامحه مستمدة من مكونات الرؤية
الإسلامية المشرقة بالأمل والفتوحات .

ولنتأمل موحيات هذه الصور والتشكيلات الجديدة للواقع المأمول
«الفسطاط» إنه :

نخيل من البرق يطرنا بالثمار العجيبة
تنبت في ساعدك العناقيدُ!
تجري العيون بكفيك لؤلؤه . .
أحمل رؤيا السماء إلى الأرض . .
تتلاشى الفواصل (السدود)
أرقب إشراقة النهر والسنبلة
هل تمتطى صهوة الريح ثانية

وفي قصيدة من أوراق سعد بن معاذ يتجلى الحس الحضاري الإسلامي ،
والتمسك بالأرض / الوطن / القومية والهوية العربية والإسلامية . . . فسعد
ابن معاذ في رؤية «الشاعر حسين علي محمد» شاهد على العصر .

والشاعر من خلاله يدين الغدر الصهيوني ، ويكشف مخططات اليهود لاغتصاب الأرض المسلمة ، واغتيال السلام والأمن ، والاعتداء على أولى القبليتين ، وثالث الحرمين «المسجد الأقصى» فهم أحفاد بني قريظة وكان الشاعر يريد أن يواصل تجربته إلينا عبر استدعائه لشخصية سعد بن معاذ قائلاً :

أغنية أولى.. أغنية أخيرة:

إن يهود العصر الحديث هم امتداد لليهود بني قريظة ويستحقون مثل ما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - معهم بعد تحكيم سعد بن معاذ فيهم عقاباً لهم على خيانتهم العهد وتحالفهم مع الأحزاب ضد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين معه . والقصيدة تتكون من خمسة مشاهد شعرية ، وهي في نسيجها الفني تتلاقى مع قصيدة إشراقات عمرو بن العاص وتنزع إلى التراكيب اللغوية الجديدة ، والصور الشعرية المبتكرة الموحية . يقول الشاعر في المشهد الأخير (أغنية أولى - أغنية أخيرة) :

يأتي إليك الفجرُ

ياسعد امتط الأهوال مركبة إلى وزن القصيد

رد اللغات إلى صباها

قد قلتها يوماً لأحمد في العباب :

لوخضت هذا البحر خضناه

اختصر زمن الغياب

وهذه صيحات جند الله تبلغ منتهاها

قد جاءت الغربان غازية

وقبلك صرخة للتل والصحراء قامتك السماء

هذي يمامتك التي روعت برؤى الدماء
تمضي إلى الفردوس شامخة مغردة
فكيف إذن تراها؟

مسيرة الأدب الإسلامي،

إن تجارب حسين علي محمد في هذا المضمار ثرية خصبة تؤكد قدرة
الشاعر الملتزم بالتصور الإسلامي على صياغة تجاربه وفق المعايير الجمالية
الحديثة لغة ومعجماً وصورة ورؤية ومعماراً فنياً .

والشاعر مع قرنائه من الشعراء المجددين الملتزمين بالرؤية الإسلامية على
امتداد الوطن العربي والإسلامي قادرون بمشيئة الله سبحانه على ترسيخ
جماليات الأدب الإسلامي بإبداعاتهم الفنية الرصينة، والمتابعة النقدية الجادة
المعاصرة لها عمل مؤثر في استمرارية مسيرة الأدب الإسلامي . . . بإذن الله .
والله الموفق .

إضاءة،

الشاعر الدكتور/ حسين علي محمد

أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية ، وله نشاط إبداعي ونقدي ملحوظ .

وقد أصدر عدداً من الدواوين الشعرية، وهو عضو هيئة تحرير مجلة الأدب
الإسلامي .

ومن دواوينه .

١ - شجرة الحلم .

٢- الحلم والأسوار .

٣- الرحيل على جواد النار .

٤- حكايات مغرور . وهو ديوان شعري للأطفال .

ومن كتبه البطل في المسرح الشعري المعاصر .

و «القرآن ونظرية الفن» .

سادسا : ضلال الرؤية الإسلامية

في شعر هاشم الرفاعي (*)

إن الوهج الديني لا يخبو في آفاق التجارب الشعرية التي ارتادها «هاشم الرفاعي» ولا ينقطع الخيط الإسلامي فهو شاعر مسلم، نشأ في بيئة دينية تعبق بشذا الإسلام وروحانيته، وتستروح النفوس نسائمه الوضاء، ولكن الشاعر لم يعمق هذه التجارب الدائرة في فلك التصور الإسلامي ولم يتكئ على الوسائل الفنية التي توضح أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر، فالرؤية الشعرية في ظل خصائص التصور الإسلامي . . في النموذج الأمثل لها لا تظل أسيرة لمضمون الشعر الديني المباشر، ولكن هذه الرؤية تمثل روح الإسلام، وتستجيب لأثره الفعال في تغيير الوجدان، وفي تغيير رؤية الإنسان للأشياء، وفي تشذيب المعجم الشعري، والتراكيب الدالة على ما وراءها من أسرار روحية، وكذلك تستوحي هذه الرؤية جو الحضارة الإسلامية في مواقفه وشخصه وأماكنه وأزمته، ولا تحكي هذه الرؤية في صياغتها الفنية التاريخ في صورة سرديّة تقريرية، بل يمتزج بروح ذلك التاريخ، وتشكل منه واقعا حضاريا له شخصيته ونفاذه وتأثيره^(١).

والصياغة الفنية لمكونات هذه الرؤية الشعرية الحضارية الإسلامية تتأثر إلى

(*) نشرت هذه الدراسة بجريدة «المسلمون الدولية» عام ١٤١٦ هـ.

(١) انظر هذه الخصائص بالتفصيل في القسم الأول من هذا الكتاب مبحث [أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر] . .

حد كبير بالبيان القرآني والبيان النبوي، والتراث الإسلامي في مواقفه وشخصه وأماكنه وآثاره الفكرية والإبداعية، وكذلك لا تنفصل عن إيقاع العصر لغة وأسلوباً وتصويراً ورؤية كونية شاملة وتظل سابعة في فلك التصور الإسلامي، مشحونة بطاقاته الروحية وخصائصه الفكرية وهي (الوحدانية والثبات، والاتزان والواقعية والشمولية، والإيجابية، والربانية)^(١).

وحين نتأمل نتاج «هاشم الرفاعي» الشعري في ضوء هذا التصور النقدي نجد أنه يقف بشعره عند مرحلة الرصد المباشر للتجربة، وربما دفعه إلى ذلك حماسه للتجربة، وانفعاله المبكر بقضايا الإسلام، ورغبته القوية في العودة بالسلوك الإسلامي إلى مناطق الصدق والبراءة والتضحيات.

والشاعر في تجاربه الشعرية الدينية يحاول استنهاض العزائم، حتى تعود الأمة الإسلامية كما كانت في عهد هذا الذهبي قوة عزيزة المنال، لها صوتها وهيبتها ومكانتها، فهو في «عيد الهجرة» لا يروى أحداث هذه المناسبة الجليلة، ولكنه يتخذ من الهجرة معبراً للإشادة بتاريخ هذه الأمة والحث على النهوض وتجاوز الواقع المتردي.

ويكتب الشاعر أربع قصائد في ذكرى مولد الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وكلها قصائد طوال، وهو فيها يقف مشدوهاً أمام عظمة الشمائل المحمدية، وأمام بريق الانتصار الذي حققه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وفي هذه القصائد يبرز بجلاء ووضوح النصر المبين الذي أحرزه المسلمون في بدر، وكذلك العزة الإسلامية في فتح مكة، والدرس الإلهي في أحد، وتجلي هذه القصائد مشاهد مضيئة من السيرة النبوية، يقول:

نبي أتى والكون في الغي سادر

فكشَّف عنه من دجى الشرك غيبها

(١) انظر «معالم التجربة الأدبية في ظل خصائص التصور الإسلامي» بالقسم الأول من هذا الكتاب [المؤلف].

نبي بنى للإسلام صرحا ممنعا
وأطره غيثا من الهدى صَيِّبا
فأُنبتَ فيه النور والحق والسنا
بدعوة صدق بعدما كان أجديبا^(١)

وفي قصيدة أخرى يصور عناد المشركين واتهامهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ويحلل نشأة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - في طفولته، ويرى أن هذه الطفولة، كانت تمهيدا لمرحلة الشباب السوية - وكل ذلك الإعداد الإلهي من أجل القيام بأعباء النبوة . . والدعوة الإسلامية : يقول :

وجاوز إغراء الشباب وقد أبي
له الله إلا أن يصاب ويعصما
فما ذاق في طور الطفولة لينها
ولا عاش في طور الشباب منعما
وما ذاك ضن بالهناء على الفتى
فما كان من نيل الهناء ليحرما
ولكنه أمر يعد لحملة
صغيرا فكان الهدى أجدى وأخزما
لهذا رآه القوم إذ قام داعيا
قويا صبورا، ما اشتكى أو تبرما

* * *

(١) انظر : نص القصيدة كاملا في الديوان من ص (٩٠-٩٣).

وقالوا: فقير ينشد الجاه والغنى

ومهمل قوم شاء أن يتزعما

خرافات مجنون، وأوهام شاعر

به من رئيُّ الجن داء تحكما

لقد أوغلوا في إفكهم وعنادهم

وكان الذي قالوه وهما مرجما

هو الحق، لكن كيف يهدي لنوره

وإن كان مثل الشمس من كان ذا عمى^(١)

وتمتزج الرؤية الإسلامية الصافية بالرؤية الدينية الرمزية في شعر «هاشم الرفاعي»، وهذا الامتزاج مبعثه نشأة الشاعر في ظل أسرته «الهاشمية» التي يفتخر الشاعر بها كثيرا، ويتقمص في فخره شخصية الشعراء القدامى . . فيقول مستوحيا أصداء المعركة الشعرية التي دارت بين الفرزدق وجرير على مدى خمسة وأربعين عامًا .

يقول «هاشم الرفاعي» متحديا «الفرزدق» معلنا أن قومه أعز من قوم الفرزدق وهم «تميم» .

قومي أولئك يافرزدق فالقني

إذ ما فخرت على جرير بنهشل

قوم ناهم للمكارم هاشم

فخر المجامع في الزمان الأول

(١) انظر نص القصيدة كاملا في الديوان ص (٩٤-٩٨) .

وفي قصيدة أخرى يصور الوفود التي تفد على ساحة جده، وتقرب لخته
هنا من المعجم الديني الروحي الصوفي حيث يذكر الشوق والوجد، والظماً
والورد، والطهر والعهد، والسهد.

إليك سعى الأحباب والصحب يا جَدُّ

يُحرِّقُهُم شوق ويدفعهم وجد

وذوا الظماً المشتاق لا يعرف الونى

يفيض بها حب ويملؤها ود

وأفئدة من كل صوب تجمعت

على طاعة الرحمن يسكها عهد

فيا فرع أسمى دوحة نبوية

وفخر الألى في الله شفهم السهد

ويا غصن أزكى سرحة هاشمية

إلى كل ركن في المكارم تمتد^(١)

ورؤية الشاعر الإسلامية في أحد خيوطها الفنية تجمع بين الانتماء
الإسلامي، والإحساس بالقومية العربية. . حيث التاريخ العربي الإسلامي
المشرق بالأمجاد، وإنه خير دليل على هذا الامتزاج بين الدين والعروبة،
فالفتوحات الإسلامية في عصور الحضارة الإسلامية التي بثت الرخاء والتقدم
في جميع أرجاء المعمورة، قام بها الجنود الفاتحون يقودهم القواد المسلمون
العرب الذين انطلقوا من الجزيرة العربية فرسانا مغاوير يطلبون إحدى
الحسينيين: إما النصر وإما الشهادة.

(١) انظر الديوان ص ١١١-١١٢.

ويستوحى «هاشم الرفاعي» أصدقاء هذا التراث الخالد فينطق في بلاغة
أسرة.

لم يزل في خاطري أن الذي
قوض الرومان بالرمح أبي
كيف لا أذكر أجدادا لهم
فتكة الإعصار عند الغضب
وجوادا قبلت حافره
لجة البحر تجاه المغرب
وملوك الصين تهدي تربها
لفتانا في صحاف الذهب
أي روح من هداها انبجست
هذه الأضواء مثل الشهب
أي إشراقة نفس رفعت
هذه الأمجاد فوق الكوكب
إنها قصة بعث كتبت
بحروف من سنا من لهب
نهضة بالدين شادوا صرحها
ثابت الركن قوى الطنب
أمة العرب بخير طالما
هي في إسلامها لم تنكب^(١)

(١) انظر الديوان ٢٢٥-٢٢٧.

وفي قصيدة «أضواء من السماء» يحيى الشاعر المؤتمر الأسيوي الأفريقي، ويرى في إرهابات هذا التوحيد بين القارتين تحقيقاً لرسالة الإسلام ودعوته لإقامة الكيان الإسلامي الموحد، ويرجع بذاكرته الإيمانية ليعرض أمام الواقع المعاصر صور المجد الإسلامي المتألقة بالوحدة والقوة والعزة، ويفتخر بأن آسيا كانت منبع الحق والتوحيد... حيث كان ميلاد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - في مكة.

يا للمنار السمح قد غشى الدجى

مستكامل البيان في إبداع

دين بني الإنسان، كرم شأنه

وأقيام ركن هنائه المتداعي

في آسيا وعلى جديب رمالها

شهد الورى ميلاد شعب واع

نبت الهدى والحق في جنباتها

وجرى الضياء على لسان الداعي

وكما يسيل الفجر سال النور من

هدى السماء على ربا وبقاع

* * *

ويتأمل الشاعر ظاهرة انهيار القيم في المجتمع الإسلامي فيرى أن الآفة الحقيقية المسببة لهذا التداعي تتمثل في انصراف الشباب عن قضايا دينهم ويأمل أن يتشكل النموذج الشبابي الإسلامي المعاصر وفق خصائص وصفات شباب الإسلام في عصر صدر الإسلام وفي عصر الخلفاء الراشدين وهذه

الخصائص تشكلت في صور فنية مؤثرة لها موحياتها وظلالها، وقد قال الشاعر قصيدة «شباب الإسلام» في عام ١٩٥٩م، فأراء الشاعر فيها تعد المنهج الذي استقر عليه . . . والرؤية الشعرية التي التزم بأبعادها .

إنه يصف الشباب الإسلامي / النموذج في الأبيات التالية :

شباب ذللو سبل المعالي

وما عرفوا سوى الإسلام ديننا

تعهدهم فأثبتهم نباتا

كريما طاب في الدنيا غصونا

هم وردوا الحياض مباركات

فسالت عندهم ماء معينا

إذا شهدوا الوغى كانوا كماء

يدكون المعازل والحصونا

وإن جن المساء فلا تراهم

من الإشفاق إلا ساجدينا

شباب لم تحطمه الليالي

ولم يسلم إلى الخصم العرينا

كذلك أخرج الإسلام قومي

شبابا مخلصا حرا أمينا

وعلمه الكرامة كيف تبني

فيأبي أن يقيد أو يهونا^(١)

(١) الديوان ص ٢٤٨ .

سابعاً : معالم التجربة الشعرية في قصة

«إبراهيم الخليل»

للشاعر أحمد نور الدين

إن للشعر جناحين يحلق بهما في فضاء التجربة ، ويرتاد بهما مدارات جديدة ، وآفاقاً شعورية وفنية فسيحة . . وهذان الجناحان هما : التاريخ والطبيعة . . ؟ فالتاريخ «مادة خام» يشكلها الشاعر حسب مزاجه النفسى والشعورى ووفق مذهبه الفنى . . ، والطبيعة كتاب مفتوح نقرأ فيه أسرار الكون ، ونستشف منه جمال الحياة ، فمرائى الوجود الطبيعية ، والمشاهد الكونية فى التجارب الشعرية الرائدة ماهى إلا انعكاس لما تمور به نفوس الشعراء من مشاعر متباينة .

* فالشعراء فى أرقى حالاتهم الشعورية يصورون الطبيعة انطلاقاً من رؤيتهم النفسية للحياة ، ومعالم الوجود .

* والشاعر / «أحمد نور الدين» . . قد اتخذ من التاريخ وسيلة فنية لصياغة تجربته الشعرية . . وعمد إلى القلب القصصى ليصب فيه مفردات تجربته ، واختار من التاريخ الإنسانى . . شخصية جليلة لها مكاتنها فى التاريخ الإنسانى كله ، وفى تاريخ الأديان ، فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - أبو الأنبياء ، يمثل قيمة سامقة فى تاريخ البشرية ، وعطاءً متجدداً يثرى الوجدان الإنسانى ، ويوحد المشاعر المؤمنة التى تنضوي تحت لواء التوحيد . .

* فمنبع التجربة الشعرية فى هذه القصة عظيم المصدر، سامق الغاية، وكأنى بالشاعر/ أحمد نور الدين يلتقى مع المفكر الكبير الأستاذ «عباس العقاد» فى الهدف والغاية حين كتب كلاهما فى «سيرة الخليل إبراهيم» فهو أول من نافح عن فكرة التوحيد، وأول من تصدى للوثنية وازدراء أهلها وما يعبدون، وهو النبى الذى عدّه من جاء بعده من الأنبياء المثل الأعلى فى الدعوة إلى الحق، والرائد الأول الذى أرشدهم إلى واحة الهداية، ودلهم على منتجع الرشد والاستقامة والإيمان، وهو الذى طبعت الديانات الثلاث الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام. بطابع دعوته ورسالته، مما جعله جديراً كل الجدارة بأن يُدعى أبا الأنبياء، كما جعل كفاحه فى سبيل إعلاء كلمة الله، وخضوعه للإرادة الإلهية، إبراهيم الخليل، خليل الرحمن . .

* وفى العالم اليوم- كما يقول العقاد- أكثر من ألف مليون إنسان يدينون بالموسوية والمسيحية والإسلام، وهى الأديان التى جاء بها موسى وعيسى ومحمد- عليهم الصلاة والسلام-. وهم الأنبياء الثلاثة الكبار الذين ينتمون جميعاً إلى «الخليل إبراهيم» .

* لا جرم يسمى «خليل الرحمن» .

* وإن دعوة «الخليل» قد اقترنت بالتوحيد، واقترنت بميزان العدل الإلهى، واقترنت بإعلاء العبادة إلى ما فوق الطبيعة والجثمان، وهذه هى الفتوح التى لا نظير لها فيما تحدث عنه المؤرخون من فتوح الحياة الإنسانية، منذ أقدم عصورها إلى العصر الحديث «إبراهيم أبو الأنبياء» للعقاد . . (ص ٤، ٦).

* فالتجربة الشعرية هنا لا تنحصر فى قفص الذات، ولا تمثل ردّ فعل نفسى، ولكنها تجربة موضوعية تصوغ أمام الجيل المعاصر سيرة جليلة لأسمى نموذج فى التاريخ الإنسانى «خليل الرحمن، و خليل الإنسان» .

* والتراث الدينى والإسلامى بكل معطياته شخصاً وأماكن ومواقف . . .
وأزمانا يضيء زوايا التجربة فى الشعر المعاصر؛ والشخصية فى النسيج
الشعرى ليست تاريخاً يُروى، وليست سيرة يحللها الشاعر، وإنما
استدعاؤها يأتى فى إطار شعرى غير محدد بأسوار التاريخ، وغير خاضع
لمنطق المحكم.

* وقد يقتصر هذا الاستدعاء على بعد واحد من أبعاد الشخصية مثل البعد
السياسى، وقد يتجاوز هذا البعد الواحد إلى الرؤية الشمولية للشخصية
كلها فينظر إليها من منظور «عقدى» ووجدانه يوجع بوهج الإيمان، والشوق
إلى انتصار الوجود الإيماني، وعودته إلى تسنم ذروة المجد، وقمة
الحضارة.

* والشاعر «أحمد نور الدين» تتسم رؤيته الشعرية لشخصية «الخليل إبراهيم»
بالشمولية، والعاطفة الإيمانية، والصدق الوجدانى المتسق مع الصدق
الفنى.

* وهو لم يعمد إلى «الغموض» والرموز . . . ولكنه لجأ إلى الوضوح . . .
وتعامل مع أحداث التاريخ بصورة مباشرة، وأعمل عقله أكثر من عاطفته،
وربما يرجع ذلك إلى إحساسه بضرورة الصدق التاريخى . . . لأنه لا يتخذ
من شخصية الخليل قناعاً يخفى وراءه مشاعره الذاتية الخاصة . . . ولكنه
يشعر بجلال الشخصية وقيمتها فى تاريخ الحضارة البشرية كلها، ومكانتها
الدينية التى تقف دون حرية الشاعر فى صنع الأحداث، وإطلاق العنان
للخيال الشعرى . . . فالتجربة هنا تاريخ مصبوب فى قالب شعرى . . .
ولاضير على الشاعر حين يلتزم بوقائع التاريخ فى مثل هذا الموضوع، لأنه
يدرك ذلك حيث شحذ فكره ووجدانه واستعد ونقب فى بطون الكتب
والمراجع، والتفاسير . . . وكتب الحديث النبوى . . . حيث يقول عن قصة
«الخليل إبراهيم» «إنها لم ترد كاملة فى القرآن الكريم، فكان لابد من

الرجوع إلى كتب الحديث لاستكمال معالم القصة بعد جمع كل الآيات التي تحدثت عن سيدنا إبراهيم في القرآن الكريم . . ، وكما اختلف المفسرون في تفسير هذه الآيات ، اختلف رواة السير والأخبار أيضاً في بعض تفاصيل القصة» .

* ولا شك أن هذه سمة الباحثين الجادّين . . ، وسمة التجارب الشعرية التي تروى أحداث التاريخ رغبة في تعميق القيم الدينية في الوجدان المعاصر .

* ويوضح الشاعر هدفه من هذا العمل حين يفضل إخراجها للناس قبل ديوانه الشعري الذي يضم تجاربه الشعرية المتعدّدة التي تعد - كما يقول - المحك الحقيقي الذي يمكن للنقاد من خلاله الحكم على القيمة الأدبية لشعر الشاعر .

* وهذا حسٌ نقدي واع يدرك أسرار التجربة وجمالياتها . . ، يقول الشاعر :
آثرت أن أنشر هذا العمل إيماناً مني بأن قيمته في ميزان الآخرة أفضل وأبقى من أى قيمة أخرى في حياة الناس «ص ١٤» «ديوان الخليل إبراهيم» .

* وينتهي المطاف بقصة الخليل إلى العصر الحاضر - كما يقول العقاد - وينتهي إلى العالم الحديث وفيه ألف مليون إنسان يقرءون قصتهم وقصة آبائهم وأجدادهم في العقيدة الإلهية ، حين يقرءون قصة «الخليل» .

* وقد صب الشاعر تجربته في قالب نغمي واحد . . في القصة كلها . . حتى المقدمة والإهداء والخاتمة . . وجاء هذا القالب الوزني من خلال «مجزوء الوافر» .

«مفاعلتن مفاعلتن

مفاعلتن مفاعلتن»

* وهذه الوحدة النغمية قد تصبغ العمل بالرتابة . . وتدفع إلى الملل . . ولكن

الشاعر لجأ إلى هذا التوحيد النغمي . . ربما لإحساسه بأنه يرسم ملامح شخصية واحدة، وهى شخصية متكاملة الأبعاد . . متزنة السلوك . . ، تعدّ نموذجاً للتوازن الإنسانى، كما أنها منبع الدعوة إلى التوحيد؛ فهل كانت هذه الخواطر تدور فى وجدان الشاعر . . وفى « اللاوعى عنده » فجاء النغم الموحد متسقاً مع الفكرة الواحدة . . والشخصية الواحدة، والعقيدة الموحدة؟؟

* ولم يلتزم الشاعر بالقافية الواحدة . . ولكنه اتبع نظاماً واحداً وهو «الرباعيات» حيث تتغير القافية بعد كل أربعة أبيات .

* وكان بإمكان الشاعر أن يكثر من الحوار الشعري . . ومن تعدد الأصوات فى هذا العمل الشعري الجيد . . حتى ينوع فى النغم، ويشد القارئ إليه أكثر وصولاً إلى عنصر التأثير والإمتاع والتشويق .

* ولكنه اكتفى بدور «الراوى»؛ وما أروع بدايته لهذه القصة الشعرية حيث يقول تحت عنوان «مولد الخليل» .

أقاصيص من الرحمن فى القرآن منشورة
كأزهار بفردوس يُجلى سحرها نوره
بها الآيات فى الآيات ناطقة مواءمها
مسبحة لرب العرش بالآلاء مغمورة

فنار تفقد الإحراق

يغدو حرها برُدا

وطيرٌ بعد ذبح عاد

رُدَّت روحه رداً

ووادٍ غيّر ذى زرعٍ
دعاءً فيه عمّره
وساق الطفل فى البيداء
شقت تحتها وردًا

* * *

* وهناك عدة معالم تميز التجربة الشعرية فى هذه القصة الشعرية ومنها:

(أ) النزعة الذهنية التأملية:

* وهذه النزعة تسيطر على الشاعر من بداية القصة إلى ختامها . . . وتبدو فى تسلسل الأحداث، وإخضاعها للنسق التاريخى، وكذلك فى كثرة الاستفهامات والتساؤلات، ومناقشة الملحدين، واليهود، والمنكرين للحقائق القرآنية التى تحدد معالم قصة «الخليل» - عليه السلام..

* فالشاعر يضع عنواناً لأحد مشاهد القصة يقترب من عناوين الأبحاث الفلسفية وهو «إثبات الوصول إلى الله بالعقل»؟

* وهو يصوغ موقف «إبراهيم الخليل» وتأملاته فى المشاهد الكونية، وإقامته الحجة على الكفار من قومه عبّاد الأصنام والشمس والقمر . . . كما ورد فى سورة الأنعام . . . يقول الشاعر «أحمد نور الدين» على لسان سيدنا إبراهيم:

سلاح العقل مشهورٌ
ليدرك كل ما حوله
فمن فى الخلق أعبده
وترهب مهجتي حوله؟
أرى ذا النجم براقاً
ويعلو فوق ديانا

وليس سواه من حولى
بذى الدنيا له الصَّوْلَةُ

لماذا غبَّتْ يا نُجْمى
وهل رَبُّ السَّمَا يَغْفُلُ
أرى قَمَرًا يَنْبُرُ الأُرُ
ض حقا إنه أفضل

وبدرى غاب . . . كيف الآن أعبده وأخشاه؟
أمعبود وليس يدوم . . ؟ هذا الزعم لا يعقلُ

وكيف يؤلّه الآباء أجرامًا وأصنامًا؟
أرى الأجرام فى فلكٍ تُسَيَّرُ فيه إرغامًا
فلاندرى بدايتها
ولا تدرى نهايتها
تسير بأمر خالقها
كما سيَّرت أنعامًا

*** وتتجسد هذه النزعة الذهنية التأملية فى حوار «إبراهيم» مع قومه ، وحواره مع أبيه . . وفى هذا الحوار يفتح الشاعر وجدانه لمشاهد الكون . . ؟ ويوظف المعالم الطبيعية للتدليل على صحة العقيدة . . فهو تأمل يقود إلى اليقين ،

ولا يقود إلى الشك أو يكشف عن الصراع النفسى الذى يمزق كيان الشاعر وبخاصة الشعراء الرومانسيين ، وشعراء المهجر الذين أصبح الشك عندهم غاية فى ذاته . . ؛ إن الشاعر يناقش الكفار على لسان «إبراهيم الخليل» ويصوغ هذا النقاش فى قالب الاستفهام الإنكارى . . حيث يكرر صيغة الاستفهام أربع مرات متتالية فى أربعة أبيات . . يقول :

أيرجى الخير فى التمثال

هل يقضى إلى وثن؟

بربى إن ذا إفك

وعار فى فم الزمن

أترزقكم جلامدُها

بطود صارم زرعاً؟

أوجد غير ربِّ الكون

ينجىكم من الزمن؟

* * *

(ب) التآثر بالبيان القرآنى:-

وهذه الخاصية التى تميز التجربة الشعرية تعد الدعامة الأولى من دعائم الصياغة الشعرية لدى الشاعر فى هذه القصة الشعرية .

* والشاعر هنا متأثر بالبيان القرآنى صياغة وفكراً وشعوراً ، فلبنت شعره تستمد جرسها العذب من المعجم القرآنى ألفاظاً وتراكيب ، ورؤيته الشعرية تنطلق من الآفاق القرآنية ، وتتبع من مقومات التصور الإسلامى للحياة عقيدة وعبادة وعملاً . . ، فتأثر الشاعر بالبيان القرآنى يعد تأثراً كلياً

شمولياً . . . وليس تأثراً شكلياً أدائياً، وليس تأثراً سلبياً مضاداً مثلما نرى عند بعض الشعراء المحدثين الذين يسيئون استخدام الألفاظ والتراكيب والمعاني القرآنية . . .

* والقصة كلها مستوحاة من السياق القرآني . . . ولم يلتفت الشاعر بدافع من عقيدته الصافية إلى الآراء التي تشكك في سياق قصة الخليل إبراهيم إلى درجة الإنكار!!! وعدم الاعتراف ببعض الأحداث التي وردت في القرآن الكريم، والاعتماد على ما جاء في التوراة، والآثار والنقوش القديمة .

* إنه يصوغ اعتراف سيدنا إبراهيم بنعم الله عليه . . . ويدلائل قدرة الله في هذا الكون بعد تأملاته في المشاهد الكونية وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام والنجوم والكواكب والشمس؛ يقول الشاعر في لغة إيمانية على لسان سيدنا إبراهيم .

هو الخلاق صوّرني

وفى الظلمات يهديني

هو الرزاق ليس سواه

يطعمني ويسقيني

ويشفيني من العلات

يحييني ويقبضني

وأرجو منه غفرانا

بيوم البعث والدين

* وهذا المقطع الشعري صياغة موزونة لجزء من سورة الشعراء في قوله

سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾
(الشعراء: ٧٨-٨٢).

* وعقب هذا المقطع يقول متأثراً بالبيان القرآني وداعياً الجاحدين إلى التفكير . .
والتدبر والتأمل حتى يهتدوا إلى طريق الإيمان . . . يقول الشاعر:

فسيروا وانظروا في الأرض كيف نشأة الأولى . . ؟

أخْلَقْتُ دُونَ خِـلَاقٍ؟

أبِيدُوا الْقَوْلَ مَعْقُولًا؟

فَسِرْبِي مَنْشِئُ الْأُولَى

وَيَنْشِئُ نَشْأَةَ الْآخِرَى

وَقَدْرَتُهُ بِلَا حَادٍ

فَخَافُوا مِنْهُ تَنْكِيلًا

(ج) الصور الشعرية الواضحة:

* ومن السمات الفنية التي تتميز بها الصياغة الشعرية للشاعر «أحمد نور الدين» الخيال القريب . . . والبعد عن الإغراق في الصور . . . ، وعدم الجنوح إلى الغموض ، والبعد عن الصور الكلية المركبة . ومن المبررات الموضوعية والفنية التي جعلت الشاعر يتعد عن الإغراق في الخيال حرصه على سرد الحقائق التاريخية ، وتقيدته بأحداث القصة ؛ والوصول بالفكرة إلى القارئ من أقرب طريق . . . ؛ وهذا الحرص من الشاعر أدى إلى طغيان اللغة الذهنية ، وتواري اللغة الإيحائية إلى حدٍّ ما . . . وكذلك الصور جاءت

موضحةً للموقف وكأنها الأدلة الفنية التي يسوقها الشاعر لتدعيم موقفه،
وكسب قضيته، ويسوق الشاعر صورته الشعرية في صيغة التشبيه كثيراً،
وغالباً ما تكون أداة التشبيه «الكاف» وهي أبسط صيغة للتشبيه.

ففي مفتتح القصة يشبه القصص القرآني بأزهار الفردوس . . .

أقاصيص من الرحمن في القرآن منشوره

كأزهار بفردوس يجلى سحرها نوره

* وأحياناً تقترب الصورة الشعرية من تصوير الموقف ورصد الحالة الشعورية
ومثال ذلك . . . تصوير الشاعر لنشأة سيدنا إبراهيم ونجاته من وعيد الملك
«النمرود» الذي أمر بقتل كل مولود . . . وكأنه الصياد الذي أفلت منه صيده
ساخراً.

ولكن الوليمد أتى

بفضل مشيئة الباري

وعين الله تحرسه

وتعمى عين جبار

* وشبَّ الطفل في أمنٍ

برغم غياهب الظلم

«كصيد يزدري الصياد حين يضل في الظلم»

* ومن مظاهر حرص الشاعر على الصورة الشعرية الواضحة تفسيره الدلالي
للفظ المجازي . . . فهو يقول مصوراً قصة «إبراهيم الخليل» .

وهذى دوحه منها

نجدول بينعها حيننا

ونقطف من أطايبها

فتعطينا وتحيينا

* وعلى الرغم من وضوح الصورة . . فإن الشاعر يوضح في الهامش الدلالة اللغوية لكلمة دوحه وهى «شجرة كبيرة وارفة الظلال»، ثم يفسر الدلالة المجازية، قائلاً ويقصد بها هنا قصة «إبراهيم» .

* والعلاقة بين طرفى الصورة الشعرية قريبة واضحة مألوفة لا لبس فيها ولاغموض ولا تعقيد، ولا تحتاج إلى كد الذهن، ولا إلى إعمال الخاطر لأن الشاعر مشغول بتوصيل الفكرة أكثر مما هو مشغول بتجميلها وتزيينها . .

* فالشاعر يشبه قلوب الكفار بالأحجار . . ، ثم يستدرك موضحاً أن الأحجار قد يفتتها الماء . .

قلوبهم كأحجار

تمادوا فى عبادتها

بل الأحجار قد يجرى

بها ماء يُفْتَتها

* ويشبه تقليد الكفار لأبائهم بنزعة التقليد عند القروء؛ ولهذه الصورة إيحاء قوى حيث تومئ إلى الرد على القائلين بنظرية النشوء والارتقاء . . وأن الإنسان يرجع فى بداياته الأولى إلى فصيلة القروء يقول منكرًا هذا المنطق . . مصورًا الكفار بالقروء فى تقليدهم الأعمى لأبائهم .

فقال إذا رأينا الأهل فى الماضى قد انحرفوا

وحادوا عن طريق الحق واستشرى بهم خرفُ

«نحاكيهم كفعل القرد . . تقليد بلا عقل !!»

فهم معكم بقاع النار قد ساءت به غرفُ

* * *

* وقد وفق الشاعر/ أحمد نور الدين في الخاتمة أيما توفيق . . . حيث تجلت قدرته الشعرية ، وتجلت عاطفته الدينية المتوهجة ؛ وأعلن عن غايته من نسج هذه القصة الشعرية ، ثم حذق في كيان الأمة الإسلامية المتمزق ، ودعا إلى توحيد كيان الأمة التي توحدت منذ فجر التاريخ في شخصية الخليل إبراهيم .

خليل الله يامن عشت ترفع راية التوحيد .
وفى العمران كنت لها وكنت لها بيطن البيد
جهرت بأن رب الكون رب واحد صمد
ولو فى الكون آلهة تسيـره سواه يبيد

* * *

خليل الله قُمُ لبنيك . . . وارفع دعوةً أخرى
إلى الرحمن يهديهم . . . كما أهداهم الثمرا
ويبعد عنهم الشيطان إنسيًا وجنيًا
ويجمعهم على الإسلام روح الوحدة الكبرى

* * *

إلهى قد حميت «الخلل» من نار فلم تحرق
وقد عبر «الكليم» البحر مرتجلاً فلم تغرق
ألا فانقذ بنى الإسلام من حرقٍ ومن غرق
لتبقى دعوة التوحيد دوماً تملأ المشرق

تحياتى للشاعر العميد/ أحمد نور الدين ، وآمل له مواصلة العطاء فى هذا
الدرب الإيمانى العظيم .

ثامنا: أبعاد التجربة الإسلامية

في شعر السنهوتي (*)

(أ) الرؤية:

الشاعر «محمد السنهوتي» متعدد الاتجاهات فهو قد قضى فترة طويلة من حياته معلماً مربيّاً للنشء . وهو خطيب تنفذ كلماته إلى القلوب قبل الأذان ، وهو شاعر يتجه في شاعريته إلى النماذج القوية في شعرنا العربي ويحاول أن يقترب منها ويعيش في عالمها ، وله خطراته الصوفية ، وسبحاته الوجدانية ، ورؤاه التي تنم عن شفافية الحس ، وصفاء العاطفة ، وشعره متعدد الاتجاهات فمنه الذاتي . . والاجتماعي . . والوطني . . والديني . . والتأملي .

وشاعرنا «محمد السنهوتي» انطلق من الإيمان بعقيدة الإسلام ، فهي حجر الأساس في التكوين الإنساني ، ومن ثم أصبحت هذه القضية منبع روافده الشعرية أو مصبها ، فهو إما أن يبدأ منها ، وإما أن يعود إليها إذا ضل البداية ، إنه يتحرك في قلب هذه الدائرة ، فالشاعر اقتصر بشاعريته أو اقتصرت هي به على هذا الجانب ، وليس ذلك بعيب في حد ذاته ، ولكن العيب يكمن في

(*) من شعراء مصر المعاصرين ومن مواليد محافظة الشرقية عام ١٩٠٩ م وله عدة دواوين مخطوطة ، وقد شارك بشعره في المهرجانات والمؤتمرات الثقافية . وشعره ملتزم بالمنهج الإسلامي .
وقد أعدّ الباحث د/ حسن طاحون رسالة الماجستير وكان موضوعها «شعر محمود السنهوتي دراسة موضوعية فنية» وحصل عليها بتقدير ممتاز عام ١٩٩٢ م وأشرف عليها د/ صابر عبد الدايم .

الأسوار التي تحول بين الشاعر وبين اكتشاف أفاق جديدة، أو أبعاد غير مرئية تشرى التجربة، وتفصح لها الآماد لعطاء أكثر خصوبة وأعم تنوعاً رؤيوية وأداءً. وقضية الإسلام متصلة بتكوين الشاعر ومزاجه وطموحه في الحياة، ومفتاح هذه القضية نعثر عليه في قصيدته «إنسان»، فهذه القصيدة تمثل خير تمثيل «هوية الشاعر» ورحلته في البحث عن ظله المفقود عن إلفه الضائع عن الغريب الذي ينتظر عودته، . . . ويمكن أن تدرج هذه القصيدة في الاتجاه الاجتماعي في شعره.

ترى هل النماذج الإنسانية التي يبحث عنها يفتقدتها مجتمعه، وأظن ذلك داخلاً في دائرة اليقين لأن الشاعر يكرر في هذه القصيدة التي جاءت في هيكل «المقطوعات» يكرر في نهاية كل مقطوعة «إنسان يا من يعلمه؟ أنا أبحث عن معنى الإنسان!!» وفي أول كل بيت يكرر كلمة «إنسان» بصيغة النكرة المضافة للمعرفة أحياناً إحياء بالأمل في العثور على هذا النموذج الإنساني. وفي آخر المقدمة يقول «الإنسان» معرفاً دلالة على تحديد هوية هذا النموذج.

إنسان يرجى مقدمه

إن شاء ضعيفاً يرحمه

إنسان يا من يعلمه

أنا أبحث عن معنى الإنسان

ومن هنا أثقلت الشاعر الغربية فناء بها فاتجه إلى الله، ومن هنا وجد أمنه وخلاصه أو أن هذا الهروب إلى الله، كان ثمرة تجربته الفاشلة مع الإنسان المزيف الذي يرتطم بالأرض وهو مثقل بغرائز الطين، فاتجه الشاعر إلى الله ينشد المثالية الإنسانية ولكن لم يعثر عليها بعد!!!

إن الإنسان الذي يطلبه الشاعر يشكل ملامحه تشكيلاً إيمانياً، إسلامياً،

إنسانياً تجعل الشاعر مثاليًا في تفكيره . مصطدمًا بالواقع المريض ، ولذلك
مازال يبحث عن هذا الإنسان .

إنسان الغضبة للعاني المغلوب
إنسان النور يفيض على وجه المكروب
إنسان لا يطفئه شروق أو يخزيه غروب
إنسان البسمة نبع الرحمة والإحسان
إنسان من يعلمه . . أنا أبحث عن معنى الإنسان
إنسان في حجم الإنسان وعزم البحر الموار
في بأس الشمس وطهر الضوء تفرق في الماء الجاري
إنسان في عين الدنيا يرتاح له الساري
إنسان أني كان وحيث يكون يفيض نداءه على الأكوان
إنسان يا من يعلمه أنا أبحث عن الإنسان^(١)

ومن منطلق الإيمان بالله توهمت كل أشعة الشاعر الفنية وتضوأت اتجاهاته
الشعرية فهو في تجاربه الوطنية يقول «يارب ساعد بلادي» ويدعو الله في نهاية
قصائده أن يحقق النصر ويحلل أسباب الهزيمة وأسباب النصر ويردها إلى
البعد عن الله أو القرب منه^(٢) .

ويتعمق هذا التيار أيضًا في تجاربه الاجتماعية والذاتية والتأملية والوطنية
والدينية .

ففي قصيدة «نداء الفجر» يقول :

هذه الدنيا كفاح
بسواه تصبح الدنيا ملالاً

(١) قصيدة إنسان «محمد السنهوتي» من ديوانه المخطوط .

(٢) ص (٤) ديوان السنهوتي «مخطوط» .

وتصفينا الرياح
إن بعدنا عن حمى الله تعالى
فاحملوا كل سلاح
وتعالوا نملاً الدنيا صياحاً
يا شباب العرب هيا يا شباب
ارفعوا النصر على نور الكتاب
إن نور الله عز وتقى
ومع الغفلة ذل وعذاب

وفي قصيدة «العيد لي» تتضح فلسفة الشاعر الإنسانية لكنها لا تخرج عن
الشعور بسلطان الله يقول :

العيد لي ما دام يحياه ويبصره الضرير
والخبز لي ما دام مبذولاً لإطعام الفقير
والنصر لي ما دام يرفق بالجريح وبالأسير
والحق لي ما دام يرعاه ويحرسه الضمير
والظل لي ما إن تفيأه ضعيف يستجير
والعيد لي ، ومصانع الإيمان تبدع كل عيد
والمجد مجدي خالداً يسعى الطريف إلى التليد
ما ضرَّ لو سرنا مسير النجم في الأفق البعيد
ما ضرَّ لو عشنا حياة النحل في الطلح النضيد
وأخذت سمك لم تمل وأخذت حقي لا أزيد

والله قد قسم الحظوظ فلن تقسم من جديد
وفي قصيدة «عودة الأفراح» ويهديها إلى الفلاح في عيد السعيد يقول :

هاك يا فلاح أفراح المنى
عشت عمر الصبر عش عمر الهنا
إنه عيالك يا من فأسه
مست الأرض فشبت أغصنا
إنه اللحن الذي عشنا له
وانتظرناه بشوق زمنا
كم دعونا الله من أعماقنا
أن يرى النصر على أيامنا
وحمدا لله أن رد إلى
يدك الحق فحققت المنى

وفي قصيدة «أسألوه أن يعود» يبكي على شباب قلبه الذي هام في سحر
الورود وسحر النهود ومضى يسأل عن ظبي شرود، وعن رشيقات الخدود
فهن .

خدعوه بوعود ومنى
والغواني ما يوفين العهود
ثم يقول مؤنبا قلبه :

لست أدري . لم لا يسمع لي
لم لا يجزي صدوداً بصدود

إن قلبي شاحب مثل السنا

فاسألوا بالله قلبي أن يعود

فبؤرة التجارب السابقة تركز على قضية الإيمان بالله، وكان بإمكان الشاعر أن يثرى هذه التجارب ويربطها ربطاً فنياً بالرؤية الإيمانية أعمق من ذلك لو ابتعد عن الرؤية المباشرة وتعامل مع التاريخ الإسلامي، والتراث العربي، أو لجأ إلى الرؤى الرمزية في بعض تجاربه أو التقط من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - اللحظات التي يرى فيها نفسه، وأمانه، أو خوفه، أو تمرده فنبرة الشاعر العالية في كثير من الأحيان تقلل من كثافة التجربة وشمولية الرؤية ولناخذ مثلاً واحداً على ذلك يقول الشاعر في قصيدة «حديث مع الربيع» وهي في ذكر المولد النبوي الشريف يقول:

يا هذه الدنيا اسمعي وتجمعي

هذا لواء محمد فتسلمي

وامضي بعزم مضائه واقضي

بعدل قضائه، وهدي الكتاب المحكم

ضمي وجودك تحته، صفي

جنودك حوله، إن شئت أن تتقدمي

واستمسكي بسبيله إن شئت ألا

تخطئي، أورمت ألا تأثمي

فهذه الأبيات الأربعة ورد فعل الأمر فيها ثماني مرات وأعتقد أن العقيدة ليست أمراً بل لبها الإقناع والاقتناع، بعد عرضها عرضاً فنياً لا يجوز على التجربة الشعرية.

والحب الأول والأخير عند الشاعر هو «حب الله» سبحانه وتعالى .
والشاعر يكاد يكون منفرداً في هذا الاتجاه وبخاصة في واقعنا الهارب دائماً من لحظة الإيمان .

ومقومات هذا الحب تتضح في ملامح متعددة ، وربط الشاعر نفسه بخالقه من خلالها . وهذه الملامح تختلط ببعض معتقدات الصوفيين أحياناً ، وفي أحيان أخرى نراها وعظماً مباشراً وأحياناً تكون وسيلة لرفض القيم الاجتماعية المريضة ، وأحياناً تمتزج بالإحساس الوطني والشعور القومي .

فالشاعر لا يشعر بشيء سوى الله ، والله سر السعادة والتآلف مع الزمن ، وفي قصيدة «أنت الحبيب» يصرح الشاعر بهذا وهو يكاد يقترب من فكرة المتصوفين القائلة بالفناء المطلق في الذات الكلية .

يقول الشاعر :

عرفت فيك زماني كيف أحياه

وكيف أرضيه عن نفسي وأرضاه

لا كنت إن كان شيء عنك يشغلني

أو كنت أرجو سوى ربي وأخشاه

فالتجربة الإيمانية هنا تكتسب بعداً أمنياً حيث القلق يرحل عن عالم الشاعر وينعم بالاطمئنان في كنف الله عز وجل . ويقتحم العثرات ويتآلف مع الأحداث .

وهذا الاطمئنان الروحي تكون من معتقد الشاعر في ربه فهو يداوي النفوس ويعفو عن المعاصي . وفلسفة العفو هنا عند الشاعر لها ثمرتها ، فالإنسان لا يظل طريد القلق من جراء الإثم ، ولكن عفو الله يطارد هذا القلق ويزرع اليقين في وجدان الشاعر . والعفو لا يلغي العقوبة لمن أصر

على مخالفة المنهج ، وللشاعر قصائد كثيرة تنحو هذا المنحنى وأخص
قصيدتين هما «جميلك عندي ، وإليك الأمر» .
يقول :

جميلك عندي يا إلهي وسيدي
ومالي ما أرجو لديك فأفرح
ويبقى رجائي منك فضلاً ورحمة
وأنت تعفو عن كثير وتصفح
ويتعمق حس الشاعر تجاه ربه وتجاه مجتمعه وسلوك الناس من حوله فيقول
في قصيدة «إليك الأمر» .

إليك الأمر لا ندرى وتدرى
وتهل لا تعاجل من عصاكا
وحاشا أن أضام وأنت ربي
تعيد اللاجئين إلى حماكا
وأركض في هوى نفسي فأشقى
وأحرم من نعيمي في هواكا
والبيت الأخير «وأركض . . . إلخ» يتفتح عن شعور مكثف ، ويكشف عن
معاناة ومجاهدة في سبيل الوصول إلى منطقة الأمان ، في حمى الله سبحانه ،
والبيت برغم هذا يحتاج إلى إيضاح أكثر وفي رأيي يمكن أن يصاغ بهذا
الشكل :

وأركض في هوى نفسي فأشقى
وأنعم إذ أعذب في هواكا !!

والله يرعانا أجنة وأحياء وأمواتاً ويوم القيامة ، وهذا المفهوم شائع ومعتقد عام .

وفي قصيدة «ياحب» صرح الشاعر بهذا في صورة تقريرية مباشرة قائلاً:
من كان يرعانا ونحن أجنة

هل للجنين هناك إلا ربه

وإذا رحلنا هل لنا من مرفأ

نرجو النجاة لديه إلا حبه

وقصيدة «الحب في عيد القمر» تنضح بهذا الشعور الديني برغم ما فيها من غزل حسي ، والغزل الحسي لم يكن واقعاً بل أمنية مستقبلية تجسدت في أفعال الأمر .

(والله موجود ، وصنعتة دليل وجوده) وقد أجاد الشاعر في رصد هذا البعد من أبعاد التجربة الإيمانية . فأشرك الطبيعة ترد معه على الملحدين وتناقش معه أفكارهم والآيات الكونية أدلة مجسدة على قدرته ووجوده .

والقصائد التالية تفصح عن هذه المعاني (يامبدع الفجر ، ياخالق الليل ، ياصانع الورد ، موجود بلا حدود ، شهود من ورود ، لله حبي ، ياصاحب الفضل ، خلق بلا عقل ، ياهادي النجم ، رأيت الله ، ياخالق الإنسان) .

يقول :

ياصانع الورد كم صورت من طين

وأنت تبعد في رسم وتلوين

معطر بأريج راح ينشره

مع النسائم من حين إلى حين

شتى طعوم وألوان وألف شذى
طبعتها يا جميل الصنع من طين
ويدعى البعض علماً لست تعرفه
ويكفرون فهم حرب على الدين

وفي قصيدة «لله حبي» .

يناقش الشاعر الملحدون وقد استطاع الشاعر أن ينأى عن الذهنية التي
تصيب التجربة بالجفاف في كثير من الأحيان . وذلك حين لجأ إلى الحوار
الشعري واستخدم في البيت الواحد الادعاء والرد عليه ، ولم يرد عليهم رداً
مباشراً بل أحالهم على الكائنات فهي أسماء الله الحسنى كما عبر في إحدى
قصائده وقد أجاد في ذلك أيما إجادة ، واستخدم مع المنافقين والمنكرين لوجود
الله ، أسلوب الحكيم وهي الإجابات غير المتوقعة لكنها مقنعة ، ولم يفقد
الشاعر شاعريته وهو يناقش مثل هذه القضية البالغة الخطورة .

قالوا: أتعرفه؟ صفه ، فقلت لهم

سلوا المحيط أتدري قطرة ما هو

قالوا: فأني نراه؟ قلت : واعجباً

وأين كان ولا موجود إلاه

قالوا: فهل من دليل؟ قلت صنعته

دلت عليه كما دلت عطاياه

الأرض والبحر والأفلاك دائرة

الكل يهتف جل الخالق الله

والشاعر «محمد السنهوتي» يؤمن بأن العزة في حمى الله والذلة في

البعده عنه وقصائده «كيف يضام، وغنيت بالله، والقريب البعيد، وحابس الضواري» تنطق بهذا الملمح من ملامح التجربة الإيمانية عند الشاعر.

يقول من قصيدة «القريب البعيد»:

يامن تحجب بالسنا

واليه تتجه المنى

بالباب عسد خائف

لم يلق دونك مأمنا

يامن بك استغنيت

عن أهلي وعن كل الأنا

ومن قصيدة «حابس الضواري» يقول في شفافية أسرة، وصدق فني

رهيف:

يامن به قام الوجود

ونوره في الكون ساري

زينت كونك للورى

ونشرت في الأفق الدراري

حاشا أراع وأنت لي

حاشا أضام وأنت جاري

عوذتني بك أن تعذبني

بننارك أو بنناري

وفي قصيدة «ظمان لا يرتوي بماء» يؤمن الشاعر بتفرد الله في الصفات.

وفي قصيدة «أفق المعرفة» يؤكد الشاعر أن القرآن مصدر المعرفة وذكر الله
عطر أنفاسه .

والتوبة تجربة إيمانية صادقة وقد خاضها الشاعر، وعبر عن ذلك في قصيدته
«من أجل حبك»، وقصيدته «عودة قلب» .

والشاعر في ذروة الصدق حين يعبر عن هذه التجربة . فهي تجربة ذاتية نابغة
من أغوار شعوره وليست تجربة تقليدية برغم أنها قاسم مشترك بين كل
القلوب المتفتحة على الدرب السوى .

وفي رحلة العودة إلى الله يقدم الشاعر صفات الله التي تتواءم مع جو
التوبة والعفو فالله حبيب يملأ الكون حباً وهياماً، وجميل يلبس الدنيا جمالاً
وابتساماً، والله رحيم يكتب الأحكام عدلاً لا انتقاماً .

وبعد هذه النداءات يا حباً - يا جميلاً - يا رحيماً . . يحس الشاعر أنه أشرف
على باب الملك محصناً بالحب، والجمال والعدل، فيعرض مشاهد قضيته .

كنت قد صافيتني يوماً وليت الصفو داما
ساعةً مرت أمامي فاحتوت عقلي سحابه
وانطوى ليل على عيني فغشتني كآبه
يا حبيبي إن قلبي قد نجما مما أصابه
عاد للحب الذي كان يدق اليوم بابيه
عاد فاقبله وكفكف دمه واسمع نداءه
خطوه لحن خجول يعزف الكون صداه
هاتف باسمك يامن ذكره سرَّ علاه
عاد فاجمع شمله واقبله يا كل مناه

وقصيدة «المحو إثبات» وهي مكونة من بيتين ، فقط لكنها تحمل شحنة هائلة من الحس الديني ، وفيها المفارقة الموضوعية واللغوية ، مما ينبئ عن معاناة الشاعر والمجاهدة في سبيل الترقى والتسامي الروحي .

يقول :

السابحون ببحر النور آهات

لم يشعروا هل هم الأحياء أم ماتوا

الحب يأخذ لا يبقى على دنف

شرع الهوى فيه محو الصب إثبات

وكل ألفاظ البيتين من نسيج البناء الفني للتجارب الروحية ، مما يجعل شاعرنا في طموح دائم إلى الاقتراب من السر ، ومحاولة الكشف الدائبة ، والحرص على معرفة السر الكائن !!!

(ب) الطبيعة ودورها في إثراء تجربة الشاعر،

للطبيعة دور في إثراء التجربة عند شاعرنا وفي مقدمتها الطبيعة الزمانية فالفجر ، والصباح ، والليل ، تمثل هذه الثلاثية شريط الزمن المتصل ، وقد ربط الشاعر هذه الظواهر الطبيعية بقضية الإيمان ، فالفجر بداية الانطلاق وهو صحوة الكون .

يا مبدع الفجر أفراحًا تجليها

تغدو فتسبح أرواح الورى فيها

والفجر عند الشاعر يأخذ بعداً قومياً وأعتقد أن بعده الإيمانى أعم وأشمل .

أذن الفجر فقومي نتملى

دفقة النور على هام الظلام

ونرى موكب أفراح تجلى

هاتفًا يسعى على درب السلام

والليل مرتبط بالأسرار والأشواق والأرواح والنجوم، وهو تصور إيماني لليل، والشاعر في هذا التصور يستوحى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩).

والليل عندما يقترب بالصبح يأخذ بعداً مخالفاً للبعد السابق فهو رمز الضيق، والصبح رمز الفرج، والصبح صحوة القلب من الغفلة، وبداية رحلة العودة إلى الله فالليل هنا مرادف للإثم، والصبح مرادف للطاعة. يقول الشاعر:

يارب سامحني فأنت الله أهل للسماح

إني جهلت وكل ليل في نهايته صباح

وكذلك تصبح الشمس عند الشاعر معادلاً موضوعياً للإيمان، والليل معادلاً موضوعياً للهزيمة والبعد عن الله، فالفجر والصبح والشمس كلها تتلاقى وتتجمع لتكون نسيجاً واحداً، هو الأمل والفرح من الله والانتصار على النفس.

والماء سر الحياة والشاعر يقر بذلك لكن الماء في غياب التصور الإيماني لا يبل غليل الشاعر.

يامن خلقت الماء يحيى أنفسنا

ويهيح دلّ زروعنا لتميلاً

إني ظمئت وما بشيء أرتوى

الماء دونك لا يبل غليلاً

والماء في غياب التصور الإيماني يمكن أن يصبح أجاجاً يشوي الوجوه
ويصهر الأمعاء. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (الواقعة : ٦٨ - ٧٠).

وانسجام الظواهر الكونية دليل على قدرة الله ويتخذ الشاعر من الطبيعة
وسيلة للوصول إلى عفو الله ووجهه .

بغير ندادك لا يحيا فؤادي

فبر الأرض من فيض السحاب

والطين أصل الحياة حتى الورد وفي ذلك نظرة من الشاعر إلى ضرورة
تساوي الناس في الحقوق والواجبات . وهو يلتقي مع النهج الإسلامي أو
يلتقي مع شوقي حين يقول :

لا يقولن : أحد أصلي فما

أصله مسك وأصل الناس طين

ومن الطين ينطلق الشاعر ليعمق قضية المساواة بين البشر ، وفي قصيدته
«الغني والفقير» يتجلى هذا البعد بصورة واضحة ، والقصيدة تتلاقى مع
«قصيدة الطين» لإيليا أبي ماضي ، لكن السنهوتي يهاجم الفقير ويهاجم
الغني وأبا ماضي يجعل المتحدث الفقير مهاجماً الغني المتكبر . . . يقول
السنهوتي :

لك ملك الحياة لو كنت تدري

عش قوي الجنان طلق العنان

هذه الفأس لو تأملت فيها

راية النصر أو عصا الصولجان

إن تكن غنت الغنى الغسواني
فلك الطير أبدعت في الأغاني
ومن النهر نشرب الماء عبا
وهو يسقي بالكأس أو بالدنان
ولك الزهر في البساتين غضا
وله الزهر ذابلاً في القناني
وبكفِّيك كل شيء حياة
والذي في يديه لا شك فان
فلماذا تنام في الشوك والكو
ن مليء بالورود والريحان
إنما أنت قـوة في يد الدنيا
ن تبني روائع البنينان

(ج) المعجم الشعري:

و حين نطالع قصائد الشاعر مجتمعة نجده يركز على مفردات الطبيعة مرتبطة بتجربته الإيمانية . ولا شك أنك ستعثر على مثل هذه الألفاظ في معظم قصائد الشاعر وقد وردت في قصيدة «يامبدع الفجر» هذه الألفاظ (الفجر - تسبح - الطير - الشدو - التسبيح - زهور - الروض - الحمائل - الموج - النغم - الزهر - الطير - الأنسام) ، وهذه الألفاظ أيضاً (الليل - الأنجم - أشواق - أرواح - النور - الورد - النهر - الغصون) .

وتمثل هذه الألفاظ المواد الخام التي يبني منها الشاعر تجاربه مهما كان نوع هذه التجربة لكنها في دائرة الإيمان؛ وهكذا تتشكل التجارب الإيمانية التي تعمق مجرى الشعر الإسلامي فيأخذ طريقه إلى القلوب .

٢- المعجم الشعري والنزعة الصوفية:

وإذا كان معجم الشاعر تسيطر عليه الألفاظ الإسلامية بمفهومها الديني المعروف وذلك خط واضح في أغلب قصائده .

وفي ثنايا هذا الفيض الهائل من الألفاظ والمصطلحات التي تشارك في تكوين أبعاد التجربة الإيمانية تبرز بعض الإشارات الصوفية ففي قصيدة «هو الأول» ترد هذه العبارات «علم الحقائق» «سدت طرائقي»، والحقائق جمع حقيقة، والطرائق جمع طريقة، والحقيقة مصطلح صوفي، فهم يعتقدون أن العقيدة تنقسم إلى حقيقة وشريعة، فعلم الحقيقة هو علم الباطن والأسرار، وعلم الشريعة هو البحث في الظاهر والمألوف والأحكام الحسية .

والطريقة تشير إلى هيكل الصوفيين وهم يقسمون إلى طرائق ولكل طريقة شيخ ومريدون . . . وتفصيل ذلك في موضع آخر لا مجال له هنا، والتعبير بقوله «سر سرائري» مستمد من معجم المتصوفين .

وقوله في قصيدة «جميلك عندي» .

وحولي نداء الكون يدعوك منعماً

بألطافه الأملاك طاروا وسبحوا

يومئ إلى حس الشاعر الصوفي واستخدامه لمعجمهم، فاللطف والأملاك والطيران، والسباحة من المصطلحات التي تأخذ مدلولات رمزية عند الصوفيين .

وحين يعبر عن الليل بأنه غيب يطلعنا على رؤيته الصوفية لجزء من الزمن
لاندرك كنهه .

وقصيدته «موجود بلا حدود» من بدايتها إلى نهايتها تمثل الجو الصوفي
فكرة وأداءً وروحاً ولفظاً، وحتى العنوان يشرق فيه هذا الحس وهي من روائع
الشاعر التي تعد مفخرة من مفاخره وفي طليعة مآثره الفنية .

فتحت عليه قلبي لست أدري

إلى أي الجهات فتحت بابي

سوى أني رأيت النور يسرى

فيجتاح الأباطح والروابي

سوى أني سمعت الكون يشدو

بالحان منورة عذاب

سوى أن المواكب في الأعالي

تسبح في الذهاب وفي الإياب

سوى أن الوجود بدا كتاباً .

وكل الخلق آيات الكتاب

وطرت إلى فضاء لؤلؤي

تضيء الشمس فيه بلا حجاب

هنالك لا سماء تظل أرضاً

ولا ظل ينام على التراب

وأنست الحبيب بعين قلبي

فكاد يطير من فرح صوابي

وصحت أقول يا من لا أراه
ويعلم كل سرى كل ما بي
تهوت كأسبابي فكن بي
رحيما يوم عرضي للحساب
بغير نذاك لا يحيا فؤادي
فبر الأرض من فيض السحاب

(د) الموسيقى وتعدد الإيقاعات؛

يصوغ الشاعر معظم نتاجه الشعري في قالب الشعر الموزن المقفى . . .
إيماناً منه بقيمة هذا الشكل الفني في الأداء الشعري، وهو لا يسير على نمط
واحد في أدائه الشعري . . . بل نراه يعدد أشكاله وزنا وقافية على النحو
التالي :

١- أوزان شعره يستخدم فيها أغلب البحور الشعرية . . . فيما عدا بحر
المنسرح . . . والسريع والمقتضب والمضارع . . .

٢- ويميل الشاعر أحياناً إلى مجزوء البحور . . . والأوزان القصيرة: مثل
قصيدته «سأراك» وهي قصيدة جيدة يصب فيها الشاعر كل آماله . .
وأحلامه . . ويشكل موقفه من الحياة حين يفصح عن هذه المحبوبة/ الأمل-
في نهاية القصيدة بعد تكرار مادة «الرؤية» ومشتقاتها الحركية التي تصنع
الأحداث ثماني وعشرين مرة . . . وكل مرة يصور فيها الشاعر معلماً من
معالم رؤيته لهذه الحبيبة . . . ثم يقول في ختام القصيدة :

يا راية الوحيديا

رمز الأماني الدافقة

عودي لأمجاد البطولة
في العصور السابقيه
قد كنت فيها نضرة
وحضارة متألقة
قد كنت فيها قمة
فوق الذري متأنقه
إننا بحبك سوف نجتاز
الدروب الضيقه
ومتى انتصرنا فاجمعي
كل الحمام لنطلقه

٢- نظام المقطوعات الشعرية...

وهو يقترب من فن الموشحات . كما في قصيدة «دعني أسير»
فالقصيده تبدأ برباعية قافيتها رائيه ، ثم تتوالى بعد ذلك خمس مقطوعات . .
كل منها على قافية ولكنها جميعاً ينتهي كل منها برباعية على نظام افتتاحية
القصيدة . وهذا تشكيل موسيقي مؤثر . . . وقد اتفق العروض والضرب في
حرف الروى وذلك بالمقطوعة الأولى . . . واختلفا في باقي المقطوعات ولو
حافظ الشاعر على هذا النظام لاصطبغت القصيدة بصبغة موسيقية إيحائية
مؤثرة .

وفي المقطوعة الرابعة جعل «القفل» ثلاثة أبيات . . . مما يدل على أن
الشاعر لم يعتمد تقديم موشحة شعرية أو تشكيلاً موسيقياً منظماً في كل أجزاء
القصيدة .

(هـ) الرمز الشعري :

ويلجأ الشاعر في صورته الشعرية إلى توظيف الطبيعة الحية . رامزاً إلى معانٍ وقيم يحاول تقديمها ولكن رمزه ليس مستغلقاً . . . ويحرص الشاعر على إضاءة الرمز وتوضيحه . كما في قصيدة العصفور الطريد . . . فالبيت الأخير يكشف الرمز ويحدده .

يا أيها العصفور حالك حالنا

فاليوم لا طير ولا أدباء

وهذا الرمز امتداد للرمز الشعري عند أدباء المهجر وبخاصة في شعر أبي ماضي كما في قصيدته «التينة الحمقاء» وقصيدة «الفيلسوف المجنح» وقصيدة «دودة وبلبل» ونجد هذه الظاهرة لدى الشاعر القروي .

وشوقي في قصصه على ألسنة الحيوانات والطيور - كان رائداً في هذا المجال .

ولكن الشاعر محمد السنهوتي له رؤيته التي تتكئ على التصور الإسلامي . . . وتنشد تحقق العدالة والمساواة . . . والأمن والإيمان . . .

فهو شاعر مسلم يمتلك أدوات الفن ، وإسلامية الرؤية ، فرموزه ومعجمه الشعري . . . وإيقاعاته . . . كلها . . . تتأزر في توصيل مادته الشعرية في لغة أسرة وتراكيب متينة . . . وألفاظ متقاه . . . وانفعال صادق . . . ومشاعر صافية نقية . . .

خاتمة

أحمد الحق سبحانه على أن وفقني وهياً لي السبل لإخراج فكرة هذا الكتاب إلى الوجود، وهو كما أشرت في المقدمة «إشارة خضراء على درب عصى جديد».

وهناك جهود كثيرة تألفت وتآزرت في هذا المصمار، ولا يخفي على المتابع لنمو وتطور نظرية الأدب الإسلامي جهود الباحثين في هذا المجال.

وقد ضاعف من حماسي لإخراج هذا الكتاب انتمائي أولاً إلى عقيدة الإسلام ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وفي دائرة هذا الانتماء العقدي شرفت بالانتماء إلى رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالهند، وهي تحمل على كاهلها عبء الدعوة إلى الأدب الإسلامي في جميع أنحاء العالم.

وكانت لدراستي برحاب الأزهر المعمور آثار محفورة في الوجدان دفعتني إلى التنقيب والتحليق في هذه الآفاق نقداً وإبداعاً؛ وكان لمقامي وعملي بمكة المكرمة أثر جليل في مضاعفة الحماس، وشحذ العزيمة لإخراج هذا الكتاب.

وآمل من العلي القدير أن يوفقني إلى إتمام ما بدأت، وأن يوفق الباحثين

إلى استخراج الكنوز الأدبية والفنية الدائرة في فلك التصور الإسلامي من تراثنا القديم، ومن إبداعنا الجديد، وغير خاف على القارئ وعلى شدة الأدب ونقده أنه لم أتعب لشكل شعري محدد، وأرفض ما سواه؛ فقد استشهدت بنماذج من الشعراء «القديم والجديد» أو شعر الشطرين وشعر التفعيلة، ووجدت في كلا الشكلين نماذج رائدة ورائعة، تنبض بروح الإسلام وقيمه.

فرؤية الشاعر تنطلق محلقة لا تحدها أسوار الشكل، وإنما يكون الالتزام في إطار المضمون الهادف، والنبض الإسلامي المؤثر في واقع الحياة وفي مستقبل الإنسان.

كذلك لم تحصر الدراسات نفسها في إطار زمني محدد، لأنها ليست دراسات تاريخية أدبية، ولكنها دراسات تعالج قضية ما زالت في حاجة إلى التحليل والمناقشة والتنقيب، ولب هذه القضية هو النص الأدبي الناطق بأبعاد الرؤية الإسلامية.

ولم تغفل الدراسات التطبيقية العنصر الجمالي في النص الأدبي، ومن خلال تحليل النماذج التي وردت آنفًا أستطيع أن أرددًا علميًا على الذين يهتمون الأدب الإسلامي بالجفاف والجمود، وعدم التحليل.

وتجسد ذلك الرد نظريًا في الدراسة الأولى «معالم التجربة الأدبية» وتجلى عمليًا في الدراسة الثانية «أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر».

وإذا كان هناك من ضعف في بعض الإبداعات الأدبية في هذا المجال، فالعيب يكمن في المبدع، ولا يكمن في الإبداع، ولا الرؤية التي يتبناها.

والأدب المعاصر بفنونه المتعددة يعبق بشذا الرؤية الإسلامية التي تشكل واقع الحياة، وتقدمه في إطار فني بالغ الجودة، ولكن هذا التيار لم يتعمق مجراه بعد!!! ولم يفرض تقاليده على الساحة الأدبية بعد!!!

والأمر يحتاج إلى تضافر ملكات المبدعين، وإلى تأزر جهود الباحثين والناقدين، حتى يتأصل ذلك التيار، ويؤتي ثماره طيبة مباركة، ولا يعود غريبا - كما كان - في ساحة تتنازعها الأهواء الفكرية، وتبهرها الأشكال الفنية، وتغيب عنها المعالم الحقيقية!!!

فهل نعثر على هذه المعالم؟

وهل نكتشف مدارات جديدة للإبداع في آفاق التصور الإسلامي؟

... إننا جادون في مسيرتنا ... محاطون بتوفيق الله ورعايته . .

فهو الموفق ... وهو الهادي إلى سواء السبيل؛

د/ صابر عبد الدايم

الزقازيق

غرة رمضان المبارك ١٤٢٢ هـ

١٦ نوفمبر ٢٠٠١ م

الطبعة الثانية

المراجع والمصادر

(أ) الكتب :

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- الأدب المقارن د/ محمد غنيمي هلال- دار العودة- بيروت- ١٩٦٢ م .
- ٣- البداية والنهاية لابن كثير- دار الفكر- بيروت (٧) مجلدات .
- ٤- البهائية وتاريخها وعقيدتها دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع جدة- ط ٢- ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .
- ٥- التصوف عند الفرس د/ إبراهيم الدسوقي شتا- دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧ م .
- ٦- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر د/ محمد فتوح أحمد- دار المعارف بالقاهرة ط ٣ ١٩٨٤ م .
- ٧- الرومانتيكية د/ محمد غنيمي هلال- دار العودة- بيروت ط ٦ ١٩٨١ م .
- ٨- السيرة النبوية لابن هشام- دار التوفيقية للطباعة بالأزهر/ تحقيق د/ محمد فهمي السرجاني .
- ٩- العلمانية د/ سفر بن عبد الرحمن الحوالي- دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع- نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م .

- ١٠ - النقائض في عهد البعثة المحمدية د/ حسن الكبير ط ١ بالقاهرة ١٩٨٤ م .
- ١١ - النقد الأدبي سيد قطب - مطبعة الشروق - بيروت «بدون» .
- ١٢ - النقد الإسلامي المعاصر - د/ عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢ م .
- ١٣ - الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد - دار المنارة بجدة - السعودية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- ١٤ - تاريخ آداب العرب ج٢ - مصطفى صادق الرافعي / دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .
- ١٥ - تاريخ الطبري - دار المعارف بالقاهرة الطبعة السادسة ١٩٨٧ م .
- ١٦ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب - طه إبراهيم - مطبعة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٣٧ م .
- ١٧ - جاهلية القرن العشرين - محمد قطب - دار الشروق بالقاهرة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .
- ١٨ - جمهرة أشعار العرب - أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي - دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- ١٩ - خصائص التصور الإسلامي - سيد قطب - إصدار الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م .
- ٢٠ - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - محمود شاكر - كتاب الهلال العدد [٤٤٢] - أكتوبر سنة ١٩٨٧ م .
- ٢١ - ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي : إصدار الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية .

٢٢- محمد- صلى الله عليه وسلم- فى الشعر الحديث د/ حلمى محمد القاعود - دار الوفاء المنصورة .

٢٣- مذاهب الأدب فى أوروبا- د/ عبد الحكيم حسان- دار المعارف بالقاهرة ط ٢- ١٩٧٩ م .

(ب) الدواوين:

٢٤- ديوان إبراهيم ناجي- دار العودة- بيروت- ١٩٧٣ م .

٢٥- ديوان أبي نواس «الحسن بن هانى» تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ط شركة مصر بالقاهرة- ١٩٥٣ م .

٢٦- ديوان أصدقاء الذكريات- د/ محمد عبد المنعم خفاجي- رابطة الأدب الحديث- ١٩٨٩ م .

٢٧- ديوان الآثار الكاملة- لأودونيس- دار العودة بيروت- ١٩٨٧ م .

٢٨- ديوان البيعة المشتغلة- محمد علي الرباوي- المطبعة المركزية- وجدة المغرب- ١٩٨٧ م .

٢٩- ديوان الجداول- إيليا أبو ماضي- دار العلم للملايين- بيروت ط ١٣- ١٩٧٩ م .

٣٠- ديوان الحلم والسفر والتحول- د/ صابر عبد الدايم- سلسلة مواهب- قطاع الأدب والفنون بمصر ١٩٨٢ م .

٣١- ديوان الرحيل على جواد النار- حسين علي محمد- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٨٥ م .

٣٢- ديوان السفر فى أنهار الظمأ- د/ محمد أبو دومة- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ م .

- ٣٣- ديوان المرايا وزهرة النار-د/ صابر عبد الدايم- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٨٧م .
- ٣٤- ديوان المسافر في سنبلات الزمن-د/ صابر عبد الدايم- مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٩٨٣م .
- ٣٥- ديوان بشار بن برد- نشره وقدم له/ محمد الطاهر بن عاشور- ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر- ١٩٦٦م .
- ٣٦- ديوان تموت العصافير لكن تبرح- جميل محمود عبد الرحمن- المجلس الأعلى للثقافة بمصر ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م .
- ٣٧- ديوان حسان بن ثابت/ شرح عبد الرحمن البرقوقي- ١٩٨١م- دار الكتاب العربي بيروت .
- ٣٨- ديوان خليل حاوي- دار العودة بيروت- ط٢- ١٩٧٢م .
- ٣٩- ديوان خليل مطران- خليل مطران .
- ٤٠- ديوان شجرة الحلم- حسين علي محمد- سلسلة مواهب- ١٩٨٠م .
- ٤١- ديوان على درب الله- محمد المنتصر الريسوني- مطبعة ديسبريس- تطوان بالمغرب .
- ٤٢- ديوان عمر أبو ريشة «المجموعة الكاملة» عمر أبو ريشة- دار العودة بيروت- ١٩٧١م .
- ٤٣- ديوان لله وللرسول- عبد العليم القباني- دار لوران للطباعة والنشر والتوزيع- ١٩٨١م .
- ٤٤- ديوان سدائن الفجر-د/ صابر عبد الدايم- تحت الطبع بنادي مكة الثقافي .

- ٤٥- ديوان مسافر إلى الله - أحمد فضل شبلول / كتاب فاروس مايو - ١٩٨٠ م .
- ٤٦- ديوان مملكة الروح - محمد بن عمارة - منشورات المشكاة بالمغرب ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
- ٤٧- ديوان نشيد الغرباء - محمد بنعمارة - وجدة المغرب - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ٤٨- ديوان نهر الحقيقة - محمود حسن إسماعيل - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١ م .

(ج) الدوريات:

- ٤٩- جريدة «الندوة» السعودية - الملحق الأدبي - عدد ٢ شوال ١٤٠٧ هـ .
- ٥٠- جريدة «المسلمون» جريدة المسلمين الدولية - السنة الرابعة - العدد ٣٤٧٦ - ذو القعدة ١٤٠٨ هـ - ١٧ يونيو ١٩٨٨ م .
- ٥١- المجلة العربية بالسعودية - عدد ربيع الثاني سنة ١٤٠٦ هـ - يناير ١٩٨٦ .
- ٥٢- مجلة الأزهر - عدد رمضان سنة ١٤٠٢ هـ - يونية ١٩٨٢ م .
- ٥٣- مجلة المنهل «السعودية» عدد رجب ١٤٠٧ هـ - مارس ١٩٨٧ م .
- ٥٤- مجلة لواء الإسلام - عدد ربيع الأول سنة ١٤٠٩ هـ .

(*) إضاءة: هذه بعض مصادر ومراجع الطبعة الأولى - وأما هذه الطبعة ففيها إضافات كثيرة . . . ووردت بعض المصادر والمراجع عقب بعض المباحث وفي كثير من هوامش الكتاب . . المؤلف .

المؤلف في سطور

- * أ. د/ صابر عبد الدايم يونس (مواليد محافظة الشرقية بمصر ١٥/٣/١٩٤٨م).
- * دكتوراه في الأدب والنقد مع مرتبة الشرف الأولى من كلية اللغة العربية بالقاهرة جامعة الأزهر سنة ١٩٨١م.
- * عضو اتحاد كتاب مصر منذ سنة ١٩٨٢م.
- * وعضو مجلس إدارة الاتحاد منذ مارس ٢٠٠١م.
- * عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- * رئيس مجلس إدارة جمعية الإبداع الأدبي والفني بمحافظة الشرقية سابقاً.
- * عضو مجلس تحرير مجلة الثقافة الجديدة بمصر.
- * عمل أستاذاً مشاركاً بجامعة أم القرى في الفترة من ١٩٨٤ - ١٩٨٨م، وأستاذاً للأدب والنقد في المدة من ١٩٩٤ - ٢٠٠٠م.
- * حصل على درجة الأستاذية في الأدب والنقد عام ١٩٩٠م.
- * وكيل كلية اللغة العربية بالزقازيق - فرع جامعة الأزهر بالزقازيق، ومدير تحرير المجلة العلمية التي تصدرها الكلية.
- * عمل أستاذاً زائراً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الفصل الدراسي الثاني من عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- * شارك في كثير من المؤتمرات الأدبية والشعرية في داخل مصر وخارجها ومنها:

- * مؤتمر العقاد بأسوان ١٩٩٠ م.
- * مؤتمر أدباء مصر في الأقاليم بأسوان سنة ١٩٩٠ م وبور سعيد ١٩٩١ م والإسماعيلية ١٩٩٢ م.
- * مهرجان الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٩٢ - ١٩٩٣ م.
- * مؤتمر الأدب الإسلامي بجامعة عين شمس سنة ١٩٩٢ م.
- * مؤتمر الجنادرية بالسعودية سنة ١٩٩٣ - ١٤١٣ هـ.
- * مؤتمر الأدب الإسلامي بتركيا سنة ١٩٩٣ م.
- * أشرف على عديد من الرسائل الجامعية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه.
- * ناقش كثيرا من الرسائل الجامعية في جامعة الأزهر وجامعة الزقازيق وجامعات المملكة العربية السعودية.
- * مؤسس الصالون الأدبي بالشرقية . ويعقد بمنزله شهريا .
- * نشر نتاجه الإبداعي والنقدي في كثير من المجلات والجرائد المصرية والعربية .
- * فاز في كثير من المسابقات الشعرية في مصر وفي السعودية .
- * كُتبت عنه دراسات عديدة في المجلات والدوريات المتخصصة .
- * يشارك بدراساته وأحاديثه في البرامج بإذاعات مصر ، وفي بعض القنوات التلفزيونية .
- * اشترك في تحكيم كثير من المسابقات الأدبية في الشعر والقصة والبحوث والمقالة .
- * سجّلت في دراسة شعره رسالة ماجستير أعدها الباحث «اليومي محمد عوض» ، ونوقشت بكلية اللغة العربية بالمنصورة عام ٢٠٠١ م .

المؤلفات الإبداعية والأدبية والنقدية:

أولاً: دواوين شعرية:

- ١- ديوان «نبضات قلبين بالإشتراك مع عبد العزيز عبد الدايم عام ١٩٦٩ م مطبعة الموسكي بالقاهرة.
- ٢- ديوان «المسافر في سنبلات الزمن» عام ١٩٨٢ م مطبعة الأمانة بالقاهرة.
- ٣- ديوان «الحلم والسفر والتحول» عام ١٩٨٣ م وزارة الثقافة بمصر.
- ٤- ديوان «المرايا وزهرة النار» عام ١٩٨٨ م الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة.
- ٥- ديوان «العاشق والنهر» عام ١٩٩٤ م الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.
- ٦- ديوان «مدائن الفجر» عام ١٩٩٤ م رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- ٧- مسرحية «النبوءة» مسرحية شعرية «مخطوطة».
- ٨- ديوان «العمر والريح» قيد الطبع بالهيئة العامة للكتاب.

ثانياً: كتب أدبية ونقدية:

- ١- مقالات وبحوث في الأدب المعاصر، دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٣ م.
- ٢- محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة، دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٤ م.
- ٣- الأدب الصوفي: اتجاهاته وخصائصه، دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٤ م.
- ٤- فن كتابة البحث الأدبي والمقال، مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٩٨٤ م.
- ٥- من القيم الإسلامية في الأدب العربي، مطابع جامعة الزقازيق سنة ١٩٨٨ م.
- ٦- التجربة الإبداعية في ضوء النقد الحديث، مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٨٩ م.
- ٧- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، دار الأرقم بالزقازيق سنة ١٩٩٠ م ط ١.

- ٨- الأدب المقارن «دراسات في المصطلح والظاهرة والتأثير»، مطبعة الأمانة بالقاهرة ١٩٩٠م.
- ٩- موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور، مطبعة الخانجي بالقاهرة ١٩٩٢م.
- ١٠- أدب المهجر، دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٣م.
- ١١- الحديث النبوي «رؤية فنية جمالية» دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩م.
- ١٢- شعراء وتجارب «نحو منهج تكاملي في النقد التطبيقي» دار الوفاء ٢٠٠٠م.
- ١٣- هاشم الرفاعي «الكوكب الآفل»: الهيئة العامة لقصور الثقافة، قيد الطبع.
- ١٤- تاج المدائح النبوية: قصيد «البردة» لكعب بن زهير رؤية نقدية معاصرة». دار هديل للنشر والتوزيع بالزقازيق ١٩٩٤م.
- ١٥- ديوان «الشعراوي» جمع وتحقيق ودراسة.

رابعاً: ما كتب عنه:

- ١- كتاب «أبعاد التجربة الشعرية في شعر د/ صابر عبد الدايم ١٩٩٢م. د/ صادق حبيب نشر دار الأرقم بالزقازيق.
- ٢- مبحثان في كتاب «القرآن ونظرية الفن» للدكتور/ حسين علي محمد- مطبعة حسان ١٩٩٢م.
- ٣- بعض المباحث في عدة كتب للدكتور/ أحمد زلط».
- ٤- بعض الدراسات النقدية في مجلات كلية اللغة العربية بالزقازيق، وكلية اللغة العربية بالمنوفية، ودمنهور، وفي مجلة الشعر بالقاهرة، وجريدة المسلمون الدولية.

٥ - كُتِبَتْ عَنْهُ وَعَنْ أَشْعَارِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُبَاحِثِ وَالدراسات النقدية في عدة كتب أدبية معاصرة بأقلام الأساتذة النقاد والأدباء .

د/ عبد الحكيم حسان- د/ طه وادي- د/ حسين علي محمد- د/ حلمي القاعود- د/ صادق حبيب- د/ عبد الله الزهراني «السعودية»- د/ محمد ابن سعد بن حسين «السعودية»- د/ صلاح الدين حسنين- د/ سيد الديب- د/ ناجي فؤاد بدوي- د/ فتحي أبو عيسى- د/ حامد أبو أحمد- د/ فتحي أبو عيسى- د/ محمد السيد سلامة- د/ طه زيد- أ/ علي عبد الفتاح «الكويت»- أ/ حيدر قفة «الأردن»- د/ حسن الأمراني «المغرب»- أ/ أحمد محمود مبارك- أ/ البيومي محمد عوض .

الفهرس

٥	إهداء
٧	مقدمة

القسم الأول

«من معالم التأصيل»

١٩	أولاً: معالم التجربة الأدبية في ظل خصائص التصور الإسلامي
٥٩	ثانياً: أبعاد الرؤية الإسلامية في الشعر المعاصر
٢٠٤	ثالثاً: أدب الطفولة في ضوء التصور الإسلامي
٢٣١	رابعاً: يا أدباء الإسلام انتبهوا - هذه هي ملامح الواقعة المحزنة
٢٣٧	خامساً: الأدب الإسلامي .. آفاقه وحدوده

القسم الثاني

دراسات نصية تطبيقية

٢٥١	أولاً: من أسرار البيان النبوي في خطبة حجة الوداع
٢٦١	نص خطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع
٢٦٤	ثانياً: غزوة الخندق بين شاعرين

٢٨٤	ثالثا: معالم الرؤية الإسلامية في شعر محمود غنيم
		رابعاً: من معالم التجربة الشعرية في ديوان «نسمات إيمانية»
٣٠٢	للشاعر الدكتور/ أحمد عمر هاشم
٣١٦	خامساً: استدعاء الشخصية الإسلامية في ديوان حدائق الصوت ...
٣٢٣	سادساً: ظلال الرؤية الإسلامية في شعر هاشم الرفاعي
		سابعاً: معالم التجربة الشعرية في قصة إبراهيم الخليل للشاعر/
٣٣١	أحمد نور الدين
٣٤٤	ثامناً: أبعاد التجربة الإسلامية في شعر محمد السنهوتي
٣٦٥	خاتمة
٣٦٨	المراجع والمصادر
٣٧٣	المؤلف في سطور
٣٧٨	الفهرس ..

رقم الإيداع ٤٣٩٢/٢٠٠٢
الترقيم الدولي 8 - 0811 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيديويه المعري - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)



د. صباير عبد الدابيس
استاذ الآداب والنقد بجامعة الأزهر
ووكيل كلية اللغة العربية بالقاهرة
عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر
عضو رابطة الآداب الإسلامي العالمية

الآداب الإسلامي

بين النظرية والتطبيق

يرصد المؤلف في هذا الكتاب معالم التجربة الأدبية في ظل خصائص التصور الإسلامي ويلقي الضوء كذلك على أبعاد الروية الإسلامية في الشعر المعاصر فالأديب المسلم كما يقول المؤلف:

تنطلق تجاربه من تبع إيمانه الفياض بالتسليم المطلق لخالق الكون جل وعلا، وهو يمزج هذه الانطلاقة الإيمانية بالتأمل في مشاهد الكون، والنظر في ملكوت السماوات والأرض، واستجلاء معالم القدرة الإلهية في صنعة هذا الكون البديع المتناسق وهو في غمرة تجاربه الإيمانية والتأملية لا يكون بمعزل عن واقع الحياة، ومشاغل الإنسان وآماله وأحلامه فهو في إيمانه يتأمل ما خفي من أسرار الكون، وهو في تأملاته يستجلي أسرار الحياة، ويبحث عن منافذ الخلاص للإنسان عبر رؤية إسلامية متميزة تصاغ معالمها في قالب فني موثر.

وفي معرض إرساء هذه الخصائص في حقل التجارب الأدبية ناقش الباحث كثيرًا من المواقف والآراء التي شاعت في حقل النقد القديم والحديث، وكشف كذلك عن زيف بعض القيم الفنية والموضوعية التي خلفتها المذاهب الأدبية والنقدية.

الناشر

دار الشروق

القاهرة، ٨ شارع سيدي بويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
من ب.ب. ٢٢ البانوراما - تلخون، ١٠٢٣٩٩ - ١٤٨ - فاكس، ٢٧٥١٧ (١٠-٢) ١٠٢٣٩٩
بيروت، من ب.ب. ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٨٨٩٩ - ٨٠٧٦١٢ - فاكس، ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)